حازم صاغيّة

جيرمين و إخوانها

قصص

دار الساقي

جيرمين وإخوانها

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- العرب بين الحجر والذرّة
- وداع العروبة
- بعث العراق
- مأزق الفرد في الشرق الأوسط
- أنا كوماري من سريلانكا
- هذه ليست سيرة
- نواصب وروافض
- نانسي ليست كارل ماركس
- مذكّرات رندا الترانس
- هجاء السلاح
- البعث السوري
- الانهيار المديد
- شعوب الشعب اللبناني (بالتعاون مع بيسان الشيخ)

حازم صاغيّة

جيرمين وإخوانها

قصص

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

©دار الساقي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، ٢٠١٧

الطبعة الإلكترونية، ٢٠١٧

ISBN-978-614-03-0119-1

دار الساقي

بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: ٥٣٤٢/١١٣.

الرمز البريدي: ٦١١٤ - ٢٠٣٣

هاتف: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٢، فاكس: ٩٦١ ١ ٨٦٦٤٤٣

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

تابعونا على

DarAlSaqi@

دار الساقي

Dar Al Saqi

إلى سني صاغيَة

حيوات بريئة

جيرمين التي ضاعت في نيويورك

لم يكن من السهل التعرّف إلى عمر جيرمين. كان أمرها يشبه الأحجية: هل تعرف عمرها؟ كان يسألنا يوسف، ابن شقيقتها، واثقاً من أنّنا لن نعرف.

فجيرمين التي صدمتها سيّارة وهي طفلة، نمت نموّاً متفاوتاً كما ينمو العشب البرّيّ. جسمها ظلّ صغيراً ورفيعاً كجسم تلميذة ابتدائيّة تشارك في مباريات مدرسيّة للركض، إذ رجلاها أطول ممّا يحتمله ذاك الجسد الضئيل. وبين أفراد البيت الآخرين، وكلّهم ذوو قامات ضخمة، بدت جيرمين أشبه باللعبة التي تتحرّك وسط ظلالهم. أمّا عقلها، فتوقّف عند ما كانه في لحظة سابقة، أو ربّما رجع إلى زمن يسبقه. لكن جيرمين التي كانت يومذاك في الخمسين، امتلكت حكمة تقودها، في أغلب الأحيان، إلى الحكم الصائب. فهي، بفراسة عجيبة، كانت تميّز الخير عن الشرّ، والخيّر عن الشرّير. ولم تكن تخطئ إلاّ نادراً، إذ تجيء أحداث تؤكّد أنّها كانت سبّاقة في إدراك الصواب.

وهي حين تتحدّث، كانت تردّد عبارات طفليّة في معناها كما في لفظها، لكنها كانت تبدي استعدادات طيّبة لتعلّم كلمات جديدة حتى إن استخدمتها بكثير من التصرّف. وأذكر من تلك المفردات كلمة "بورجوازيّة" التي طرأت على بيتهم مع اعتناق يوسف

الماركسيّة واستقباله في البيت أصدقاء يردّدون ذاك المصطلح.

وبالفعل، صارت جيرمين تتّهم من لا تحبّهم ممّن يتردّدون على البيت بأنّهم بورجوازيّون، أمّا الذين تحبّهم، ولسبب ما كنتُ في عدادهم، فكانت تصفهم بأنّهم غير بورجوازيّين.

وهي كانت تكره طلال بقدر ما تحبّني، فتسمّيه ضلال، من غير أن تعرف بالطبع الفارق بين الاسمين، وكانت تصفه بأنّه بورجوازيّ، علماً بأنّ طلال الذي ترك المدرسة آنذاك ولم يجد عملاً، كان يستدين منّي ومن غيري أجرة سيّارة السرفيس التي تقلّه من بيته إلى بيت جيرمين.

وهي عمّمت وصفها هذا فكانت تطلقه على باعة الحيّ الجوّالين الذين يقصدون بيت يوسف، لأنّ أمّه ليلى أنشأت نوعاً من تقسيم العمل الضمنيّ بينها وبينهم: هم يأتون حاملين معهم حاجة البيت من الخضار والفاكهة، فيما يوفّر البيت الكثير الغرف الراحة وأحياناً النوم لهم. مع ذلك، أصرّت جيرمين على إعمال فرزها الدقيق هنا، فرأت بائع البطاطا بورجوازيّاً، وهي التهمة التي برّأت منها بائع البطيخ.

وقد روى لي يوسف أنّ جيرمين في مرحلة سابقة، حين لم أكن أعرفه وأعرف بيته، كانت تستخدم تعبير "انعزاليّ" في معرض الهجاء، و"وحدويّ" في معرض المديح، تأثّراً منها بناصريّة ابن شقيقتها يومذاك.

وعلى تقلّب أطوارها الزمنيّة واللغويّة، درجت جيرمين على النوم في سرير أمّها، وأغلب الظنّ أنّ نومها هكذا بدأ في عهد الطفولة، مع الضربة التي تعرّضت لها حينذاك. أمّا نحن –الزوّار– فكنّا نرى الاثنتين، هي وأمّها، تخرجان معاً، وفي اللحظة نفسها، من غرفة نومهما إلى الصالون الذي نجلس فيه والمحاط، كما في البيوت الشرقيّة، بغرف النوم، لكنّ خروجهما معاً كان يضاعف الشعور بالغرابة: فالأمّ، أنجيل، كانت بالغة الطول وممتلئة الجسد، لا تلبس إلاّ اللون الأسود الذي يغطّيها من أعلاها إلى أدناها، فلا ينفر منه إلاّ شعر شديد البياض في رأسها. وكانت أنجيل تظلّ صامتة، تشدّ انتباهنا إليها بصمتها، وبمهابتها التي يزيدها عَرَج في رجلها اليمنى يسبغ عليها ملمح قرصان بحريّ ضخم الجثّة وكثير الأسرار. مع هذا، كانت جيرمين التي تلبس أيّ لون وتقول أيّ كلام، تكسر مهابة الأمّ بصوت يسبقها، رفيع وزجاجيّ المخارج ومليء بالكلمات التي لا يفهم معظمَها الحاضرون.

ولم تكن أنجيل وجيرمين الوحيدتين اللتين تخرجان علينا من غرفة مقفلة. فكذلك كانت تفعل أمّ نصري، المرأة المسنّة الأخرى التي تواضعنا جميعاً على تجاهلها ووصفها باللؤم ونسج المكائد. فالبيت الكبير هو بيت ابنها نصري، والد يوسف وزوج أمّه ليلى التي هي أخت جيرمين الكبرى وابنة أنجيل. وأمّ نصري كانت تكرههم جميعاً، وتعيش في تلك الغرفة لا تخالطهم ولا تكلّمهم

ولا تأكل معهم. وباستثناء بيت الخلاء، كانت تقضي جميع حاجاتها في غرفتها. وهي، منذ وفاة ابنها قبل نحو من عقدين، حلّت في تلك الغرفة التي رأت أنّها ورثتها عن ابنها، وأنّ لا حقّ لزوجته ليلى فيها.

وقضت المصادفة أن أجلس، حين أكون في بيت يوسف وأهله، على كرسيّ يقابل باب الغرفة التي تخرج منها أمّ نصري. وذات مرّة، توجّهت نحوي بنظرة منقبضة وبتركيز بالغ، وبينما كانت تتقدّم في اتّجاهي، صمت جميع من في الغرفة متابعين بدقّة حدثاً غير مألوف. لكنّ أمّ نصري ما إن اقتربت، حتّى رفعت سبّابتها في وجهي وقالت: "تؤلّف ولا تؤلّفان"، ثمّ مضت تحدّثني، وكنّا عشيّة اندلاع الحرب الأهليّة، عن الدم الذي "سيطمر جونيه وجون" وسوف "يغرق فيه العجل الرضيع". وقد عرفتُ لاحقاً ممّن تلصّصوا عليها أنّ أمّ نصري كانت تجمع خلسة الجرائد التي تجدها متروكة على كراسي الصالون وطاولاته وتقرأها في غرفتها، لكنّها كانت تقرأها بالعرض، من دون اعتبار للخطوط الفاصلة بين إطار وإطار، وبين خبر وخبر. فهي تُكمل السطر حتّى النهاية عابرةً الأخبار التي تقع على المستوى نفسه، قبل أن تهبط إلى السطر الثاني. وهكذا كوّنت أمّ نصري ثقافة سياسيّة غريبة كان ما يرشح منها موضع استغراب وضحك. فقد أفهمتها طريقتها في القراءة أنّ حبّاً شديد القوّة، يكاد يكون غراماً، يربط بين

بيار الجميّل وياسر عرفات، وأنّ حرباً عالميّة رابعة وقعت للتوّ وانتصرت فيها أفريقيا.

وجيرمين لم تكن تملك نوايا سلميّة حيال أمّ نصري، فهي كانت تتهجم عليها حين تمرّ بمحاذاتها، فتردعها ليلى أو أنجيل من دون أن تستطيعا منعها من رسم إشارات مسيئة لها من وراء ظهرها. فهي كانت تضع إصبعها على رأسها ثمّ تنفض يدها كلّها في الهواء، وترفع رأسها إلى الأعلى كأنّها تقول إنّ عقل أمّ نصري نفد أو تبخّر ولم يبق منه شيء يُذكر. هنا أيضاً، وقبل أن تلتفت أمّ نصري إلى الوراء، كانت أنجيل، بوجه كثير العبوس، تجذب جيرمين من يدها، حائلةً دون اشتباك محتمل.

وذات يوم، حين قصدتُ بيت يوسف، وجدت أمّه ليلى تبكي وقد ودّعت للتوّ أمّها أنجيل وأختها جيرمين. "لقد ذهبتا إلى البرازيل ولن تعودا قبل ثلاثة أشهر"، أجابتني عن سؤالي، قبل أن تشرح لي أنّ أخاها الذي يقيم هناك هو الذي دعاهما وزوّدهما بطاقتي سفر تنتقلان بموجبهما إلى الريّو بعد مرورهما بنيويورك. وكتمتُ فضولاً قويّاً انتابني، وأنا أسمع أسماء تلك المدن، لأن أرى ما الذي لبسته جيرمين لرحلتها، وبأيّ مزاج ستصعد الطائرة، وماذا ستفعل في الجوّ، وكيف ستتصرّف في تلك المدن، ثمّ قلت لليلى، محاولاً طرد كآبتها إنّنا سنضحك ونتسلّى كثيراً بعد عودتهما وسماع

أخبار جيرمين. لكنّ ما وصل من أخبار جيرمين، بعد أيّام قليلة، لا يُضحك بتاتاً ولا يسلّي.

فهناك في نيويورك، ولسبب لا يعرفه إلاّ الله، قصدتا مُجمّعاً تجاريّاً بالغ الضخامة على ما يبدو. وبخطأ ما، صعدت جيرمين في أحد مصاعده، فيما صعدت أنجيل في مصعد ثانٍ. بعد ذاك، لم تلتقيا، ولم يظهر أثر لجيرمين.

أشياء كثيرة تعلّق بها أنطون الذي كان سريع التعلّق بالأشياء، لكنّ السياسة لم تكن واحداً منها. يومذاك كنّا، نحن المراهقين، إمّا حزبيّين أو مُقبلين على تحزّب ما، وكان أنطون ينضمّ إلينا كلّما تجمّعنا حول طاولة في المقهى الذي يديره، "لأنّني أحبّهم كلّهم على اختلافهم"، كما كان يقول. لكنّ عقل أنطون كان يعمل بطريقة بدت لنا غريبة، فيقوده في اتّجاهات لا تلتقطها آلاتنا المعتادة. فحين تحدّث أحدنا بحذلقة المراهقين عن نابوليون وهل كان صناعة التاريخ، كما قال إنغلز، أو صانعه، كما رأى سارتر، تدخّل أنطون على غير عادته في هذه النقاشات، سائلاً: لكنْ قل لي من هي أمّ نابوليون؟ وإذ استغربْنا جميعاً سؤاله، وليس بيننا من يملك جواباً عنه، أكّد أنطون أنّه لا يحقّ لنا الخوض في نقاش كهذا ونحن لا نعرف شيئاً عن والدة الإمبراطور الفرنسيّ.

لماذا يا أنطون؟ سألناه...

– "لأنّها هي التي ولدته وربّته، ومن دونها ما كان نابوليون ليوجد وما كان لهذا الخلط الذي تخلطونه في التاريخ أيّ معنى. السؤال الوجيه الذي ينبغي حلّه هو عن دور والدته".

وإذ تبادلنا النظرات والغمزات، أطلق أنطون ضحكته المدوّية التي عُرف بها، كأنّه يقول إنّه هزمنا في

موضوع نتعاطاه ولا يتعاطاه، لكنّه امتصّ بضحكه الطنّان جدّيّة انتصاره علينا ممّا لا ينوي استثماره.

في المقابل، كانت الرياضة، ومعها الاعتداد بالقوّة الجسمانيّة، من مفاخر أنطون، يزاولهما وعيناه على الآخرين، متوقّعاً إقرارهم بأنّهم رأوه وشهدوا على جبروته.

"هل تريد أن تنام ثلاثة أيّام في الفراش؟"، كان يسأل محدّثه. وحين غامر حسام بالإجابة وقال: نعم، عصر أنطون خصره بزندين أوتيا كلّ القوّة، ثمّ رفعه قليلاً عن الأرض وأبعده مسافةً لا تزيد عن ثلاثة أمتار. وفعلاً نام حسام يوماً عن كلّ متر، ولم يقوَ، لثلاثة أيّام، على تحريك ظهره ووسطه.

مذّاك لم يُجب أحد عن سؤال أنطون بـ"نعم".

أمّا إذا ضمّته جلسةٌ ذُكر فيها أنّ ثمّة شخصاً قويّاً في بيلاروسيا، أو في كندا، رأى أنطون أنّ في الكلام تحدّياً شخصيّاً له، أو غمزاً من قناته، واستفهم بشيء من الحدّة والاستنفار عن هذا القويّ المذكور ومَن يكون.

والأكل نافس القوّة العضليّة في مراتب اهتمامه، وفي أغلب الظنّ أُريدَ للأمرين أن يحسّنا موقعه بيننا، سيّما وأنّ جهله بالسياسة كان يُضعف ذاك الموقع، لكنّ السرعة التي كان يلتهم بها ما يأكله كانت تُجيز التساؤل: هل كان يتذوّق، بل هل كان يهضم؟ فهو لم يُبدِ مرّةً رأياً في الطعام الكثير الذي يتناوله، وما إذا كان كثير الدسم، مثلاً، أو قليل الملح. فقد نزّه الأكل تماماً

عن الرأي وعامله كأنه محرّم متعالٍ، مع أنّه كان يتدفّق آراءً وأحكاماً مبرمة وهو يتحدّث بازدراء عن كلّ من يُقلّ في طعامه. ذاك أنّ الشبع، في عرفه، كلمة زائدة أو مجانية أوجدتها اللغة عن عبث كي لا تصف شيئاً. وكان له في هذا الأمر حِكَمه وفتاواه. هكذا فرّق بين من يحبّون الأكل وبين من يحبّهم الأكل، وصنّف نفسه في الخانة الثانية. كذلك ميّز في قائمة الطعام التي أعدّها لمقهاه بين "الفرّوج" وبين "الفرّوج الفيتناميّ" المنقوص، الذي كان أنطون مَن يُنقصه بالتهامه فخذاً أو جانحاً منه، قبل أن يصفه بالإصابة في حروب ذاك البلد. وهو كان يبيع الأخير بسعر أقلّ لطالبيه الذين يرى أنهم "مرضى" مثل فرّوجهم، إذ يكتفون بجانح واحد أو فخذ واحد.

وقد درج أنطون، المعتدل البنية والمشدود العضل، على توكيد العلاقة بين القوّة ووفرة الأطعمة المأكولة، فالأولى تقود إلى الثانية حكماً، فيما تعزّز الثانية الأولى وتضمن ديمومتها. وكان من آرائه، في هذا الصدد، ضرورة الابتعاد عن البنات. فهنّ يُضعفن قوّة القويّ الذي يروح يهزل وتنقطع شهيّته فيما يبالغ في التأوّه والاستماع إلى عبد الحليم حافظ.

والحال أنّ الغناء، إذا استثنينا عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش، كان موضع ولعه الأوّل. وأنطون كان ذا صوت كقضم الحجارة، يزيد في بشاعته نشاز غنائه وتقطيع ذاك الغناء بقهقهات الضحك الغريبة التي

يختصّ بها. وتراءى لي ذات مرّة أنّ معاني الكلمات المغنّاة هي ما يُضحكه، إذ أنشأ معها علاقة داخليّة أو سرّيّة يمارسها داخل غرفة سوداء مقيمة في رأسه لا يدخلها سواه. وهو تصرّف دوماً كما لو كان يحاورها فيما يغنّيها، أو كأنّه يكتشف دلالات جديدة لما سبق أن غنّاه مرّات ومرّات. وربّما كان للسجع وللقوافي ممّا استهواه دور في ذلك. فأنطون، في بعض الأوقات التي لم يكن يغنّي فيها، كان يتمتم عبارات لا يفهمها إلاّ من يقتربون منه ويُنصتون بدقّة إليه. وهي عبارات تقارب الهذيان، جيء بها من مطارح متباعدة شتّى وأُلصقت واحدتها بالأخرى، كقوله: "يا جميع الحالمين... كلّكم كيس طحين".

لكنّ فجأةً، ومن دون تمهيد ظاهر، بدأت الأغاني تقود خطاه إلى الأحزاب. فأنطون، ذات مرّة، سمع نشيد حزب الكتائب ونشيد القوميّين السوريّين، فأعجبه الثاني وصار قومياً سوريّاً. ويبدو أنّ أحد "الرفقاء" أراد أن يرسّخ فيه قوميّته المستجدّة فأسمعه أغنية حزبيّة تقول إنّ القوميّين "بيهدّوا جبال"، فاطمأنت نفس أنطون إلى خياره العقائديّ. ورغم بؤسه الماديّ، عزف عن الشيوعيّة التي كانت تستقطب كثيرين من المراهقين عهدذاك، لأنّ الفارق بين القوميّ السوريّ وبين الشيوعيّ أنّ الأوّل يقتل القتيل ويرفع رأسه، فيما الثاني يقتله ويختبئ، كما كان يقول، ظانّاً أنّه لا ينطق إلاّ بالحكمة المصفّاة.

أهل القرية أحبوا، بدورهم، أنطون، ولم يكترثوا بحزبيّته التي رأوا أنها امتداده الفولكلوريّ. وكانت سيرة أبويه من أسباب تلك المحبّة، لأنّ الرواية الشائعة قالت إنّهما وفدا من سوريّا "حين فاض النهر". ومن غير إيضاحات يبدو أنّهم لم يكونوا على بيّنة منها، يُرجّح أنّ المقصودَ النهرُ الكبير الجنوبيّ الذي يُنسب إلى العائلة أنّها عبرته كي تقيم في ضفّته الجنوبيّة، لكنّ من يعرف هزال ذاك النهر وكونه أشبه بالسواقي، ينتابه أنّ المخيّلات صنعت فيضانه العظيم من أجل أن تتخيّل.

على أيّ حال، لم يوصف أبوا أنطون إلاّ بكونهما من "الأوادم الذين يعيشون بعرق الجبين ويربّون أولادهم على خوف الربّ". فالأب المزارع الذي لم يعمّر طويلاً بعدذاك، ترك عن كلّ يوم عاشه بين اللبنانيّين سمعة طيّبة أخرى. أمّا الأمّ، فاجتهدت في مساعدة ربّات البيوت لإعالة صغارها الثلاثة، فأتى أنطون يشبهها في العفويّة والصراحة، وإن شابَهَ أباه في ملامحه الغجريّة التي حاكت "فيضان النهر" في إسباغ الغموض على وفادة العائلة.

ولأنّهم أحبّوه، اهتمّ أهل القرية بإدارة أنطون المقهى الذي استأجره من أحد المهاجرين الملاّكين، مثلما اهتمّوا بأن يُكسبه المالُ القليل الذي يجنيه حياةً كان أبواه يستحقّانها ولم تتسن لهما. لكنّ نُذر الحرب كانت تتجمّع، وكان يزداد ارفضاض الشبّان الذين يقيمون في

المدن عن قريتهم، فيما يعزف المقيمون فيها عن المقاهي.

وسعياً وراء لقمته، غادر أنطون القرية إلى مكان ما على ساحل جبل لبنان حيث عمل نادلاً في أحد المقاهي، لكنّه في هذه الغضون سمع أغاني الشيخ إمام وأحبّها وفضّلها على ما كان يعرفه من أغانٍ وأناشيد. ويقال أنّه لم يعد مذّاك يغنّي إلاّ تلك الأغاني التي ترجم ولعه بها انتساباً إلى "الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين". وربّما عزّز انتماءه معرفته أنّ الجبهة المذكورة مختصّة بخطف الطائرات، ما يوشّي الأغاني بقوّة مؤكّدة لم تزده الأيّام إلاّ انسحاراً بها. ولربّما تخيّل، فوق هذا، أنّ قادة تلك الجبهة الأقوياء هم ممّن يأكلون كثيراً لأنّ خطف طائرة بمعدة فارغة أقرب إلى الاستحالة.

ومن يدري، فأنطون، في أغلب الظنّ، حاول إقناع زملائه الجدد بأنّ أغانيه أجمل من أغانيهم، وبأنّ عليهم تالياً أن يغادروا أحزابهم المسيحيّة وينضمّوا إلى تنظيمه الفلسطينيّ. وربّما تطوّر الجدل حول الأغاني إلى ما لا تُحمد عقباه.

الأمر الذي لا يرقى الشك إليه أنّه قُتل هناك على الساحل، والأمر المحتمل أنّه كان، في تلك اللحظات، يغنّي.

كان حدثاً جللاً حين عرفت أمّ مارون أنّ جميل، ابنها الأصغر، صار شيوعيّاً. تقدّمت بجسدها القويّ المتجذّر في الأرض كجذع من حديد، وصرخت به: تترك حزب العائلة، حزب أهلك وأعمامك وأخوالك، وتنضمّ إلى حزب الغرباء؟ وما إن هدأت قليلاً حتّى استفهمت هل في "حزب الشيوعيّين" أفراد من العائلة التي تخاصم عائلتهم في القرية. وإذ امتنع جميل عن إجابتها وبدا غير مكترث لما تقول، جعلت تتحدّث إلى نفسها وتحرّك يديها صعوداً ونزولاً: "لا بدّ أنّ صديقه وليد (الذي يقارب طولُه ضعفَ طول جميل) هو الذي نقل إليه جرثومة الشيوعيّة. لو كان يحبّه هذا الوليد، ابن الألف شرموطة، لأعطاه شيئاً من طوله بدلاً من أن يجعله شيوعيّاً".

مع ذاك الحدث الزلزاليّ أحسّت أمّ مارون أنّ صفحة مؤلمة في حياتها وحياة أسرتها قد فُتحت، وأنّ ما من عنوان لهذه الصفحة إلاّ... العار. هكذا قرّرت، في اليوم التالي، ألاّ تذهب إلى قريتها الأصليّة إلاّ وقد غدت جثّةً، لأنّها لن تقوى على مواجهة الأقارب هناك. وكان ما عزّز قرارها أنّ أحدهم أخبرها ما كادت تتداعى عند سماعه. فلقد شوهد جميل وهو يشارك في تظاهرة بيروتيّة تهتف: "من قهري ومن جوعي... بدّي أعمل شيوعي". وفعلاً ألمّ بأمّ مارون ما عرّق جسدها خجلاً، خصوصاً أنّ

أفراداً من العائلة اللئيمة إيّاها لا بدّ شاركوا في تلك التظاهرة، ولا بدّ سمعوا ابنها يهتف في الطرقات على مرأى الجميع ومسمعهم، أنّ أهل بيته يجوّعونه ويقهرونه.

– "هنيئاً لك يا أبا مارون أنّك رحلت عن هذه الدنيا ولم تشهد بعينيك عاراً كهذا"، قالت، حاسدةً زوجها على موت أعفاه من مشهد مُشين.

بعد ذاك، أفلتَ من صدرها تيّار كهربائيّ لم يُطق الانحباس طويلاً، فعادت إلى هياج يستعصي على السيطرة. اقتربت من جميل بعينين ناريّتين، فأمسكته بيده وجذبته بقوّة إلى غرفة الطعام حيث خادمتان تحضّران وجبة الفطور: "نجوّعك يا أخو الشرموطة ونقهرك؟ الكنافة والبيض والفول والمناقيش المطروحة على الطاولة، أهذا تسمّيه قهراً وتجويعاً؟ قل لي، قل لي، بحقّ الذي خلقك، مَن سمعك تقول ما تقوله على الطرقات؟ ألم يكن هناك أحد من تلك العائلة اللعينة؟".

على عكس جميل، كان النجل الأكبر، مارون، مثال أمّه وقدوتها. فهو الطبيب الذي نجح نجاحاً صارخاً وبسرعة فائقة، ما سمح للعائلة أن تحرز في غضون سنتين ما يتطلّب عقوداً لإحرازه. فهي انتقلت إلى بيت بالغ الضخامة والفخامة في حيّ ثريّ من بيروت، بعد الإقامة، لدى مغادرة القرية في جرود كسروان، في بيت متواضع في إحدى ضواحي العاصمة. أمّا المنزل الجديد ذو الأثاث المكلف، فاختلطت ألوانه الصارخة وأشياؤه

العديمة التناسق على نحو باهر. لكنّ أمّ مارون كانت تعرف أسعار الأثاث قطعةً قطعة، فتقول إنّ نجلها الأكبر دفع هذا المبلغ على تلك الطاولة وذاك المبلغ على ذاك الكرسيّ، ثمّ تهزّ رأسها مستنكرةً الأسعار الجديدة التي لم تعهد مثلها من قبل، من دون أن تكتم، في الوقت عينه، تباهيها واعتزازها بها. ولم تكن الغرف تؤطّر أشياء البيت، إذ تتراكم في الصالون، مثلاً، أدوات يُفترض أن تكون في المطبخ، أو يُعثر في الحمّام على صور أبناء أمّ مارون حين كانوا أطفالاً، فيما تُترك على طاولة الطعام لفائف أوراق التواليت.

مع هذا، كان العدوان الأكبر على ذاك البيت مصدره مارون نفسه. فهو، ككتائبيّ متحمّس وصاعد في مراتب الحزب، درج على تعليق صور بيار الجميّل، مؤسّس حزبه، على جدران البيت الداخليّة وعلى فيتريناته الزجاجيّة ومراياه الكبرى، فيما كان يلصق، بين واحدتها والأخرى، صورة أرزة كتائبيّة، أو صورة المرشّح الحزبيّ للانتخابات في قضاء كسروان.

رغم ذلك، بقي ما يفعله مارون هو الصواب الذي ينبغي أن يُفعل. فهو من أنفق على تعليم أخيه الثاني الذي صار محامياً، وأخيه الثالث الذي صار مهندساً، كما لا يزال ينفق على جميل ودراسته الجامعيّة. هكذا صارت أمّهم ما إن تسمّي واحداً منهم في غيابه حتّى تضيف اختصاصه المهنيّ، فتقول، مثلاً، إنّ ابنها الطبيب قال لابنها المحامي إنّ ابنها المهندس سوف يفعل كذا،

لكنّ حين يصل الدور إلى جميل، تكاد لا تسمّيه إذ هو لا يزال طالباً، بلا لقب، وهذا قبل أن يصير شيوعيّاً يستحقّ المزيد من التجهيل. لقد كانت تكتفي بأن تشير بكفّها إليه كما تتقلّص أنفها كأنّها تتّقي رائحة قبيحة.

بدوره، لم يكن جميل يطالب بالكثير، كما لم يكن يجادل في ما يسمعه من اتّهامات أو يعانيه من استبعاد. فهو إذا ما واجه وضعاً حرجاً، ردّ بإشارة من يده كأنّه يرمي الإساءة إلى الهواء الكثير وراء رأسه، ثمّ يُتبع حركته بالانتقال إلى مكان آخر في البيت فارّاً من أرض المعركة. فهو لا يريد سوى الحفاظ على بقائه من دون تورّط في مواقف يُضطرّ لاحقاً إلى الدفاع عنها. والأهمّ، أنّه مدرك توازنَ القوى المختلّ داخل البيت، الذي يزداد اختلالاً كلّ يوم مع تنامي الثراء الذي يحرزه الأخ الأكبر ومع تعاظم إنفاقه واستهلاكه.

وبما يليق بالأغنياء، صار مارون يمارس الغولف والتزلّج اللذين يقصدهما مصحوباً بعدّة كاملة من الملابس والآلات، فيما تتابع الوالدة بنظراتها حمله تلك العدّة الغامضة ونقلها إلى السيّارة في حبور عارم ينفجر على وجهها انفجار بركة إلهيّة لا يُعقَل سرّها.

والأمّ كانت تحيّد مارون عن لغتها التي اجتمعت فيها ألسنة القرية وقاموس الضاحية البيروتيّة. فهي وأبناؤها الآخرون كثيراً ما كانوا حين يتخاطبون يتبادلون ما يندر سماعه في باقي البيوت. ذاك أنّ الشتائم البذيئة تتطاير في فضاء المنزل وتنبتّ في هوائه، فيما مارون

الذي ينزّهه موقعه عن التفوّه بالشتائم، يرنو إليهم باستحسان كأنّه الحَكَم بين شتائمهم، لكنّ الشتيمة لا تعني الإهانة في ذاك المنزل ولا ينجرّ عنها خلاف أو غضب. "لا تغلط. هذا شيء وذاك شيء آخر"، قالت أمّ جميل لضيف استغرب أمر العائلة وطريقة تخاطُبها، "نحن هكذا، أحبّ أولادي كثيراً وهم يحترمونني كثيراً، لكنّنا هكذا خُلقنا". وتدخّل مارون موافقاً ومبتسماً، ولأنّه شاء أن يعزّز موقفه بالفصحى وبالحِكَم التي تُفحم السائل، ردّد قول الشاعر: "الأمّ مدرسة إذا أعددتها...".

وما هي إلاّ أشهر حتّى تصالحت العائلة مع شيوعيّة جميل، مثلما يتصالح المرء مع موت شخص عزيز، لكنّنا -أصدقاءه- بتنا ندفع الأثمان المضاعفة لتلك المصالحة. فإذا زرناه وكان مارون في البيت، أصرّ على مناقشتنا التي غالباً ما يبدأها بمديح الثلج، حيث يتزلّج. فهو رمز لبنان وعظمته، وقد كُتبت فيه الأشعار والقصائد وقصص الحبّ والحنين. وعلى حين غرّة، كان يطفح الحزن على وجه مارون المنقبض فينشد مغمضاً عينيه لشدّة التأثّر:

"يا ثلج قد هيّجت أشجاني... ذكّرتني أهلي بلبنان".

أمّا الصحراء، كما يمضي، فلا تعني إلاّ الجدب والموت والتفاهة ممّا يتّهمنا نحن به.

وكان من العبث أن يقال لمارون أنّ شعراً وأدباً كثيرين كُتبا في الصحراء التي حضنت قصص حبّ وحنين لا تُعدّ، أو أنّ الشيوعيّة ليست بالضرورة ولعاً

بالصحارى. فهو سريعاً ما يبدأ الخطابة الحماسيّة على نحو متدفّق لا يترك فرصة لقول آخر، فيما تنبّهنا أمّه بحركات عينيها ويديها إلى ضرورة أن ننصت و"نستفيد". وكثيراً ما كان يناقشنا، وهو واقف منفعل، بثياب داخليّة لم ير حاجة إلى حجبها عنّا، إذ نحن صرنا "من أهل البيت". وأحياناً كان يقطع ما يقوله ليرفع صوت آلة التسجيل بزجليّة عن لبنان، أو بسخرية من عبد الناصر تصفق لها الوالدة على نحو مُوقَّع فيما تتسابق الابتسامات على وجهها:

"عبد الناصر ما نسيتو... من بعد زيارة تيتو

شادد ضهرو بالأسطول... وحامي حالو بالفيتو".

وفي واحدة من لحظات غضبه، ولم يكن أحد منّا قد أغضبه، نظر إلى أخيه جميل، وقال: "جئني بحزب الشيوعيّين، جئني بهم كلّهم مرّةً في الأسبوع، كي أُطعمهم لحماً. إنّهم لا يذوقون اللحم، ولهذا ترى وجوههم صفراء من الجوع ومن اللؤم". وهو كان يقول ما يقوله تاركاً لأمّه أن تمضي في استعراض انبهارها به، مشجّعة إيّاه، بين لحظة وأخرى، على المضيّ في إيضاح الحقائق لنا، نحن "الشّيوعيّين" مرّةً، و"جماعة الفَدائيّين"، أو "أزلام الفلسطينيّين" مرّة أخرى، وكلّها أسماء تصلح أن نُسمّى بها. لكنّنا حين زرنا جميل ذات أحد، لم يكن مارون في البيت، إذ ذهب في رحلة للتزلّج. يومذاك، لم نجد من يناقشنا، وإن هدّدتنا به أمّه عندما يعود. وبعدذاك، لم يناقشنا أحد في ذاك المنزل.

فمارون، على ما يبدو، زلّت قدمه زلّة قاتلة، أو انهارت تحت تلك القدم كتلة ثلجيّة ظنّها صلبة. وكائناً ما كان السبب، لم يرجع من ثلجه، مارون.

"أليس هناك مكان أقرب قليلاً كي نحرّره؟ القدس بعيدة جدّاً يا رجل". هكذا ردّ وسيم على مسؤوله الحزبيّ الذي كان يستسهل الكلام، بمناسبة وبلا مناسبة، عن تحرير القدس. وفي الحالات جميعاً، ربطت وسيم بذاك المسؤول المتشدّد مناكفات كان يتسبّب فيها تماديه في هرطقات بريئة. فهو، مثلاً، كان يستغرب أن يجتمع حزبيّ مع رفاقه في الحزب نفسه، "لأنّنا بهذا نكون نجتمع مع أنفسنا"، والأجدى أن يجتمع كلّ واحد منّا بحزبيّين في أحزاب أخرى، يسمع منهم كلاماً مختلفاً قد يكون مفيداً.

ووسيم زلّت به القدم في عمر مبكّر فراح يتدحرج من حزب إلى حزب. فهو انتسب إلى الكتائب، لكنّ حين انتمى أخوه الأكبر إلى القوميّين السوريّين لحق به إليهم. وعندما اعتنق أخوه الماركسيّة، كان قد بلغ العشرين، فوجد أنّ من غير اللائق أن يتبع أخاه كما تبعه، حين كان في السادسة عشرة، إلى القوميّة السوريّة. يومذاك، حفظاً لماء الوجه، طلب تزويده بمقالة تفنّد أنطون سعادة وأفكاره وحزبه، ولا بدّ أنّ وسيم قال في نفسه: أقرأ هذه المقالة وأقتنع بما يرد فيها، ثمّ أغادر إلى الماركسيّة. لكن المقالة التي أعطيت له كانت طويلة تمتدّ على ثلاث صفحات في المجلّة. وأهمّ من ذلك أنّها خالفت توقّعاته كلّها، فهو كان ينتظر،

من العمود الأوّل، أن يقرأ دحضاً نهائيّاً لأنطون سعادة ولضمّه قبرص إلى أمّته السوريّة أو لكلامه عن الرؤوس المفلطحة، لكنه أكمل بشقّ النفس قراءة ثلاثة أعمدة جعلته يدرك للمرّة الأولى في حياته معنى الضجر، خصوصاً أنّها خلت تماماً من كلّ ذكر لسعادة ولأفكاره. ذاك أنّ الرائج يومذاك كان استهلال المقالات بمقدّمات نظريّة مطوّلة تتناول أنماط الإنتاج وما قبل الرأسماليّة وتذبذبات البورجوازيّة الصغيرة. وإذ استولى على وسيم شعور الغريق الذي انقطع الهواء عنه، رمى المجلّة بعيداً، لاعناً مطبعتها التي ترصّع المقالات بعناوين هي عناوين لمقالات أخرى.

هكذا كان وسيم، وهكذا صار ماركسيّاً على طريقته. فـ"الصراع الطبقيّ" لم يعجبه بتاتاً، كما ظلّ يقول، والماركسيّة نفسها كانت لتبدو "أحلى" لو أنّها خلت من هذه الآفة، لأنّ طيبة القلب تعلو كلّ اعتبار آخر. لكنّ أكرهَ ما كرهَه ما كان يسقيه بعضهم الحقدَ الطبقيّ، فحينما بالغ أحد رفاقه في هجاء شخص "بورجوازيّ صغير" لا يعرفه، انتفض وسيم غضباً: "والله حرام عليك، انتظره حتّى يكبر. هذا فعلاً برهان على لؤم الحقد الطبقيّ وانحطاطه، إذ ما ذنب الطفل إذا كان والده بورجوازيّاً؟".

كان الحريّ بوسيم أن يحقد، لكنّه لم يفعل، بل مضى يبحث عن عذوبة العالم المنسجم الذي تملأه المحبّة والصداقات ويعمر بسهرات الأنس والأخوّة، وباللذيذ

الطيّب ممّا تجود به الطاولات. فهو لم يعرف أباه الذي توفّي بُعيد ولادته، لكنّه عرف من أمّه أنّ يوم دفنه كان يوماً غريباً. ففيما كانت جالسة تبكيه، حضرت امرأة لم يرها أحد من قبل، وجلست إلى جانبها، ثمّ جعلت تشاركها الحزن والبكاء. وعندما سئلت الغريبة عمّن تكون، قالت إنّها زوجة الفقيد، وقد اقترن بها حين كانت أشغاله تقوده إلى بلدتها البعيدة. وما إن أثارت تلك الزوجة الثانية الحيرةَ التي أثارتها، حتّى مسحت دموعها ووقفت واختفت، ولم يعد أحد يسمع بها بعدذاك. أمّا أمّ وسيم، فدرجت على رواية قصّتها هذه، لابنها ولسواه، كأنّها تسرد حادثة غريبة وممتعة حدثت لامرأة أخرى.

رغم ذلك، لم تسفر زيارة الزائرة الغامضة عن سلوى مديدة، فهي نجحت في مقاسمة العائلة الإرثَ القليل الذي خلّفه الوالد الراحل، ثمّ انقضّ أقرباؤه، بالحيلة والرشوة والتسلّل من ثقوب القوانين، على الجزء المتبقّي لأمّ وسيم الضعيفة الخبرة والحيلة، فاستولوا على معظم ما تُرك لها ولابنيها الصغيرين.

ولكي يعيل أمّه، ويساهم في تعليم أخيه الأكبر والناجح دراسيّاً، ترك وسيم باكراً المدرسة التي لم يُطقها من يومه الأوّل فيها، وكان كثيراً ما يُطرد منها. وقد عمل في المطابع والبلديّات وورش البناء، وعانى الجوع معاناة لازمته سنوات طويلة واستدعت منه الكثير من التفكير في كيفيّة سدّه. فحين قصد محلاً

للسندويشات كان سندويشه يباع بـ35 قرشاً، فيما تبيعه كلّ المحلاّت الأخرى بـ25، فجعه أنّ ذاك السندويش الباهظ الثمن رغيف إفرنجيّ يعادل في الحجم نصف الرغيف العربيّ. وقد حسب أنّه، لكي يشبع، يلزمه من السندويشات هذه ما لا يملك إلاّ نصف سعره، فسأل مَن يجهزها أن يلفّ سندويشه الإفرنجيّ برغيف خبز عربيّ. وهو لمدة احترف مشاركة رفاق المقهى صحن حمّص يدفع هو نصف ثمنه فيما يدفع شريكه النصف الآخر. وقد استهدف ذات مرّة شريكاً مات أبوه للتوّ وترك لديه حزناً وغصّة كبيرين. فما إن جيء بالصحن، حتّى بادره وسيم: "كيف توفّي المرحوم والدك؟". وإذ راح الشريك يروي بأدقّ التفاصيل كيف تلوّى أبوه بين يديه، وكيف بكى، وكيف أوصاه بإخوته واحداً واحداً، جعل وسيم يأكل مسرعاً ومستفيداً من انقطاع الشهيّة الذي أصاب شريكه المحزون، لكنّ الأخير ما إن تنبّه إلى الفخّ، ولم يكن قد بقي في الصحن ما يُذكر، حتّى سأل وسيم: "وأبوك أنت كيف توفّي؟"، عندذاك، مسح وسيم بالخبز القليل أمامه ما تبقّى في الصحن وأجاب غير مبالٍ: بسكتة قلبيّة.

وإذ انتهت الحرب وانكفأت الأحزاب على نفسها، كان وسيم بين الأبكر في إعلان أنّ حقبة جديدة بدأت. هكذا اقترن بأوديت التي لم يكد يعرفها، وإن سمع عن أبيها أنّه رجل ثريّ، لا أبناء له، يبحث عن صهر موثوق يدير أشغاله. لكنّ سريعاً ما تبيّن له أنّ ذاك الأب، الذي

خسر جميع ممتلكاته في سنة الحرب الأخيرة، إنّما يبحث عن صهر يعيله و"يستره ويستر ابنته".

هكذا لم يبق أمام وسيم إلاّ الهجرة، لكنْ أيّ هجرة؟ فالحرب سبق أن عرّفته بتاجر مخدّرات تقاطعت مصالحه ومصالح الحزب الذي انتمى إليه وسيم، بحيث صنّفه الحزبيّون "عنصراً وطنيّاً". ويبدو أنّ هذا المهرّب سلّمه شنطة طلب منه أن يوصلها، بعد عشرة أيّام، إلى نيويورك، لكنّها كانت أيّاماً عشرة هزّت وسيم وهزّت من يعرفه ومن يتعرّف إليه. فهو وضع الشنطة وراء باب البيت مباشرة، وصار يستقبل زوّاره الكثيرين بعبارة واحدة لا تتغيّر: "هل تعرف ماذا في هذه الشنطة؟ شاركني نقلها إلى نيويورك، وبعدذاك نقبر الفقر ونعوم على الفلوس".

ولأنّ الأخبار سبقت وسيم إلى أميركا، فهو ما إن وطأ أرض المطار حتّى سيق إلى السجن، لكن السجّانين، على ما يبدو، لاحظوا أنّ وسيم هاوٍ طارئ على أفعال التهريب، وأنّ طيبته كانت موضع استغلال المحترفين. هكذا كُلّف مهمّات في السجن، كإيصال الطعام وبعض الملابس إلى السجينات، فيما أعطيت له امتيازات مقابلاً لها. فهو كان يحظى بمآكل أفضل، كما تتاح له بعض التسلية وبعض العلاقات مع سجينات وقعت إحداهنّ في غرامه. وحين تمكّن شقيقه الأكبر من الاتّصال به، والسؤال بلهفة عن أحواله، جاءه جواب وسيم قاطعاً: "لا تقلق. ما الذي يشتهيه الأخ لأخيه؟ أنا

لا أشتهي لك إلاّ أن تكون هنا. دبّر شنطة في أقرب وقت وسلّم نفسك في مطار نيويورك". وما إن صمت قليلاً حتّى أردف: "لو كنت أعلم بأمر السجن من قبل، هل كنت لأبقى أكثر من سنة في ذاك البيت مع أوديت؟".

عاد وسيم من سجنه بعد عامين ونيّف، حاملاً في جيب سترته دفتراً صغيراً يضمّ أسماء فتيات من سائر بقاع الأرض. فإذا التقى شخصاً ينوي السفر إلى أميركا، بادره بالقول: "أتريدها فيليبينيّة، نيكاراغويّة، نيجيريّة... القرار لك". وغالباً ما كان يقول هذه العبارة لأشخاص تعرّف عليهم للتوّ، مرفقاً إيّاها ببسمة ودودة وبتلويح ظافر بالدفتر الصغير.

وعاش وسيم مع أوديت، من دون حروب وأحزاب، ومن دون مغامرات وتهريب. لقد بدا مستكيناً، كأنّه جرّب العالم كلّه ولم يبقَ من هذا العالم شيء للتجريب. وراح وسيم المتقاعد والمنكفئ يزداد سمنة يوماً بيوم، فيما تقلّ اللحظات التي ينأى فيها عن الخمر أو يكفّ عن التدخين. لقد صار يزن ما يزنه رجلان سمينان وتقلّ همّته عن همّة نصف رجل. وإذ جاءت أوديت ذاك الصباح لتهنّئه ببلوغه الأربعين، لم يُفق وسيم ولم يتقبّل التهنئة.

مدّ يده إلى جيبه وأخرج المفتاح بشيء من التثاقُل، ثمّ فتح الباب ببطء ودخل كأنّه يدخل مكاناً غير آمن. ما إن أقفل الباب وراءه بهدوء المرتاب، وتلفّت حوله قليلاً، حتّى أسند ظهره إليه كأنّه اطمأنّ، أو كأنّه يرتاح من تعبٍ استبدّ به.

ها هو أخيراً يلجأ إلى قلعة حصينة وصديقة، قلعةٍ تحميه من أعداء يحيطون به من كلّ جهات الأرض. هكذا استمرّ توفيق لثوانٍ متّكئاً على الباب، فيما كان يضع يده على جبينه ويمسحه وهو لا يكاد يفتح عينيه حتّى يتركهما تغمضان من تلقائهما. لكنه انتبه فجأة إلى أنّه ربّما ترك المفتاح في قفل الباب الخارجيّ، وبقليل من الاضطراب، أعاد فتح الباب بتوتّر وحذر. وبشيء من التحديق، نظر وتأكّد من أنّ لا مفتاحَ فيه. إذّاك، وبحركة آليّة، دسّ يده في جيبه حيث عثر على المفتاح فازداد اطمئناناً.

البيت الصغير كان أقرب إلى الإعتام، والضوء في لندن خافت أصلاً. ذاك أنّ إحدى نافذتيه تظل موصدة، والأخرى نصف موصدة لا يدخل منها إلا شعاع رفيع يلامس أصصاً على الطاولة تحضن ثلاث وردات حُمراً. وهو كأنّه خالفَ نفسه حين ملأ بالماء قنينة بلاستيكيّة واتّجه بها إلى تلك الأصص يسقيها.

بعدئذٍ، نظر توفيق إلى النافذتين بشيء من التفحص واطمأنّ إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام، ثمّ تقدّم نحو الكنبة العتيقة في صالونه الصغير فألقى عليها جسده المائل إلى الثقل، الذي تزداد كيلوغراماته سنةً بعد سنة. لقد ألقاه كتلةً واحدة مُتعبة أراد أن يخلعها مثلما تُخلع الملابس. وبعد دقيقتين فحسب، وقف وتأمّل للحظة وحرّك رأسه قليلاً جدّاً، لكنّ لم يكن واضحاً ما الذي يحدّق فيه، ثمّ اتّجه بما يشبه التعب والاستقالة نحو المطبخ الملاصق لغرفة الجلوس. هناك فتح الثلاّجة الصغيرة وأخرج منها بيضتين وقطعتين من جبنة البيكون، وأتى برغيف من الخبز المتروك فوق رفّ خشبيّ على مقربة من الثلاّجة، فوضع البيضتين في ركوة للقهوة ملأها ماءً ثمّ ثبّتها على الغاز وأشعل النار تحت البيضتين. كذلك، قشّر قطعتي البيكون كأنّه ينفّذ مهمّة لم ينقطع عنها منذ سنوات طويلة. بعد ذاك، رمى الورق الذي لُفّتا به في سلّة القمامة التي في زاوية المطبخ، وما لبث أن وضع قطعتي البيكون في صحن أخرجه من آلة غسل الصحون، وقوّى النار قليلاً تحت البيضتين وراح من شبّاك المطبخ ينظر، بشيء من التشكيك الغامض، إلى الشارع المجاور، لكنّ الساعة في تلك اللحظة كانت الثامنة مساءً، ولم يكن هناك مَن يُرى في الشارع.

استدار نحو البيضتين اللتين على النار فأطفأ النار تحتهما ببطء يشبه فعل عمل حكيم، وحمل الركوة إلى

حنفيّة الماء البارد التي فتحها وترك ماءها ينهمر على البيضتين. بعد هنيهة، أوقف تدفّقها وأخرج البيضتين وقشّرهما بدأب وبتروٍّ بالغين، ثمّ وضعهما في الصحن إلى جانب قطعتي الجبنة الصغيرتين. وفيما هو واقف، وبوجه تطغى عليه صرامة المهمّات الجليلة، أكل البيضتين وقطعتي الجبنة ورغيف الخبز بحدّ أدنى من المضغ. وبعد هذه العمليّة التي لم تستغرق أكثر من دقيقة، مشى في اتّجاه سلّة القمامة التي في المطبخ. هناك ألقى قشر البيضتين وغسلَ الصحن الذي استخدمه ووضعه إلى جانب صحون مغسولة أخرى قرب المجلى، ثمّ غسل يديه كأنّه يُدينهما أو يتبرّأ منهما، وعاد إلى الكنبة إيّاها وجلس عليها.

توفيق نظر إلى السطح بقدر من الحذر، قبل أن يركّز عينيه على الأرضيّه تركيز من يشرّح تفاصيلها بمبضع. بعد ذاك، وقف، ثمّ رفع عينيه مجدّداً إلى السطح قبل أن تقوده قدماه إلى خزانة صغيرة هي الحدّ الفاصل بين غرفة الجلوس والمطبخ. هناك استلّ القنينة الوحيدة في تلك الخزانة وهي من نوع ويسكي "بلاك فيلفيت" الكنديّ الرخيص. ونحو المطبخ سار ببطء حيث أتى بكوبٍ ملأه ويسكي، وأخرج آلة لفّ السجائر من جيب سترته وراح يلفّ سيجارة. لقد دخّنها وهو يحتسي الويسكي، ثمّ لفّ سيجارة ثانية وملأ بالويسكي كوباً ثانية. وهو دخّن السيجارة الثانية وشرب الكأس الثانية فيما عيناه مثبّتتان على مكان بعينه في الحائط

المقابل. بعد ذاك، قام إلى التلفزيون ففتحه باحثاً عن نشرة أخبار بالفرنسيّة لكنّ لم تكن هناك نشرة أخبار بالفرنسيّة، فأرسل صَفنة أخرى باتّجاه الحائط، ثمّ لفّ سيجارة ثالثة ودخّنها وهو صافنٌ الصفنة إيّاها. في تلك اللحظة، وقف قليلاً، ثمّ اتّجه إلى غرفة النوم الصغيرة المجاورة، فنزع ثيابه التي عاملها كأنّه يتّهمها بتوريطه في ما لا يريده، وبعد ذاك دسّ جسمه في السرير كأنّه يُنهي مهمّة متعِبة طغت على نهاره كلّه. هناك في السرير، صفن قليلاً في الحائط المقابل، ثمّ مدّ يده إلى عضوه الذكريّ كأنّه يتناول صحناً في المطبخ، فاستمنى، مُستحضراً نساء كثيرات شاهدهنّ أو شاهد صورهنّ في المجلاّت التي اقتنى بعضها. بعد ذاك، نام.

في الصباح، استيقظ فجلس على طرف سريره وصفن في الحائط نفسه تعِباً متثاقلاً، يتهيّأ ليومه الجديد بالتعب وبالتثاقل هذين. لبرهة، وقف بكثير من البطء والكسل قبل أن يتّجه إلى المطبخ حيث حضّر بعض القهوة وبدأ بلفّ السيجارة التي يفتتح نهاره بها. وما لبث أن عاد إلى كنبته إيّاها، فدخّن سيجارته وشرب قهوته رشفة بعد رشفة بصوت مسموع، ثمّ اتّجه إلى الثلاّجة التي أخرج منها علبة لبنة، وجاء برغيف خبز من الرفّ الخشبيّ القريب. هكذا تناول توفيق فطوره واقفاً، لكنّه تذكّر وهو يأكل، فطوراً سابقاً يعود إلى أربعين سنة خلت.

آنذاك جمعته بصديق له، والاثنان طالبان جامعيّان في بيروت، شقّة مشتركة أقاما فيها. والاثنان وجدت صداقتهما ما عزّزها في انتمائهما إلى حزب سياسيّ واحد، لكنّهما لم يكونا قد جرّبا السكن المشترك من قبل. وإذ سكنا معاً، اكتشفا أنّ معرفة واحدهما بالآخر ليست من النوع الذي يُعتدّ به.

في صباحهما المشترك الأوّل، حضّرا القهوة وجاءا ببعض اللبنة والجبنة والمربّى، لكنّ ما إن جلسا على الطاولة حتّى بدأ توفيق التذمّر والشكوى: "لعن الله حياتنا، إنّ عيشنا لا ترضاه الكلاب، أهذه حياةٌ وحياة البورجوازيّة حياة، إنّنا كلاب..."، واستمرّ على هذا النحو حتى وقف زميلُ سكنه وغادر الشقّة. وفي صباح اليوم التالي، ما إن جلسا على الطاولة حتّى تكرّر الأمر نفسه واشمأزّ مُساكنه وتوقّف عن الأكل وانسحب أيضاً، لكنّ في اليوم الثالث، عندما بدأ التذمّر نفسه، لكمه مُساكنُه وراح يشتمه بغضب وبتوتّر: "لقد خربتَ يومين من حياتي ولن أدعك تخرب اليوم الثالث... أهكذا تبدأ الصباحات يا حيوان؟". على هذا النحو، انتهت تجربة المساكنة وانفصلا على عداوة.

حكّ خدّه الذي أصيب بلكمة شريك سكنه السابق وتوجّه إلى الحمّام الذي خرج منه بعد دقائق قليلة لا تكفي للاستحمام، ثمّ لبس الملابس التي كان يلبسها بالأمس، وخرج من البيت متّجهاً إلى المكتب الذي لا يبعد أكثر من أربعمئة متر، لكنّ الوجوه التي كان

يصادفها أثناء سيره لم تكن تسرّه بتاتاً. كان يقول في نفسه أشياء يعلّق بها على المارّة: فالعجوز آن له أن يموت، والبشع آن له أن يختفي. أمّا الشابّ الذي كان يمارس رياضة الركض، فاستفزّه أيضاً، إذ وحده المجنون مَن يركض من دون هدف محدّد يسعى إليه. وحين مرّت قبالته فتاة باهرة الجمال يقلّ عمرها عن عشرين، لم يستطع إلاّ أن ينظر إليها بانشداه، لكنه استدرك استدراك الذي يتعافى من انحراف طارئ ألمّ به، وقال لنفسه كأنّها يخاطبها: انتظري ثلاثين عاماً وبعدها نرى كيف تصيرين!

توفيق، في الطريق كما في المكتب، لا يرتاح إلى الأمور التي تبدو له محيّرة أو على شيء من الغموض. وعندما كانت عينه تقع على شخص يقف على شرفة طابق في مبنى شديد الارتفاع، كان يسأل نفسَه سؤالاً بدهيّاً مباشراً: ماذا يحلّ بهذا الشخص إذا وقع أرضاً؟، لكنّه لا يلبث أن يجيب في نفسه، ضامناً لذاك المسكين نهاية مريعة يستحيل فيها التمييز بين لحم وعظم.

وتوفيق ليس معروفاً عنه الكثير. لقد أصيب باليتم في طفولته، وحين توفّيت أمّه بعد سنة على وفاة أبيه، عامله أخوته الأكبر سنّاً بخشونة جعلته يترك البيت في عمر مبكّر. وفي بيروت، مارس حياة عنيفة وأعمالاً فيها شظف، لكنّها درّت عليه ما أمّن له دراسته، قبل أن يقترن بفتاة تعمل موظّفة في البريد. فحين تخرّج،

انتقل إلى الصحافة، وعندما اندلعت الحرب هاجر مصحوباً بزوجته وبطفليه إلى بلجيكا.

أحدٌ لا يعرف كيف عاش في بروكسيل حيث قضى خمس سنوات مع أسرته الصغيرة، قبل أن يتركها للعمل في بريطانيا، لكنّ المؤكّد أنّه كره لندن ولغتها وكلّ ما فيها. هكذا حصر حياته هناك بين البيت والمكتب، فلم يعرف مناطق في العاصمة كـ"سوهو" أو "بيكاديللي سيركوس"، ولم يقصد خمّارة أو مقهى إلاّ نادراً واستجابةً لزميل كان يدعوه بين وقت وآخر. أمّا المسرح والمعرض، فلم يطأهما بتاتاً، وكان ينظر إلى من يزورهما كأنّه غير متيقّن من رجاحته. حتّى الشمس التي كان ظهورها في الأفق يُفقد الإنكليز صوابهم فيروحون يرتمون بأجسادهم شبه العارية في الحدائق العامّة، عجزت عن هزّ قناعته الواثقة بأنّها سوف تغيب بعد ساعتين، فـ"لا تفرحوا كثيراً"، كما كان ينصح زملاءه.

هناك في المكتب، كان يقرأ الصحف اللبنانيّة بتمعّن شديد، متابعاً أدقّ التفاصيل التي تحدث في قرى نائية من لبنان، ومهتمّاً بأخبار السياسيّين الأساسيّين منهم والثانويّين. أمّا ما خلا ذلك، فلم يكن يستغرق منه إلاّ ما تستدعيه ضرورات العمل.

فحين اندلعت الثورات العربيّة، كان توفيق أوّل من تنبّأ بفشلها، لا لسبب إلاّ لأنّها لن تنجح. مع هذا، أفرحته تلك الثورات بأنّها ضاعفت الجهد المطلوب في العمل،

وقدّمت له التبرير اللازم كي لا يطلب إجازة ولا يذهب إلى بروكسيل زائراً عائلته.

توفيق لم يأت في ذاك اليوم إلى المكتب. غريب، قال زملاؤه، وظنّ بعضهم أنّه انتحر. وفعلاً حين اقتحموا بيته، وجدوه جثّة، لكنّهم وجدوا أيضاً ورقة صغيرة رُسم عليها سهم متّجه إلى أصص الزهر، وقد كُتب تحته: أوصيكم بأن تأخذوها من هنا وتسقوها وتعرّضوها لبعض الشمس.

علي وحبّه لماكميلان

لا أعرف، ولن أعرف أبداً، ما الذي جعل علي ينجذب إلى هارولد ماكميلان، وهو رئيس الحكومة البريطانيّة عهدذاك. كان يعدّ أسماء الذين يحبّهم وقد تعلّمها جميعاً من إذاعة "صوت العرب" المصريّة: نهرو وتيتو وسوكارنو ونيكروما ومكاريوس، وطبعاً جمال عبد الناصر الذي كان مَن عرّفه إلى الآخرين. فهؤلاء، في النهاية، أصدقاء عبد الناصر، معبوده ومعبودي، وقد كان يزورهم في بلدانهم ويستضيفهم في بلده مصر، ثمّ تنشر الصحف صورهم وهم يتبادلون الابتسامات العريضة ويتوعّدون الاستعمار. وأغلب الظنّ أنّ الملابس غير الغربيّة التي كان يرتديها معظمهم، بألوانها المبهجة وبزركشاتها الكثيرة، كانت تضاعف اهتمام علي بهم، لكنّه، والعلم في ذلك عند الله، كان يضيف إليهم اسم هارولد ماكميلان الذي يبدو نافراً جدّاً في القائمة تلك.

ما أعرفه أنّ سليم، خال أمّي الذي كنت أسمّيه خالي، كانت تستفزّه فعلة علي الملغزة، لأنّه يُقحم اسم هذا الرجل الاستعماريّ بين أسماء رجال "أوادم" بما يُوقد الحطب في أعصاب الخال المناهض بشدّة للإمبرياليّة. وكلّما كان علي يذكر اسم ماكميلان، كان سليم يردّ بغضب بادٍ وصوت مرتفع: "يلعن أبوك على أبو

ماكميلان... بعذ ناقصنا تحبّ ابن غوريون وتذكرو مع هالأبطال اللي حرّروا شعوبهن".

وذات مرّة، وقد استبدّ الغضب بالخال، مدّ يده إلى المنفضة التي كانت أمامه على الطاولة وقذفها باتّجاه علي. ولحسن الحظّ، أزاح الأخير رأسه قبل أن يفرّ خارج غرفة الجلوس، تلاحقه نظرات من الخال يمتزج السُمّ فيها بالنار. لكنّ، ما إن ابتعد علي قليلاً وأحسّ بالأمان، حتّى راح يهتف وهو يقهقه، كأنّه يمضي في مناكفة تخالطها المداعبة: عاش ماكميلان، عاش ماكميلان...

ومرّةً سألته مَن هو هارولد ماكميلان، فلم يُجبني، ثمّ سألته عن السرّ الذي يدفعه إلى زجّ اسمه في قائمة محبوبيه، فرفع إصبعه وثبّته على رأسه ثمّ حملق إلى الأعلى، كأنّه يقول لي إنّه حرّ بمزاجه وبأهوائه، وما عليّ إلاّ التعامل معه وفق هذا المبدأ.

وهو وضعٌ أصابني بشيء من الحيرة في ما خصّ ماكميلان. فسليم، عطفاً على كونه خال أمّي، أحد مراجعي في الوطنيّة وفي فرز الخطأ عن الصواب، لكنّ لعلي، الذي يكبرني بثلاث سنوات أو أربع، فضلاً عليّ، فهو يحيطني بأخبار الترانزستور وبتأويل معانيها، كما يتواطأ معي حين لا أذهب إلى المدرسة مختاراً مشاركته الاستماع إلى "صوت العرب"، فلا يخبر الأهل بذلك. وأنا، بعد كلّ حساب، لم يساورني أدنى شكّ في

أنّ علي لا يقلّ عن سليم حبّاً للعروبة ولجمال عبد الناصر.

هكذا استقرّت بي الأمور عند نقطة وسطى، حيث أتحفّظ ممتنعاً عن ضمّ ماكميلان إلى قائمة المحبوبين المختارين، كما يفعل علي، لكنّني أعزف عن شتمه والتهجّم عليه، كما يفعل الخال، معوّلاً على أن يتولّى المستقبل وضع النقاط على الحروف. وهو سلوك بدا أشبه بحكمة مبكرة تمنح ابن التاسعة الذي كنتُهُ إياه منصّة تحكيم لا يستحقّها في أمر ماكميلان.

مرّةً واحدة تعرضت علاقة علي بالسياسيّ البريطانيّ المحافظ لما كاد يهدّدها، فلم ينقذها إلاّ سخاؤه في التأويل والاستنتاج. فقد سمع أحمد سعيد، مذيع "صوت العرب" الأشهر، يهاجم ماكميلان بالاسم ويسخر منه، فجاءني مُصفرّ الوجه مهتزّ اليقين كأنّه على مرض. وإذ سألته هل كان متأكّداً ممّا يقول، ردّ بأنّه سمع أحمد سعيد بأذنه ولم يُخبره أحد بالأمر. فهو، لولا هذه الواقعة الدامغة، كان يمكنه أن ينفي كلّ خلاف بين عبد الناصر وماكميلان، فيقول مثلاً إنّ نساء القرية اللواتي اتّهمهنّ بطول اللسان، يحاولن إيقاع خلاف بينهما لا أثر له في الواقع، أو يقول إنّ سليم يهرف بما لا يعرف في السياسة والتحالفات، أو إنّ مكائد كميل شمعون وعملائه تروّج هذه الشائعة الكاذبة. أمّا أنّ مرجعه المباشر أحمد سعيد، الذي كان علي يظنّ أنه ابن شقيق

عبد الناصر، قد سمّى ماكميلان بالاسم، فهذا ما يستحقّ صفنة طويلة يحاول أن يتدبّر بها محنته الطارئة.

ولم يطل به التردّد والتفكير، فقد افترّت شفتا علي عن بسمة واثقة أرفقها بالقول إنّها "لعبة"، غامزاً بإحدى عينيه غمزة عارف مُلمّ بما يجري في الخفاء، وهازّاً رأسه قليلاً إلى الأعلى وزامّاً شفتيه. ذاك أنّ عبد الناصر، بسبب من فطنته الخارقة، يريد أن يُظَنّ أنّه يكره ماكميلان، فيكلّف ابن شقيقه بثّ هذه المعلومة على أوسع نطاق، لكنّ الحقيقة أنّ الزعيم المصريّ لا يكره السياسيّ البريطانيّ، بل يكره أشخاصاً آخرين كملك الأردنّ حسين. فحينما يحين الوقت لإطاحة حسين، سيأتي من يعاتب عبد الناصر على عمله، وعندذلك، يقول الأخير لمعاتبه: أنا أكره ماكميلان ولا أكره الملك حسين بشهادة ما قاله ابن أخي في الإذاعة.

وأنهى علي فتواه الثاقبة بملاحظة أنّ للسياسة أصولاً لم يعد في وسع سليم أن يفهمها، هو الطيّب القلب والعصبيّ الذي بدأت السنّ تتقدّم به.

هكذا بقيت أحجية ماكميلان بلا تفسير، خصوصاً أنّ علي لم يحاول مرّةً أن يبدّد الغموض الكبير.

فهل عرف مثلاً أنّ ماكميلان حلّ محلّ أنتوني إيدن بعد إخفاق حملته على عبد الناصر واستقالته المهينة، فأحبّه بوصفه بديل إيدن؟ أم رأى صورته الشهيرة تلك، التي كانت الصحف تكثر نشرها، وهو ممدّد على الأرض يستريح في رحلة صيد، وإلى جانبه كلبه وبندقيّته،

فأعجبته الصورة؟ أم أخذ بمظهره الأنيق ووجهه الواضح القسمات وشاربيه المنظّمين؟ أم بدا اسم ماكميلان له غريباً ومارس عليه سحراً خاصّاً؟

من دون أن أستطيع الجزم، تستوقفني الفرضيّة الأخيرة. فعلي كانت تلفته الأسماء غير المألوفة، وكان من أصحاب هذه الأسماء جوزيف بروز تيتو، لا سيّما كلمة "بروز"، حيث كان يشدّد على حرف الزين ويضحك ضحك مودّة لا ضحك استهزاء، كأنّه يقول إنّ الزعيم اليوغوسلافيّ على شيء من الاحتيال، وإنّه يعرف هذا الطبع فيه، لكنّه يوظّف صفته لمصلحة الشعب فلا يحتال إلاّ على الاستعمار. والأمر نفسه يصحّ على جواهر لال نهرو الذي بدا له عظيماً يستحقّ أن يُذكر بجدّيّة وبإجلال أكبر، وهو تقدير ربّما نجم عن كلمة "جواهر"، وإن أضعفتها قليلاً كلمة "لال" التي اعتبر أنّها لا تليق به. وأذكر أنّه مرّةً شاورني، وقد سمع اسم الزعيم الهنديّ في صيغة الباندیت نهرو، في معنى "باندیت" الذي كنت أجهله، فقلت له إنّه ربّما كان لقباً يعطيه الهنود لمن يحبّون العرب منهم. ويظهر أنّ جوابي عزّز حبّه للزعيم الهنديّ وأقنعه بصوابه.

والزمن، في الحالات جميعاً، فعل فعله. فقد انقضى ربع قرن لم أكن خلاله أرى علي إلاّ نادراً، وعرفت أنّه في هذه الغضون انضمّ إلى "جبهة النضال الشعبيّ" واتّخذ لنفسه اسماً حركيّاً، كما صار، عشيّة اندلاع الحرب، أحد قياديّي تلك الجبهة في شمال لبنان. أمّا

بعدما اندلعت، فتوهّم أنّه يستطيع الوصول من طرابلس إلى بيروت عبر حاجز البربارة الكتائبيّ، وثمّة من يقول إنّه كان ينقل منشورات وبطاقات أصدرتها الجبهة إيّاها. فهو ربّما ظنّ أنّ كتائبيّي الحاجز لن يعرفوه، وربّما حمل بطاقة هويّة مزوّرة باسمٍ غير اسمه، وربّما تراءى له أنّهم لن يجرأوا على إيذائه. لكنّ توقّعات علي، كائنة ما كانت، أخطأت سبيلها، وهو لم يظهر له أثر بعدما شوهد في البربارة. أمّا الجبهة التي انتمى إليها، فما لبثت، بعد بضعة أسابيع تأكّد فيها خبر وفاته، أن نعته بوصفه "الرفيق القائد الشهيد هارولد ماكميلان".

جيراننا الماويّون

في جوار قريتنا الواقعة شمال لبنان، تقيم عائلة صينيّة. هذا ما بات بعضهم عندنا يقولونه عن بيت من بيوت قرية الدارة، حين سمعوا أنّهم ماويّون. وقد تفنّنوا في خيالهم الجامح وزادوه جموحاً إذ صاروا يشبّهون شبّان تلك العائلة بالصينيّين، فيقولون إنّ أنف مصطفى أفطس، وإنّ عيني أكرم بالغتا الصغر، وإنّ لون بشرتهما أصفر. وهم كانوا يستغربون بشدّة كلامي حين أنفي عن صديقيّ مصطفى وأكرم أن يكونا هكذا، ظانّين أنّني أنحاز إليهما وأُحابيهما على حساب الحقيقة.

وهل هو عيب أن يبدو المرء صينيّاً؟ يتساءلون في ما يشبه الاستنكار لنفيي الذي لا يستهدف الإساءة إلى الصين والصينيّين بقدر ما يتوخّى الدقّة.

واقع الحال أنّ الدارة، المسلمة، التي ينتسب إليها الأخوان مصطفى وأكرم، لا تجاور قريتنا فحسب، بل تجاور أيضاً عدداً من القرى المسيحيّة التي عرفت، بسبب الإقبال المبكّر على الهجرة، تحسّناً في معيشتها وتعليم أبنائها. وإذ ربطت الدارة بهذه القرى علاقات جيرة ممتازة، صار رجالها يقولون بصراحة لا مواربة فيها، إنّهم ينوون جعل قريتهم مثل قرى المسيحيّين، وتربية أبنائهم بالطرق التي ربّت فيها تلك القرى أبناءها.

وكان للخمسينات والستينات أن أنجحت الرهان الذي عقدوه، فغدت المثالات السائدة عند أهل الدارة تتفاوت

بين الهجرة والوظيفة اللتين تتيحان الحياة اليُسرى وبناء البيوت الأجمل وتعليم الأبناء، إمّا في طرابلس وإما في مدارس الجوار المسيحيّ. ولئن وُجد في القرية جامع يعود بناؤه إلى مطالع القرن العشرين، فقد حوّله تغلّبُ تلك المثالات على سواها إلى مكان مهجور. فأهل الدارة لا يصلّون ولا يصومون ولا تتحجّب نساؤهم، وهم يحتسون الخمر، فيما يحلم أبناؤهم بالسفر إلى أوروبا وأميركا.

مع ذلك، بثّت عودة مصطفى وأكرم ذات صيف إلى قريتهما عنصراً جديداً في اللوحة تلك. فالأخَوان اللذان كانا يدرسان في طرابلس انتميا إلى حركة "فتح"، كما اعتنقا الماويّة. وقد نظر أهلهما وسائر أهل القرية إليهما بوصفهما تنويعة ظريفة على حياتهم الواثقة التي لن يهزّها أو يهدّدها اختلاف شابّين يافعين. فإذا تحدّثا عن تحرير فلسطين، استظرفهما الآخرون وقالوا لهما إنّهم لا يريدون أن يحرّروا شيئاً. وإذا قالا، مردّدين بعض تعاليم الماويّة، إنّ عليهم تأجيل حلّ التناقضات الثانويّة في انتظار حسم التناقض الرئيسيّ، تبادل أهل القرية نظرات يجتمع فيها الاستفهام والاستغراب من دون أن يختفي الاستظراف. لكنّ شيئاً من الحيرة شرع يتسلّل إليهم حين صاروا يسمعون منهما عبارات بدت أشدّ غرابة، على شاكلة "الرئيس ماو ورفيقه في السلاح لين بياو"، أو "القنبلة الذريّة نمر من ورق"، لأنّ كلاماً كهذا بدا في شمال لبنان سبباً للقلق على أبناء كان يسعهم،

بسبب ما تعلّموه في المدارس، أن يقولوا ما هو أعقل وأكثر فائدة، أو أن يقضوا عطلتهم مستمتعين على نحو أفضل. وقد ارتفع قليلاً هذا القلق حين راح أبناء عمّهما وأبناء أخوالهما يلتفّون حولهما ويردّدون بعض العبارات التي سمعوها منهما أو يتبادلون كراريس وكتيّبات لماو تسي تونغ وزّعاها عليهم.

وكان من أدوات السحر التي اتّبعها مصطفى وأكرم استبدال الأفكار، التي جعلا يسمّيانها أفكاراً غربيّة، بحِكَم وأمثال شعبيّة. ذاك أنّنا، كما صارا يؤكّدان، ينبغي أن لا نهمل لغة الآباء والأجداد من أجل لغات غريبة جاءتنا مع استعمار بلداننا، وهذا علماً بأنّ الآباء والأجداد في قريتهما كانوا لا يتحمّسون لشيء كما لتعليم أبنائهم تلك اللغات الغريبة. هكذا، من هذا القبيل، استبدلا "التراكم الأوّليّ لرأس المال" بـ"خبّئ قرشك الأبيض ليومك الأسود"، و"المال يجرّ المال والقمل يجرّ السيبان". وإذا أرادا اتّهام الاقتصاد اللبنانيّ بأنّ استثماراته قصيرة الأمد، لا تقيم صناعة أو تطوّر زراعة، شبّهوه بذبح الدجاجة وأكلها بدلاً من الاهتمام بها وجعلها تبيض بيضاً يلد دجاجاً يلد بيضاً، وهكذا دواليك. وهذا هو الوصف الذي كانا يستخدمانه لتجنّب استخدام "الاستثمار الطويل الأمد".

وربّما وجد الشبّان الذين تحلّقوا حولهما ما يغريهم في تلك التعابير التي تحاكي السينما في تعدّد عوالمها وألوانها، وفي ذاك التجاوُر المدهش بينها، كأن يقال مثلاً

أنّ بريطانيا سبقت العالم إلى الثورة الصناعيّة لأنّها خبّأت قرشها الأبيض ليومها الأسود، فزاد مالها على سيبانها، أو أنّ البورجوازيّة لا تمدّ رِجليها على قدّ بساطها، أو أنّ السياسيّين الانتهازيّين يضعون رِجلاً في البور ورِجلاً في الفلاحة. أبعد من هذا، أنّ رجلاً من القرية سمعهم يتخاطبون بأسماء حركيّة اختاروها من تراث العرب، فاستغرب أن يُنادى مصطفى، وهو بالغ الطول، باسم هُبَل الذي كان أوّل أرباب العرب وأهمّهم.

على أيّ حال، جاءت نهاية عطلة الصيف لتعيد مصطفى وأكرم إلى طرابلس، وتشعر أهل القرية بأنّ الأضرار التي أنزلاها بأبنائهم لا تزال محدودة وقابلة للتعويض. لكنّ أوضاع البلد، التي ما لبثت أن ساءت في ذاك الشتاء، جعلت الأخوين أشدّ إصراراً على تغيير العالم الذي يبدأ، بطبيعة الحال، بتغيير القرية. فحين حلّت عطلة الصيف التالية، صعدا إلى الدارة وهما يُشهران رغبتهما في الاقتصاص من طرق الحياة التي درج أهلها عليها. وهما، في غضون الأشهر التسعة الأخيرة، كانا قد أضافا إلى عدّة شغلهما فكرة جديدة. ذاك أنّ على المناضل، كما كانا ينقلان عن الرئيس ماو، أن يتغلغل حيث توجد الجماهير، فيما أمكنة العبادة المسرح الأبرز والأعرض لحضور الجماهير.

المشكلة التي نجمت عن تطبيق هذه القناعة أنّ مسجد الدارة مهمل ومهجور منذ سنوات طويلة، لا تذهب الجماهير إليه ولا تحضر فيه. هكذا بات مصطفى

وأكرم، ومعهما أربعة شبّان أو خمسة من أقربائهما، يتوجّهون كلّ صباح إلى المسجد ينتظرون الجماهير التي لا تأتي، وهناك يقضون نهارهم مقرفصين في باحته، حاملين معهم كراريسهم الماويّة ومبالغين في ترصيع كلامهم بالبسملات والحمدلات.

وراحت الأيّام تمرّ من دون أن تأتي الجماهير. فوق هذا، أصاب الحرجُ بهم وبأفعالهم جماهيرَ القرية بدلالة أنّني حين سألت العمّ أبا مصطفى عن أحوال نجليه، عبس وأطرق إطراقة خجل، ثم قال: "أرسلهما إلى المدرسة فيعودان منها إلى الجامع"، وما لبث أن أضاف كأنّه يطلب تفسيراً لهذا اللامعقول الذي عصف ببيتهم: "ما الذي يحدث لهؤلاء الشبّان يا تُرى؟".

رغم ذلك، كان إمعان الأوضاع العامّة في التدهور سنةً بعد أخرى يحمل التفسير الذي لا يحبّه أبو مصطفى، ولو أنّه وفّر المدد المطلوب لقضيّة نجليه ورفاقهما. فما إنْ حلّت فرصة صيف أخرى حتّى بدأت جماهير الدارة تتردّد على المسجد الذي استصلحته وحدّثته أموال أفراد من القرية هاجروا إلى الخليج. لكنّ الماويّين، في هذه الغضون، لم يعودوا ماويّين، لأنّ المرور بالصين للوصول إلى الشعب والتراث طريق طويل يمكن الاستغناء عنه، إذ هو يشبه قصّة ذاك الشابّ الذي لفّ العالم بحثاً عن عروس ثمّ عاد إلى قريته ليقترن بابنة خالته. فالأفضل، بلا مقارنة، التظاهر باعتناق الإسلام الذي ظنّوا أنّهم يسيطرون عليه

ويتحكّمون به فيستخدمونه في استقطاب الجماهير. لكنّ الإشارات كلّها كانت تنمّ عن أنّ الإسلام هو الذي سيطر عليهم واستقطبهم، فتحوّلوا تدريجاً من ملاحدة إلى مؤمنين يحفظون القرآن ويردّدون آياته.

ولم تمرّ إلاّ سنوات قليلة حتّى انجذب مصطفى وأكرم إلى حركة إسلاميّة متطرّفة في طرابلس نصّبتهما أميرين على حيّين من أحياء المدينة. فعندما نشبت الحرب الأهليّة في المدينة تلك، حيث راح الكلّ يقتلون الكلّ، أودت رصاصة بمصطفى وأصيب أكرم بأخرى أقعدته. أمّا كبار السنّ في الدارة، فظلّوا يتساءلون، بحزن شديد، عن السرّ الذي دفع هؤلاء الأبناء أن يفعلوا بأنفسهم ما فعلوه.

مروى ذات الألغاز الكثيرة

كان اسمها مروى التيس، والمألوف أن تُطلَق على الناس أسماء الحيوانات المعروفة بقوّتها وجمالها معاً، ما يصحّ في السبع والنمر اللذين يستدرجان التشبّه بهما، وصولاً إلى الذئب، أو الذيب، الذي ربّما ذكّر بوحشة الريف وقسوته القديمة. أمّا التيوس والضباع، فمستبعَدَة، يطردها مزيج من الغباء والبشاعة المقيمين فيها، حتى تغدو التسمية بها إهانة للمسمّى. مع هذا، كان يقال أنّ مصدر التيس في اسم مروى مردّه إلى عناد عُرف به زوجها، ولازمه غباء متمكّن.

كذلك كان شكل مروى، الذي أذكره بشيء من زيَغ البصر والذاكرة، على قدر من الغرابة. فهي بالغة السمنة، بل ربّما كانت أسمن نساء القرية الجانحات في معظمهنّ إلى الوزن الزائد. واختلافها هذا جعلها بطيئة المشي، تكاد أطرافها، وهي تتقدّم وتهتزّ، يستقلّ واحدها عن الآخر، الأمر الذي أوحى بأنّ مرضاً يلمّ بها. فجدّتي، مثلاً، كانت تقول إنّ "الصحّة إلى هذا الحدّ سيّئة"، وكانت أخريات في القرية يتوقّعن لمروى قعوداً لا قيام بعده، لكنّهنّ كنّ يرون أنّها طيّبة ومسكينة، وأنّها لا تهتمّ لشيء في الدنيا إلاّ ابنها الوحيد، فهي لم تُشاهَد مرّة على السعادة التي شوهدت بها يوم عرسه قبل أقلّ من عام، حتّى إنّها، يومذاك، رقصت رقصاً بدت معه رشيقة الحركة كأنّها خفيفة الوزن. وبعضهم في القرية كانوا

يبالغون في التأويل، فيذهبون إلى أنّ عذاباً شديداً كان زوجها التيس يُنزله بها، وأنّ العذاب هذا ما جعلها هكذا. فهي لم تشعر بالراحة إلاّ بوفاته قبل عامين.

وعلى العموم، كانت الأشياء التي تُقال عن مروى قليلة ومتفرّقة، لكنّ فجأةً قيل إنّها... انتحرت. هذا تعبير لم أكن قد سمعتُه من قبل، فحين سألتُ جدّتي التي أقلقها الخبر كما أدمع عينيها، أجابتني بأنّ مروى ذهبت إلى الساحل وصارت تمشي في البحر وتمشي وتمشي ولم تعد. لقد أُخرجت جثّةً من ذاك البحر.

وأشكّ الآن في أن تكون جدّتي نفسها على بيّنة من معنى للانتحار يتعدّى إماتة المنتحر نفسه بنفسه، لأنّ الوصف السرديّ الذي اعتمدته لا يوحي باستحواذها على المعنى، بل يسمح بالقول إنّها استعاضت بسرديّته الملغزة عن المعنى ذاك. لكنّ هذا لا يلغي احتمالاً ضئيلاً في أن تكون قد بسّطت الحدث، وحوّلته إلى قصّة قصيرة، من أجل إدخاله في رأسي الصغير.

على أيّ حال، ترك انتحار مروى دهشة عارمة في القرية. والدهشة أوّلها أنّها لم تغادر القرية من قبلُ ولا استقلّت سيّارة. فكيف، يا ترى، وصلت إلى تلك البلدة الساحليّة التي تبعد عنّا خمسة عشر كيلومتراً؟ أمّا أوج الدهشة، فكان أمر الانتحار نفسه، لأنّ أهل القرية جميعاً، على ما أرجّح، كانوا مثل جدّتي يواجهون كلمة غير مسموعة من قبل، ويتعاملون مع فعل غير مسبوق.

فكيف وهذه الكلمة تصف موتاً لم يُنزله الله، هذه المرّة، بعبده؟

عاصفةٌ هبّت على قريتنا بفعل ما أقدمت عليه مروى. ولأنّ الأسئلة ألحّت على إجابات تُبعد عنهم الطاعون أو ما يشبهه، فإنّها بدت كأنّها تتناخم الفلسفة في استنجادها بالأصول الأولى: هل كانت مروى عاقلة أو مجنونة؟ وهل هي ذات قدرات ربّانيّة غير منظورة، أم أنّها عصت أمر الربّ الذي يملك وحده صلاحيّة القرار في شأن الموت والحياة؟

هذان السؤالان، فضلاً عن الرهبة المشوبة بالحزن، لم يمنعا ظهور سؤال آخر كان يبرز في لحظات التعب من الأفكار المحمّلة بالجدّ: كيف غرقت مروى السمينة جدّاً؟

لقد فتك الذعر والارتباك بأهل القرية على نحو لم يتخيّلوه من قبل، ولا تخيّلوا أنّه يصيب غيرهم. فهذا، في تقديرهم، حدث لا يحدث.

ولئن قال الكاهن الذي خاف لوهلة أن تهتزّ سلطته إنّ الله أمرها بهذا، رأى الطبيب الذي يخاصم الكاهن أنّ مروى مجنونة لا أكثر ولا أقلّ. والحقّ أنّ الاثنين لم يجدا في حوزتيهما براهين مقنعة رغم ميل الأهل إلى تصديق الكاهن. وبين وقت وآخر، كانت تُسمع همهمات الذين يريدون لهذا الحديث أن يتوقّف، كأنّهم يطردون الجنّ، فيقولون: "ليرحمها الله"، مشككين في استجابة الله رغبتهم، ثمّ يحاولون نقل كلامهم إلى موضوع آخر.

وفي حدود تذكّري، يتراءى أنّ شيئاً من خوف الطبيعة حين تجمح وتجنّ بدأ يستولي عليهم، فيعملون على كبحه ومنعه من أن يغدو وساوس. لكنّ إلى مهابة الموت والغرابة المقلقة التي طاولت الجميع، حضر سؤال يكاد أن يكون بوليسيّاً، فجعل يلحّ في الأوقات التي يتراجع فيها الاعتماد على التفسير بالله الذي هو على كلّ شيء قدير: ما الذي حدث لمروى كي تُقدم على ما أقدمت عليه، ومن الذي كان وراء قرارها؟ كانوا يريدون أن يعرفوا، ليس فقط لأنّهم فضوليّون، بل أيضاً لأنّ تحديد الفاعل يريحهم كما يعفيهم من بعض خوفهم وارتباكهم. مع هذا، يصعب تحديد فاعل غير مروى نفسها ما دام الموت نجم عن انتحار.

كان المطلوب، إذاً، أن يكون هناك جانٍ، أو جانية، والنساء دائماً أولى بالاتّهام. هكذا، على حين غرّة، انتشرت في القرية رواية تفيد أنّ بربارة، زوجة ابن مروى الغريبة عن القرية، لم تكن تطيقها، وأنّها أذاقتها الأمرّين حتّى إنّها منعت عنها الطعام. وأمرٌ من ذلك، كما قيل، إنّ نجلها حلمي صار، هو نفسه، يعامل أمّه بخشونة بادية. وبعد يوم أو يومين، حضرت شواهد لا تقبل الدحض. فقد ظهر، مثلاً، مَن يشهد أنّه رأى بأمّ العين نجلها وهو يهينها، ومن يقسم بأنّ بربارة ضربتها ذات مرّة. ولم يفت بعضهم أن يلاحظوا أن أهل القرية التي جاءت منها بربارة لئام لا يملكون ممّا يصلح للتباهي إلاّ لؤمهم.

ويبدو أنّ جدّتي لم تحمل هذه التأويلات على محمل الجدّ، لأنّ مروى وعائلتها نادراً ما يغادرون البيت، وأندر من ذلك أن يستقبلوا أحداً في بيتهما. ثمّ إنّ مروى لم تظهر عليها مرّةً آثار التجويع وحرمان الطعام. فلا جسمها نحلَ، ولا شوهدت تأكل في أمكنة غير بيتها، لكنّ التحفّظات المذكورة لم تخرج إلى العلن ولم تجرؤ على مقارعة الآراء الغالبة.

على هذا النحو، فُسّر الانتحار بأن أضيفت إلى غرابته غرابة بربارة التي ربّما سكنها الشيطان. ولئن صاحب الترحّم ذكر مروى، راحت الشتائم تحيق باسمَي ابنها وزوجته اللذين لا بدّ أن يحاسبهما الربّ. فأهل القرية يطلبون دائماً نهايات تكون سعيدة، إن لم يكن على هذه الأرض، ففي سماءٍ لا بدّ أنّها فتحت لمروى ذراعيها.

جرجي مطارداً الموت حتّى النهاية

تفرّع جرجي السليق عن عائلة كان أهل القرية يتعارفون على أنها أوفر عائلاتهم وجاهةً. والأمر لم يكن يقتصر على ما يعتبرونه. فتلك العائلات كان أفرادها يقيمون في ساحة القرية، وهذه علامة على التصدّر، كما كانت بيوتهم الأقدم والأجمل، فيما سبقوا العائلات الأخرى إلى إرسال أبنائهم إلى الجامعات في بيروت. أمّا رئيس البلديّة، فكان دائماً منهم. لكنّ جرجي انتمى إلى جبّ فقير في العائلة تلك. هكذا قرّر وجهاؤها أن يفرزوا عن جسمهم هذا الجبّ الذي يشينهم، فأعطوه تسمية أخرى تملك أحد معنيَين: إمّا الأكل المسلوق، وإمّا توكيد صلة وثيقة بـ"السِلق"، ذاك العشب البرّيّ الذي يقطفه الفقراء ويأكله الجميع بشيء من التفاوت. بهذا، كانت العائلة "الأصليّة" تعلن أنّ جرجي وأقرباءه ليسوا "منّا"، وأنّهم لا يأكلون إلاّ أكلاً فقيراً، أكان مسلوقاً بلا دسم أم سِلقاً.

والظاهر أنّ شيئاً ما حدث لجرجي في شبابه الواقع في أواخر الحرب العالميّة الأولى، أو بُعيدها بقليل. وهذا، في الأحوال كافّة، تاريخ مجهول، لكنّ المعلوم منه هو ما نتج عنه، إذ استقرّ على هيئة سكّير دائم يحفظ أبياتاً من الشعر العربيّ القديم.

وكان أكثر ما يحفظه ويردّده الشعر الخمريّ، الجاهليّ وخصوصاً العبّاسيّ. أمّا بالنسبة إلى أبي نواس تحديداً،

فكان جرجي يتحدّى من يتلو من أبياته شطراً لا يكمّله هو، لكنّ مداركه كانت أوسع من ذلك، فدرج على ترداد أبيات لوالبة بن الحباب وخلف الأحمر وغيرهما ممّن صنّفتهم الأعراف ثانويّين وهامشيّين. ولأنّ العَرق لم يفارق جرجي الذي أبقى بطحة منه تحت إبطه، بدا لكثيرين كأنّ الشعر والسُكر قُدّا من معدن واحد. فما دام الشعراء "يتبعهم الغاوون"، وما داموا "في كلّ وادٍ يهيمون، يقولون ما لا يفعلون"، فلماذا لا تُدفع هذه المعادلة قليلاً حتى يغدو السُكر سبب التفاوت بين قولهم وفعلهم. لكنّ جرجي كان يطرح مفارقات وتناقضات ليس من السهل حلّها. فـ"الغاوون" الذين تبعوه اقتصروا على صغار السنّ، وكانوا يستمعون إليه ويُعجبون به، وفي الوقت نفسه يسخرون منه أو يعذّبونه. وهذا الالتباس كان مصدره أنّ قوّة جرجي هي نفسها ضعفه، لأنّ العَرق الذي جعله حافظاً غير عاديّ لشعر العرب، وأدّى إلى الإعجاب بطاقته المدهشة، كان موضع احتقار وتعالٍ لدى الأسَر التي تعتدّ بمحافظتها وبحسن سلوكها. صحيحٌ أنّهم يشربون الويسكي أحياناً والبيرة أحياناً أخرى، وإذا ما استقبلوا ضيوفاً طرحوا الاثنين على طاولاتهم، لكن العرق، في عرفهم، بقي علامة على نزعة سوقيّة تُعلي صوت صاحبها كما تقرّبه من استخدام العنف، فكيف ومتى كان الشارب سليقاً يرفع صوته ويهتاج ويعنف من دون عَرق؟

وهذا، في أغلب الظنّ، ما ضاعف خوف الغاوين من أهلهم إذا ما شاهدوهم متحلّقين حول جرجي. أبعد من هذا، راح الصغار، بين وقت وآخر، يتنصّلون منه، أو يتطهّرون، فيستحضرون شياطين الطفولة واليفاعة من داخل نفوسهم الموصوفة بالبراءة كي يخبّئوا أغراضاً يحتاجها، كالسجائر التي لا يستغني عنها، والحذاء الذي يريح قدميه منه حين يسند ظهره على الحائط. وأحياناً كانوا يوقظونه من نومه، بالصراخ حوله أو بالهزّ أو بالرفس، ثمّ يركضون إدباراً، كما كانوا يرشقونه بأحجار صغيرة كالحصى التي تهين ولا تؤلم، فيما هو لا يراهم إذ يكونون متجمّعين خلفه.

وجرجي كان يشرب إلى أن "يتعتعه السكر"، عملاً بقول أمينه العامّ الراحل. وحين يتعتعه، يتثاقل لسانه تصاعديّاً في الأبيات التي يتلوها فيما تتراجع قدرة سامعه على فهم ما يسمع. وكانت سيجارة "تاطلي سرت" الرخيصة تنطفئ بين شفتيه وتهبط منهما نزولاً، لكنّها تثبت في موضعها حتّى انتهاء القصيدة. وهو دائماً ما أغمض إحدى عينيه، كما أمسك بيده الشخص الأقرب إليه كأنّه يلقّنه أبياته على نحو توجيهات لا تقبل النقاش. وقد قال بعض مستمعيه إنّ القبضة التي يمسك بها زند جليسه تشتدّ حين يكون معنى البيت إلحاديّاً أو لا أدريّاً. أمّا متى كان المعنى تشكيكاً في جدوى الحياة، أو تهويناً من شأن الموت، فيروح يهزّ زند

الجليس إلى أمام وإلى وراء، كأنه يبثّ في الحكمة التي يردّدها حياة وحيويّة لا يرقى الشك إليهما.

ولجرجي صديق واحد يستحقّ هذه التسمية. إنّه بولس السمكري الذي يشاركه كأسيه الأولين لكنّه لا يتعدّاهما. فبولس مضطرّ إلى السعي وراء أشغاله التي تؤمّن له أوده، وأغلب الظنّ أنّه كان يمنح جرجي بعض عوائدها القليلة. لقد كان يقصد البيوت كي يصلح الأغراض التي أصابها خلل أو دبّ فيها بعض الاهتراء، وكان يقول إنّه هو نفسه "خربان" مثل الأغراض التي يصلّحها. فبولس وحيد بلا أهل وبلا زوجة، لا يذكر أحد كيف قادته طريقه من أرمينيا إلى القرية تلك. وأغرب ما فيه أنّ أرمنيّته التي حالت دون تقويم لسانه العربيّ، لم تحل دون دقّة إنصاته للشعر الذي يردّده جرجي حتّى لو كان جاهلياً. فهو كان يميل برأسه نحو صديقه كأنّه يتنصّت على سرّ أو يفكّ حرفاً هيروغليفيّاً، حتّى إذا تمّت تلاوة البيت أعاد رأسه إلى موضعه، ثمّ راح يهزّه يمنة ويسرة إعجاباً فيما يقلب شفتيه كي ترفدا الإعجاب بالاستعجاب.

وفي يوم هبطت فيه الثلوج من جبالها على قريتنا ذات العلوّ المتوسّط، أسند جرجي ظهره إلى حائط في ساحة القرية وراح بإحدى يديه يشدّ في الاتّجاهين سترته العتيقة البالية محاولاً إغلاق منافذ الهواء البارد. أمّا يده الأخرى، فكانت تتشبّث بقنينة عرق غُبّئت بيتيّاً، على ما يبدو، وقارب حجمُها حجم قنينتين ممّا يباع

في السوق. وعلى ذمّة الرواة، كان جرجي، في تلك اللحظة، ينتظر بولس الذي وعده أنه سيأتيه بسترة أخرى أو بكنزة يلبسها تحت سترته. لكنّ بولس، لسبب ما، لم يأت، بل مرّ بائع خضار يدفع عربته الخشبيّة التي لم تكن آنذاك تحمل أيّاً من الخضار. واستأذنه جرجي بالجلوس على سطح العربة فأذن له ضاحكاً، بعدما طلب منه أن يوقف العربة عند تقاطع تتفرّع عنه درب ذات انحدار حادّ. وبالفعل، جلس جرجي القرفصاء فوق العربة وعانق قنينته الكبيرة بكلتا يديه، وبرِجله، وبقوّةٍ كان الظنّ أنّها نفدت منه، دفع العربة نحو الطريق المنحدرة. بعد ذاك، لم تُسمع إلاّ قهقهة جرجي ممزوجة ببيت شعر لم يقو أحد على فهمه.

أمزجة ولا أمزجة

خيول العمّ المُحبّ

لم أكن قد ولدت حين هاجر العمّ منير إلى أفريقيا، لكنّني سمعت لاحقاً عن هجرته، ما يجعلها حدثاً استثنائيّاً. ففي قرية يهاجر أبناؤها جيلاً بعد جيل، كان ذاك العمّ الشخص الوحيد الذي يمدّه أبوه بالنقود في مهجره، جامعاً له مبلغاً شهريّاً يأمل أن يكفيه. صحيح أنّ منير، كما نُقل عن أهله، مبذّر ينفق بلا حساب، لكنّ ذاك البلد الأفريقيّ يبقى رخيصاً قياساً بلبنان.

أمّا لماذا حدث ذلك، فهو ما لم يشرحه أحد من أبناء القرية الذين عاشوا تلك المرحلة، مكتفين بالقول إنّ عائلته قادرة ماديّاً وطيّبة القلب في آن واحد، وهو، بدوره، شخص مُحبّ يستحقّ أن يساعده أبواه.

وتجربة هجرته، كما كانت تُروى، جعلتني أربط تلقائيّاً اسم العمّ بطرافة لم تسترع انتباه أهل القرية. فهم، لسبب لم أعرفه، فضّلوا، من كلّ الأوصاف، أن يصفوه بالمُحبّ، حتّى كاد تعبير المُحبّ يصير لقباً له.

على أنّ منير لم يمكث في أفريقيا أكثر من عامين، ظلّ بعدهما يتحدّث لأعوام عن الشغل في القارّة السوداء. وهو في الحقيقة لم يكن يتحدّث بقدر ما كان يتأفّف ويتأوّه حين يتذكّر هجرته القصيرة، هازّاً رأسه من دون انقطاع تدليلاً على معاناة لا يشتهي المرء مثلها حتّى لأعدائه.

ما أذكره عن العمّ أشياء متناثرة أوّلها ندرة كلامه وطريقته الخاصّة في قول كلامه القليل. فهو غالباً ما يبدأ بالإشارة إلى ثلاثة أسباب تفسّر ما سيتحدّث عنه، وأسبابه لم تكن مرّةً سببين، ولم تكن أربعة، إذ هي دائماً ثلاثة لا تزيد ولا تنقص. لكنّ العمّ كان يصاب بالضجر وهو يشرح السبب الأوّل، فلا يفهم سامعه شيئاً من كلامه المتقطّع الذي يبقى نصفه في بطنه، ثمّ لا يلبث أن ينسى السببين الآخرين مُطلِقاً في الهواء إشارات يُفترض أن ترمز إليهما. وقد رأيته ذات يوم وهو يستنجد بزوجته كي تذكّره بالسببين المنسيّين، ولم أكن أعلم أنّ استنجاده بها سوف يؤدّي إلى توتّر لم يكن في الحسبان.

فالزوجة التي دفعها لُطفها أن تحاول إنجاده، ذكرت أسباباً افترضت أنّ زوجها يقصدها، فما كان منه إلاّ أن هزّ رأسه استنكاراً للأسباب التي افترضتها. وفجأة، وعلى نحو مهين، أشار إليها بيده أن تسكت. هكذا، انفجرت الزوجة غضباً وشتمت أسبابه الثلاثة التي لا دخل لها بها من قريب أو بعيد. لكنّ العمّ منير، الذي لا يغضب بتاتاً، كان يمضي أحياناً في كلامه المتعثّر، فيدلي أمام جليسه برأي بالغ الاختصار يستنتجه من الأسباب الثلاثة التي يزعم أنّه ذكرها، وهو بالطبع لم يفعل.

على هذا النحو، عاش العمّ المُقلّ في كلّ شيء وغير المكترث لشيء كأنّ الطاقة سُحبت من جسمه ومن

روحه. فهو، مثلاً، رغم وصفه بالمُحبّ، لم يُعرف بأيّ حبّ يُحسب له. أهله طلبوا له يد واحدة من فتيات القرية سبق أن تزوّجت أختُها الأصغر فكان لا بدّ من تزويجها. ولم تفتقر عائلة العروس إلى المبرّرات: نعم، هو عاد في مطلع شبابه خائباً من أفريقيا، لكنّه ابن عائلة وأبوه ثريّ، وهذا فضلاً عن أنّه شخص مُحبّ. وكانوا يضيفون إلى هذه الصفات أنّه طويل وجميل الطلعة، علماً بأنّ أمّ العروس كانت تأخذ عليه ندرة كلامه وعدم تبسّم شفتيه. أمّا الوالد، فكان مأخذه أنّ الصهر لا يستخدم بناتاً جسده في الانتقال من مكان إلى آخر، فكأنّ جثّته الضخمة ليست للاستعمال على أيّ وجه. وبالفعل، كان العمّ كثيراً ما يلجأ إلى سيّارات النقل العموميّة حتّى حين تقلّ المسافة عن مئة متر، وهو ما إن يُرى واقفاً على قارعة طريق، حتّى تتقدّم منه سيّارة عموميّة يدرك سائقها أنّه كسب راكباً مضموناً.

على أيّ حال، أنجب منير ابنتين لم يُشاهد مرّةً معهما، ولم يُبد مرّة ما يدلّ أنّه يحبّهما، بل بدا دائماً كأنّه هارب من بيته لا يطيق البقاء لحظة فيه بين زوجته وابنتيه. فهو، بالمطلق، يكره الانشغالات والتورّط، وحيال المسائل العامّة التي تخصّ نزاعات القرية أو السياسات الوطنيّة، اقتصرت مداخلاته على كلمتين شهيرتين: "بدّها ثورة". وهو كان يقولهما تعليقاً على أيّ مشكلة تُذكر، كتردّي موسم الزيتون أو انسداد سواقي

الماء، لكنّه لا يلبث، بعد قولهما، أن يعود إلى انكفائه على نفسه وانقطاعه عمّا يتناوله كلام الآخرين.

فالعالم الخارجيّ زائدة بالقياس إلى عالمه الداخليّ. ومنير، حتّى في الأوقات التي كان يُسمع فيها وهو يغنّي، كان يؤدّي الغناء بطريقة غير معهودة. كان مثلاً يردّد كلمات قليلة من الأغنية بصوت يتفاوت بين التحدّث والترنيم، فيقول: "يا ظالمني... يا ظالمني... يا ظالمني... يا ظالمني"، ثمّ يتوقّف. وفي مرّات، يمزج كلمات معدودة من أغنية بكلمات من أخرى، فيقول مثلاً: "يا جارة الوادي... أنا هويت وانتهيت"، ثمّ يتوقّف. ويتراءى لي أنّ العمّ لم يجلس مرّة إلى راديو ولم يستمع إلى أغنية كاملة، فكان تنقّله في السيّارات العامّة مصدر عدّته الفقيرة من كلمات الأغاني التي يجمعها في لحظات صعوده وهبوطه من السيّارة. لكنّ ما الذي كان يفعله منير، وما الذي استهواه في هذه الحياة التي تعامل معها كأنّها ضريبة باهظة؟

ثمّة شيءٌ واحد استولى على مخيّلته هو... سباق الخيل. فهناك كان يقضي نهاره، وهناك أنفق مالاً كثيراً جادت به الأراضي التي أورثه إيّاها أبوه، فباعها تباعاً. وكانت أسماء الخيول، مثل "شمس الغروب" و"شطّ الغرام" و"دموع" و"بلابل"، تتردّد على شفتيه أكثر كثيراً من أسماء زوجته وابنتيه، بل كانت العبارة الوحيدة التي نُقلت عنه، والتي تفيد معنى مكتملاً، أنّ سباق الخيل ضمانة اللبنانيّين الوحيدة كي لا يتحاربوا.

وكان يمكن الظنّ أنّ سرعة الأحصنة وحيويّتها تعوّضان عليه ما هو فيه من بطء وكسل، لكنّ أحصنة العالم كلّها لا تكفي لإتمام هذه المهمّة. فهو كان يعود أحياناً متعباً من سباق الخيل فيرتاح، خلال طريقه إلى القرية، في بيت واحد من أقربائه في بيروت أو طرابلس. هناك، كان يختار غرفة لا يجلس فيها الآخرون، كما يختار أطول كنبة ينبطح فوقها على بطنه، طالباً من الأولاد الذين في البيت أن يدلّكوه حتّى يغفو. ومرّة وقع الخيار علينا، أنا وأخي وابن عمّي، فجعلنا ندلّكه إلى أن أصابنا التعب، لكنّ ما إن توقّفنا حتّى فتح عينيه وبرم رأسه صوبنا مشيراً علينا بيده أن نستمرّ في التدليك. وما دام الأهل لا يقبلون أن نردّ للمُحبّ طلباً، نزعنا أحذيتنا ورحنا نخبطه بها على ظهره فأخذته غفوة عميقة صدر عنها شخير قويّ.

والعمّ لم يكن دائماً يخبر أهل القرية أنّه قضى يومه في ميدان سباق الخيل. كان يقول إنّه زار أصدقاء ومعارف في بيروت، من غير أن يتلفّظ بأسمائهم الأولى. أحياناً كان يذكر أسماء عائلات معروفة يقول إنّه زارها، ويضيف، وقد نفخ صدره قليلاً، إنّهم "من كرام الناس"، ثمّ يسكت.

وشيئاً فشيئاً راح يتراجع عدد الذين يصدّقون ما يرويه عن زياراته البيروتيّة. ففضلاً عن شيوع الأخبار حول بيعه أراضي أبيه، صار أهل القرية أكثر تردّداً على بيروت، وراجت أخبار متناثرة عنه لا تطمئن إلى مكانته

وعلاقاته. فهذا شاهده وهو يأكل سندويش فلافل على رصيف ما، وذاك رآه منهكاً متداعياً يسأل أحدهم أن ينقده أجرة سيّارة يعود بها إلى القرية.

ومرّت سنوات عدّة تدهورت معها أحوال العمّ الذي تجاوز الثمانين. وذات يوم، وقد كنت أقيم في لندن، اتّصل بي أبي من لبنان طالباً منّي أن أهتمّ بمنير، لأنّ إحدى ابنتيه، وهي مقيمة في كندا، أرسلت له بطاقة سفر كي يزورها، وهو في طريق عودته سيقضي يوماً في بريطانيا. وأضاف أبي أنّ هذه فرصته الوحيدة، بعدما ضاقت به الأحوال، كي يسافر ويلتقي ابنته وعائلتها، من دون أن ينسى تذكيري، كي يحضّني على الاهتمام به، أنّ العمّ شخص مُحبّ.

وبالفعل، اصطحبته إلى مطعم قضينا فيه ساعتين. وبعدما أخفقت محاولاتي في افتعال الكلام ممّا كان يردّ عليه بالصمت المطبق، قرّر منير أن يتحدّث. قال إنّ فكرة البقاء في كندا وتأسيس مشروع تجاريّ هناك قد راودته.

"لكن، أليس مطلوباً لذلك مال كثير؟"، سألته.

– "بلى، المطلوب ثلاثة ملايين دولار، وأنا ليس معي غير مليونين. كان في وسعي أن أدبّر مليوناً ثالثاً لولا أنّهم نصحوني ألاّ أفعل".

"لماذا؟"، سألته.

– "لأنّ اليهود سوف يبذلون جهوداً كبيرة كي يُفلسوني. هذا ما يفعلونه دائماً".

"لكنْ لماذا؟"، سألت للمرّة الأخيرة.

هناك ثلاثة أسباب... وراح يهذي...

قلت له إنّ الوقت تأخّر، وعليه الاستعداد لرحلة الغد إلى بيروت. لا يُملَ يا عمّ منير.

زينب وبناتها

قالت زينب لبناتها الأربع إنّها تتلهّف إلى نزهة على الشاطئ، حيث يقضين معاً ساعتين أو ثلاثاً. فهي، منذ طفولة البنات، لم تصطحبهنّ إلى هذا المكان العزيز على قلبها، إذ بيتُ أبويها، حيث ولدت وعاشت حتّى زواجها، كان هناك، على تخوم ذاك الشاطئ.

وقد انقضت ثلاثون سنة، على الأقلّ، منذ آخر "بِكْنك"، وفق لغة الأيّام تلك، يستمتعن به معاً. لكنّ في السنوات الثلاثين الفاصلة تغيّرت زينب كثيراً. فهي، حينذاك، أتت لابسةً المايو تحت ثيابها، وألبست بناتها الطفلات الأربع مايوهات، كما حملت معها، فضلاً عن قناني البيبسي كولا لهنّ، قنّينتي بيرة لها، لأنّ احتساء البيرة على الشاطئ ممتع ومنعش، كما كانت تقول. وهي آثرت أن تأكل وتُطعم بناتها سندويشات مطعم قريب يملكه مسيحيّ، مطعمٍ يقدّم الخمور إلى زبائنه وليس مضموناً أن يكون اللحم الذي يبيعه حلالاً. وقد بدت لها فكرة السندويش كسراً لرتابة الأكل البيتيّ وتكراره، حتّى بات جزءاً من النزهة نفسها.

البنتان الأكبر سنّاً، سلمى وسعاد، لا تزالان تذكران تلك المناسبة، وكيف أنّ والدهما، علي، انضمّ ظهراً إليهنّ، ليقضي مع عائلته فرصته التي تمتدّ ساعةً قبل عودته إلى المكتب، مكتفياً بكأس ويسكي سريع تناوله

على هذا النحو، كانت تعاش الحياة. فعلي وزينب، مثلاً، سمّيا بناتهما أسماء لا دلالة دينيّة أو طائفيّة لها، وأرسلاهنّ إلى مدارس بعضها يعود إلى إرساليّات مسيحيّة محلّيّة، وبعضها أجنبيّ بالكامل. لكنّ، في غضون السنوات الثلاثين، تغيّر علي الذي تقاعد وآمن وحجّ إلى مكّة، كما زار النجف غير مرّة، وعاش، إلى أن رحل عن هذه الدنيا، مواظباً على الصلوات الخمس في اليوم الواحد لا ينقطع عن أيّ منها إلاّ تحت وطأة اضطرار قاهر. أمّا زينب، فآمنت بدورها، كما تحجّبت وحفظت القرآن.

وبدا الأمر كلّه سريعاً يشبه الاكتشاف. فمن المنزل، اختفت الخمور، وتغيّرت العادات والملابس والصداقات، وصار الوقت مُقطّعاً على ما تفرضه الصلوات ومواقيتها. حتّى اللغة خرجت منها كلمات ودخلتها كلمات جديدة. لقد وُلد علي ولادة ثانية، ومثله فعلت زينب.

فحين ذهبت هذه المرّة إلى الشاطئ لابسةً الفستان الذي لا يترك من رجليها مليمتراً واحداً لعين الناظر، فهمت بناتها أنّ عليهنّ المجيء من دون مايّوهات. وهي حملت معها من البيت المآكل التي سيتناولنها، فلا يدفعهنّ الجوع إلى الذهاب إلى المطعم المسيحيّ. وبدلاً من البيرة، جاءت بقنانٍ صغيرة من لبن العيران وبقنينتي بيبسي كولا.

وإذ وصلن إلى الشاطئ الذي سبق لزينب أن أعلنت شوقها إليه، بدا غريباً لبناتها أن تدير أمّهنّ الظهر إلى

البحر الذي قالت إنّها كانت مولعة به، وإنّها غالباً ما كانت تشرد في تأمّل مدّه وجزره وتكسّر أمواجه برقّة تقارب الحياء. أمّا بناتها اللواتي توزّعن بفساتينهنّ حول أمّهنّ، فكان أكثر ما يهمّهنّ إسعادها، فيما يمكنهنّ تلبية متعة السباحة في وقت آخر. لكنّهنّ ما إن افترشن رمل الشاطئ، حتّى رحن يتحدّثن عن قريباتهنّ: عن فاطمة التي لم توفّق في زواجها، وعن نسرين التي عادت من الحجّ قبل أيّام، وعن أميرة التي بكت كثيراً في جنازة أبيها. فجأة، وكان قد حلّ شيء من الصمت فيما بدأت الشمس تميل إلى الغروب، بدا لزينب التي كانت تحبّ البحر أنّه تافه وقليل، وأنّ المقابر التي في جواره كثيرة جدّاً وغنيّة بالمعاني. وهي حين ألقت نظرة إلى البعيد، إلى حيث مدفن العائلة الجماعيّ، قالت إنّها لا تزال حائرة بشأن المكان الذي تحبّ أن تُدفن فيه: هل سيكون في تلك المقبرة، حيث الزوج والأب وباقي الأقارب الراحلين، أم في النجف، حيث الأئمة الأطهار؟ ولئن طلبت إحدى بناتها تغيير الحديث، أصرّت الأمّ عليه، فـ"أيّ شيء أهمّ من أن تعرف الواحدة أين ستُدفن؟".

هكذا، ولتطييب خاطر الأمّ، انجرفن تباعاً إلى الموضوع الذي اقترحته، فقالت الكبرى، كأنّها تساير أمّها بأقلّ عدد من الكلمات، إنّها تفضّل مقبرة العائلة لأنّها قريبة، وشاركتها الرأي أخواتها الثلاث. أمّا زينب، فبدت حذرة وهي تسمع، لمعرفتها أنّ بناتها يختلفن عنها،

بسبب الجيل أو الدراسة والسفر إلى الخارج، أو لأيّ سبب آخر كانتشار الضلال وغزو العقول، لكنّها أيضاً راهنت على تحويل رغبتهنّ في مراعاتها مناسبةً لتغييرهنّ في الاتّجاه الصائب. وهل يمكن من دون تغيير كهذا أن تستعيدهنّ بنات خرجن من جسدها وأطللن على العالم مسلّحاتٍ بأقوالها وبتوجيهاتها؟

هكذا مضت زينب خطوةً أبعد مختارةً أن تنبّه بناتها إلى أنّ الحياة على هذه الأرض فانيةٌ لا تستحقّ أن يُكترَث بها قياساً بالحياة الأخرى الأبديّة التي تبدأ في تلك المقابر. وراحت تسمّي الراحلين الذين يقيمون فيها، فتترحّم عليهم كما تحسد حظوتهم بالخلود. وفيما البنات يتململن، تمنعهنّ المراعاة من الاحتجاج، انتقلت الأمّ إلى الحديث عمّن تضمّهم أضرحة النجف من أئمة مختارين.

عند هذا الحدّ عجزت ابنتها الصغرى، منى، عن أن تكتم استياءها: "أهذه نزهة؟ نتجمّع قرب البحر كي نتحدّث عن القبور والموتى وأين نُدفن!". وبغضب، نظرت إلى ساعة يدها، وقالت: "عليّ النزول إلى بيروت استعداداً لسهرة مع أصحابي". على أنّ أخواتها الثلاث بادرن إلى إسكاتها، لا سيّما أنّ أمّهنّ انكفأت على نفسها وهزّت رأسها باستياء لظنّها أنّ تلك السهرة لا بدّ أن تضمّ شبّاناً أيضاً. لكنّ زينب ما لبثت أن عادت إلى ما كانت ترويه عن الأئمة وكيف استشهد منهم من استشهد لتفتح الجنّة لهم أبوابها، معتقدةً أنّها بكلامها هذا

تستميل بناتها إليها وتقرّبهنّ من الدين والصلاح. لكنّ ابنتها الثالثة، نجاة، قاطعتها ملاحظةٌ كم تغيّر الشاطئ الذي كان في الماضي القريب أنظف كثيراً، وصمتت الأمّ ثانيةً كأنّها تحتجّ على تغيير الحديث وانشغال ابنتها بأمر غير سِيَر الأئمة. وهي، بعد برهة، تذكّرت نار جهنّم وعذابات القبر، فطالبتها ابنتها الثانية، سعاد، تخفيفاً لجوّ راح يُثقل عليهنّ، أن تعدّل جلستها وتنظر إلى البحر وتستمتع به وتتذكّر أيّام الماضي. وهذا بدوره لم يرق لزينب، خصوصاً أنها انتبهت إلى أنّ البنات يتظاهرن بالاستماع إليها ويفكّرن في أمور مختلفة، لكنها مضت تتحدّث عن الموت والموتى، هذه المرّة لا لتُقنعهنّ بل لتتحدّاهنّ.

هنا انتفضت سلمى ووقفت تتهيّأ للمغادرة، وفيما همّت أخواتها الثلاث في تقليدها، مرّ شابّ يوزّع قصاصات ورق ملوّنة تدعو إلى سهرة موسيقيّة تقام في ذاك المساء نفسه. وباستثناء منى، التي أعلنت حيرتها بسبب ارتباطها بسهرة بيروت، توافقت أخواتها الثلاث بحماسةٍ كُنّ اعتقدن أنّ أمّهنّ أطفأتها فيهنّ على حضور السهرة الموسيقية. أمّا زينب التي استجمعت نفسها والغضب بادٍ على وجهها، فقالت إنّها سمعت من مُكبّر صوتاً بعيداً لمجلس عزاء هي ذاهبة إليه.

وليد الذي لا يكفّ عن التريّض

حين سألته عن أحوال القرية وأوقاته وكيف يقضيها هناك، قال وليد إنّه... يتريّض. لكنّك تتريّض ساعة أو ساعتين على الأكثر، قلت له، فماذا تفعل في ما تبقّى من ذاك الوقت؟

أجاب، بما أوتي من جدّ وإصرار، بأنّه يتريّض، ثمّ يتريّض، ثمّ يتريّض، وبعدها صمت صمتاً يقطع الطريق على كلّ كلام. لقد تصرّف كأنّ جوابه في غاية العاديّة، ولم يُرفقه بأيّ إشارة إلى أنّه يفعل ما لا يفعله الآخرون.

ووليد مهندس سابق تقاعد فيما لا يزال شابّاً نسبيّاً، وهو ذو بنية جسمانية تذكّر بالنحوت الرومانيّة، زادها صلابةً أنّه لم يدخّن سيجارة في حياته ولا قارب كأس نبيذ. أمّا السهر، وهو الأكثر إضراراً بالصحّة، على ما يجزم دائماً، فلم يكن مرّةً من أهله، حتّى إنّه لا يعرف كيف يكون الليل بعد التاسعة والنصف.

لقد آثر وليد، عند تقاعده، أن يقيم، مصحوباً بعائلته الصغيرة، في القرية التي هجرها معظم سكّانها. "هناك أعيش وحدي"، يقول مبتسماً راضياً عن نفسه رضاء مبيناً، وهو قد يذكّر، تعزيزاً لخياره الصائب، بالحكمة الريفيّة الشهيرة: "نام بكّير وقوم بكّير... وشوف الصحّة كيف بتصير".

وفعلاً، تصير الصحّة مع وليد حديداً إلاّ أنّه حديد لا يُستعمل في ما يتعدّى مساعدته على المضيّ في

التريّض. ذاك أن "الحركات السويديّة"، كما كان يسمّيها، تستغرق منه نصف نهاره، فيما تستغرق أعمال الزرع التي يمارسها في جنينته، وريّ الأشجار والنبات في البستان الملاصق لبيته، النصف الثاني من النهار. فهو، إذاً، في حركة جسمانية لا تهدأ هي أشبه بحمّى متواصلة نادراً ما تبلغ إشباعها وتستكين.

ووليد لا يفرح كما يفرح عندما يتعرّق إذ يلقي على جسده نظرة حبّ وامتنان. وكثيراً ما يطيب له في تلك الحالات أن يردّد ما يراه فلسفة موجزة، كأنْ يقول: خذ ماء وأعط عرقاً، أو يستحضر حِكَماً ينسبها إلى الأسلاف، كقوله إنّ "الجسم اللي بيندّي... ما بيصدّي".

وحياته هناك، التي يصفها بالجنّة، لا ينكّدها قليلاً إلاّ شهرا تمّوز وآب، لأنّ الصيف يردّ إلى القرية أربعة أو خمسة أشخاص من سكّانها المقيمين شتاءً في بيروت فيصيّفون فيها. وهذا ما يثقل على وليد الذي يفضّل أشهر الشتاء والخريف حيث يبقى وحده مع جيران ثلاثة أو أربعة في بيوت مبعثرة وبعيدة، بصحبة العصافير والأعشاب والأشجار والأصوات التي تنبعث منها، فتبثّ فيه هناءة يعجز عن وصفها. وهو إذ يحاول، يروح يضحك كأنّ مساميره كلّها قد تراخت، فيما يعلّق عينيه الزائغتين في السماء ويحرّك يديه، مصوّراً أفعال تلك الهناءة التي تجتاحه.

أمّا الحجّة الأقوى التي يعود إليها مرّة بعد مرّة تبريراً لحياته، فأنّها جعلته أقوى من أيّ شخص آخر يمكن أن

يخطر في بالنا، لكنّ، لماذا كلّ هذه القوّة، وما حاجتك إليها يا وليد؟! ذاك أنّ الوحوش الضارية، بما فيها الضباع التي عاشت أمداً أطول في غابة القرية، اندثرت كلّها وزال خطرها.

وهذا ما لا يعبأ به وليد الذي تهمّه القوّة والصحة في معزل عن وظائفهما. وهو حين يؤكّد كم أنّ صحته جيّدة يقبّل كفّه من قفاها ويضعها على جبينه ثمّ يرفعها باتّجاه السماء علامة شكر لله. لكنّ هذه الصحة، التي لا يصرّفها ولا يستخدمها، تمنعه من النزول إلى بيروت التي تمرضه، كما يقول. ففي العاصمة، فضلاً عن التلوّث والكثرة والزمامير، لا تعرف من أين يأتيك اللحم ومن أين تأتي الخضار والفاكهة. أمّا هنا في القرية، فوليد يعرف اللحّام شخصيّاً، ويقف قريباً منه ورقيباً عليه حين يذبح ذبيحته، كما يأتي بخضاره وبفاكهته من حديقته وبستانه، فتكون خالية من أيّ مادّة كيماويّة ومن متفرّعاتها. إنّه يربّي صحته مثلما يربّون الأبناء الصغار، لكنّها سوف تبقى، إلى ما لا نهاية، مجرّد صحة للصحة. ثمّ إنّ الزمن مهما تباطأ، سوف يأتي على الصحة هذه ويدكّها دكّاً، حتّى لو حمت نفسها بقلاع القرية وحصونها. فلماذا تعب النفس كلّه؟

مع ذلك، فحتّى لو شاء وليد أن يجادل، وهو لا يفعل، أعوزته الحجج. فهو يظنّ أنّ الكلام ليس مهمّاً أصلاً، وربّما خاف ممّا يجرّه الكلام عليه إذ يُضطرّ إلى التحادث مع آخرين. إنّه يقول عباراته القصيرة ويتوقّف

عن الإنصات، فيما تشرد عيناه باتّجاه الطبيعة المحيطة كأنّه يستعجل ترك محدّثه والعودة إليها. وهو قد يبتسم فجأة، فتعرف أنّه سمع ثغاء ماعز بعيد أطربه أو حفيفاً أحدثته أوراق الشجر.

أهل القرية القليلون الذين يحبّهم وليد، ويحبّ العيش بينهم شرط ألا يراهم بكثرة، يظنّون أنّه ليس على ما يرام. فهو يستحقّ أحسن من هذا بكثير، كما يقولون.

وسوء فهمهم له لا يهدأ ولا يرتاح. فهم، مثلاً، يستغربون أن يعيش بينهم هذا المهندس السابق الذي يجيد ثلاث لغات ويبتسم لهم ابتسامات مهذّبة لم يعتادوها ولا يفهمون سببها. وهم يعتقدون أنّ بيروت هي المكان الذي يليق به، ويُدهشهم أنّه اختار أن يعيش هكذا على نحوٍ هم مضطرّون اضطراراً إلى عيشه. إنّه، طائعاً، لا يذهب إلى العاصمة فيما هم يتمنّون لو يتسنّى لهم ذلك. وهو يستطيع أن يشتري تلفزيوناً لكنّه لا يفعل، فيما كان شراء التلفزيون أوّل ما فعلوه حين تجمّعت في أيديهم كميّة قليلة من النقود. فوق هذا، هم حين يتحدّثون عن رياضته تأخذهم مفاجأة يهزّون لها رؤوسهم أسفاً وربّما حزناً، لأنّه لساعات طوال لا يفعل شيئاً سوى رفع رِجله عن الأرض ثمّ إنزالها، ورفع صدره ثمّ إنزاله، وهكذا دواليك. أهذه حياة؟ كما علّق أحد جيرانه، فيما الجار الآخر الذي كان يشاهده وهو يمارس رياضته على سطح بيته، شكر الله أنّ أبوَي وليد قد

توفّيا كي لا تقع عيونهما على هذا المشهد المحزن. فهو ابنهم الوحيد، كما أضاف الجار، وهما كانا شخصين طيّبين لا يستحقّان مثل هذه المكافأة في الحياة الدنيا.

ووليد لا يكترث. فهو لو سمع هذا الكلام، لاكتفى بابتسامة يستأنف بعدها رفع رِجله عن الأرض ثمّ خفضها، ورفع صدره ثمّ خفضه، وهكذا دواليك إلى أن نتعب نحن.

لم تكن منيرة تجري دائماً بمثل تلك السرعة. وفي ما عدا ذهابها إلى الكنيسة أيّام الأحد، لم تكن تظهر على الناس في تيّورها الأسود المرتّب والمكويّ. هذا ما كانت تفعله عندما يصلها خبر من المهجر. حينذاك، كان زوجها ما إن ينهي قراءة الرسالة بصوت مسموع وبطيء كأنّه يهجّئ حروفها، فيما تلاحقه هي بعيون نهمة جاحظة، حتّى تهرع إلى خزانتها فتستلّ التيّور وتتّجه بقفزات كبيرة إلى بيت المعنيّين بالأمر. ودائماً كان يلحق بها أبو منير، عابساً متجهّم الوجه، وقد ارتدى بالسرعة نفسها بذلته الداكنة مصحوبة بربطة عنقه السوداء.

في أوضاع كتلك، كان أبو منير يبدو كمن يلهث وراء زوجته التي تتصرّف تصرّف من يعوّض بطء البريد وكسل سُعاته. فهم يوصلون الرسائل بعد أسبوع، أو أزيد، على لحظة تسلّمها في مراكز البريد البعيدة، ما يجعل المُلحّ يصير عاديّاً والإثارة تختفي من الخبر. وهي دائماً كانت تسبق زوجها خطوتين أو ثلاثاً، إذ تفوقه حماسةً لإطلاع أهل الدار على خبرهم، مثيرةً بعض غبار يلوّث أطراف سكربينتها السوداء النظيفة. وأحياناً كانت تُكمل شدّ زنّارها حول خصرها فيما هي تغادر بوّابة بيتها لا تلوي على شيء، حتى تُضطرّ أبا منير إلى ربط ربطة عنقه وهو مسرع على الطريق بما يزيد اختلال الطول بين طرفيها، أو يجعل عقدتها أكبر

مما هو مألوف في ربطات العنق. ولمّا كانت تخطف الدرب خطفاً، هي المتثاقلة داخل بيتها لا ترى ما يستدعي الحركة، لم تكن تعبأ بملاحظات قد يتفوّه بها زوجها أو بأسئلة قد يطرحها. فهي ماضية مثلما يمضي القطار نحو محطّته التالية، فلا يبطّئ سيرها زلزال يشقّ الأرض تحت قدميها.

كان كلّ منهما يهرول وحده، وكلّ منهما يُتمتم كلمات غير مسموعة يصعب التحقّق ممّا إذا كانت هي نفسها. والاثنان كانا إذ يمشيان ينكّسان رأسيهما لكنّهما لا يريان التراب الذي تنهشه أقدامهما.

فمنيرة كانت تستعجل نقل الخبر الذي احتكره زوجها وشاركها احتكاره بحكم الإقامة في بيت واحد والشراكة في أمور عدّة. وحتّى اليوم، لا يعرف أحد كيف بدأ هذا التقليد ولماذا درج أهل المهجر على التعامل مع بيتهما كأنّه وكالة أنباء القرية ومصدر معلوماتها. لكنْ مرّةً بعد مرّة صار استعجالها المرفق بالتيّور والسكربينة الأسودين، وبلهاث أبي منير وراء خطاها، مدعاة إلى خوف الحارات كلّها وهلع ساكنيها: فأيّ البيوت تراهما يتّجهان إليه، على ما راحوا يتساءلون بقلوب ضعيفة، ومن هم الذين فقدوا ابناً أو أخاً في تلك البلدان النائية؟

ومع أن أمّ منير وزوجها كانا يبوحان بمعظم السرّ بمجرّد أن يختارا البيت ويصوّبا الخطى نحوه، تكفّلت حركاتهما إيصال ما بقي من معانٍ. فوسط رعب جعلا

ينشرانه بين المضيفين، تبدأ هي بإغماض عينيها وبفتحهما بتسارع فيما تبلع ريقها بتقطيع منتظم وتضرب كفّها على ساقها ثمّ تعاود الضرب في حركة متواصلة، كأن يدها استقلّت بنفسها عنها وصارت آلة كهربائيّة لا سيطرة لها عليها. وفي هذه الغضون يتدخّل أبو منير معلناً بصوت استعاره من الأنبياء والرسل، وبحركة يد يمدّها في الفراغ ما وسعه ذلك، أن الدنيا فانية وأننا جميعاً ذاهبون إلى هناك، مشيراً إلى المقبرة. وإذ يأخذهما الاستطراد في محاسن الفقيد، أو الفقيدة، مما يأتي بارداً مكرّراً وسبق أن قالاه في بيوت كثيرة، ترتفع الأصوات ببكاء هستيريّ يتصاعد صراخاً ممزوجاً بالأسئلة الجريحة عن سبب الوفاة وظرفها وعن المكان المحدّد لحدوثها. وقد يجيب المخبران عن الأسئلة، أو بعضها، تبعاً لما بلغهما من معلومات، لكنّ المضيفين الذين يسألون يكونون قد كفّوا عن الاستماع. وشيئاً فشيئاً لا يبقى من البيت إلاّ العويل فيما يُشاهَد أبو منير وأمّ منير، وقد ضمّا أهل الفقيد بشيء من الاستعجال، ينسلاّن منسحبين من المنزل المفجوع عائدين أدراجهما إلى بيتهما.

في بعض الحالات، كان ذاك السيناريو يتعرّض لقدر من التعديل طفيف. فإذا وصلت هي وزوجها إلى البيت المقصود وكان بابه موصداً، اعتراهما اضطراب. فقد تمدّ عنقها من النافذة، مثلاً، لعلّها بالتلصّص تعثر على بعض أفراد العائلة في الداخل، فتنبّه مَن تلمحه إلى ضرورة

الاستعجال في فتح الباب لهما. وقد يقصد أبو منير جيران أهل الفقيد الذين يلاصقون بيتهم فيسألهم هل يعرفون أين هم الآن بالحصر وبالتحديد. بهذا، كانا يتصرّفان كمثل خائف من فقدان الأسبقيّة، رغم ثقتهما بقوّة احتكارهما، أو ربّما تصرّفَ البائع الذي يسعى إلى تصريف بضاعته قبل أن تكسد. لكنّ، إذا كان للعائلة المقصودة أكثر من قريب واحد في المهجر، امتدّ حبل الأسئلة بأطول مما يحدث في الأحوال العاديّة، كما تباطأ قدوم صوت الصراخ قليلاً فيما انتشرت، إلى حين، همهمة قلقة في البيت تسري سريان الأزيز المقطّع.

وهناك بيوت كثيرة في القرية هاجر منها أكثر من فرد واحد، متّجهين إلى "أميركا" التي قد تكون أفريقيا أو أميركا الجنوبيّة أو ربّما أستراليا، كما قد تكون الولايات المتّحدة نفسها. فحيث تحطّ قدم مهاجر درجت القرية على تسميته أميركا، وكلّ من يموت في قارّات الأرض المتعددة إنّما في أميركا يموت. وهو ما جعل تلك البلاد مصدراً للخير ومصدراً للشرّ في وقت واحد، فزاد في إلغازها وتضمينها بمعانٍ متضاربة شتّى.

وكان أكثر من يخاف منيرةَ وزوجَها جيرانُهم المباشرون. فهؤلاء لديهم أربعة أبناء في فنزويلا، لا يعزّيهم عن حياتهم الموحشة إلاّ الرسائل القليلة التي يتلقّونها منهم، والمكتوبة بحروف ضخمة الحجم كأنّها مصوّرة تصويراً، أو كأنها مرسومة رسماً عبثيّاً، وبلغة

أطفال تعلّموا القراءة للتوّ. وغالباً ما كانت رسائل الأبناء تلفّ أوراقاً نقديّة تعين أهلهم على مصاعب حياتهم، أو صوراً لهم ولزوجاتهم وهم يضحكون بأسنان كبيرة ومعهم أبناؤهم المولودون حديثاً.

ولربّما آنس هؤلاء الجيران أن يقصدهم، ولو على عجل، أبو منير وأمّ منير بثياب البيت العاديّة، أو أن يأتيهم أحدهما طالباً غرضاً مفاجئاً لم يحسبا حسابه، كرغيف خبز أو مقدار ملعقة من القهوة. حينذاك، إذ يأتيان من دون التيّور وربطة العنق، يسرّ جيرانَهم إخبارُهما أنهم سيشترون سلعاً جديدة بالنقود التي أُرسلت إليهم، أو إطلاعهما على الصور التي وصلتهم ممّا يستقبله الزائران بالتظاهر بالفرح والمشاركة فيه.

ذاك أن الجيران أغاظوا أبا منير وأمّ منير لتلقّيهم من الرسائل ما يعاكس الرسائل التي تصلهما، ثم إنهم لا يتسثرون على فرحهم بأخبار أبنائهم، ولا يخجلون بذلك، كما يُسعدهم شراء الحاجيّات والألبسة والحلويات بعد تسلّم الرسائل. وهذا كلّه يتغيّر حين يمزان من أمام بيت الجيران، هي بتيورها وبسكربينتها، وهو بكرافتته الداكنة، فتظلّ تراقبهما عيونهم إلى أن يغيبا عن نظرهم. ثم، بدافع الفضول، ينتظرون عودتهما لمعرفة الخبر اليقين وتحديد هويّة الضحايا. وعلى الجيران، طغى ميل لئيم إلى التظاهر بغياب الاندهاش لأخبار الزوجين، فكأنّهم، في هذا، يرخّصون قيمة البضاعة التي بيعت إليهم فيقلّ شعورهم بالدَين تجاه

المُخبرين، بل كانوا أحياناً يسلكون سلوك من يتوقّع وفاة المتوفّى، إمّا لأن صحّته بدت لهم هزيلة أصلاً، كما كانوا يقولون، وإمّا لأن في بيت أهله أمراضاً سبق أن تكهّنوا بأنّه سوف يرثها، وبأنّها سوف تفتك، عاجلاً أم آجلاً، به.

وعلى هذا النحو، عاشت منيرة وزوجها، يقايضان بالموت فيربحان ويخسران، وبطريقتهما يطيعان الربّ وينشران أخبار أفعاله.

سيرة كاهن لكلّ الفصول

بدا من الصعب على أهل القرية أن يعتادوا اسمه الجديد: أبونا ابراهيم. فأن يُسام سعيد كاهناً ويتغيّر اسمه ليسا بالأمر السهل. ذاك أنّ سعيد كان معروفاً بأوصاف تلوّن صاحبها وتجعل حضوره واسمه غير قابلين للتبديل. فهو كان جميل الوجه وذا صوت بديع، كما كان يفرط في تناول الخمر، لكنّه كان أيضاً يُكثر الهرب من المدرسة والتعرّض لضربات عصا متلاحقة على قدميه عقاباً يُنزله به الأستاذ.

ويقول بعض من عاشوا تلك الحقبة إنّ الأستاذ كان يرسل بعض التلامذة إلى حيث يكون كي يجرّوه بالقوّة إلى المدرسة، لكنّ فيما كانوا يجرّونه ذات مرّة، شاهد سعيد حماراً على الطريق ربطه صاحبه بشجرة وتركه هناك، فما كان منه إلاّ أن صارحهم بحسده الحمارَ لأنه لا يذهب إلى المدرسة. وحين أخبر التلامذةُ أستاذهم بذلك، أعفاه الأستاذ من الدراسة وسأل أهله أن يُعفوه.

أهمّ من هذا أنّ اتّهامات بسرقات صغيرة حفّت باسمه: دجاجة من هنا وقنينة زيت من هناك يهرع بهما إلى بيت أبيه المثقل بالديون، الذي لم تُعرف له مهنة تُعيله. لكنّ أهل القرية كانوا يغفرون له أفعاله لأنّ صوته استثنائيّ، وسهرات الطرب لا تكتمل، كما كانوا يقولون، من دون غنائه.

وفجأة، حين رحل عن دنيانا كاهن القرية المُسنّ، بات لا بدّ من كاهن يفتح أبواب الكنيسة للصلاة، مُجنّزاً الموتى ومُكلّلاً العرائس. هكذا وقع الاختيار على سعيد، المتعطل عن الدراسة والعمل، والذي قبل العرض من غير تردّد. صحيح أنّ بعض كبار السنّ الأشدّ تمسّكاً بالتقاليد اعترضوا، لكنّ رأي الأكثريّة التي أكّدت عذوبة صوته وصلاحه للترتيل هو الذي غلب في النهاية، جاعلاً سعيد خادماً مطيعاً للمسيح.

معاصرو شبابه أضافوا أنّ الخوري إبراهيم صار شخصاً آخر جدّيّاً ووقوراً، ليس فقط بسبب اللحية والجبّة السوداء التي تغطّي كلّ جسده، بل أيضاً لأنّه لم يعد يُشاهَد سكراناً على الطرقات، كما قلّت ضحكاته وشتائمه البذيئة واختفت تماماً سرقاته الصغرى. ذاك أنّ "المحترم" بات يتلقّى معاشاً شهريّاً من المطرانيّة، كما تعود عليه صينيّة الصلاة كلّ أحدٍ بنقود قليلة تتضاعف في مناسبات الموت والزواج. وقد ذكر المدافعون عنه وقائع توحي أنّ نوراً قُذف فجأة في صدره، فتاب عن قطيعته مع الله وانضوى فعلاً في خيمة تقواه. فهو بات يصلّي ويتعبّد حتّى حين يكون وحده في بيته، كما يعامل الجميع وفقاً لوصايا الربّ.

وهذا لم يكن دقيقاً تماماً، إذ يبدو أنّ شيئاً من سعيد بقي حيّاً في أبينا الخوري. حبّه لأمّ كلثوم ولمحمّد عبد الوهاب لم يتغيّر، وكلّ من اقترب من بيته سمع صوتيهما آتيين من راديو عتيق لا يُسكته إلاّ حين يغادر

البيت. أمر آخر، أشدّ جدّيّة وخطورة، ظلّ بعضهم يتهامسون به، هو أنّ أبانا لم يغيّر عاداته القديمة حيال النساء، خصوصاً منهنّ أولئك اللواتي يهاجر أزواجهنّ إلى بلدان بعيدة. وقد روي أنّ أحد وجهاء القرية صارح الخوري بأنّ نشاطه هذا لا يتناسب مع موقعه الجديد، فأجابه المحترم بأنّ زوجته الخوريّة لا تحبّ ذاك الشيء الذي يحبّه هو.

لكنّ فجأة صارت للخوري إبراهيم اهتمامات لم يُعرف بها قبلاً. فقد عاد إلى القرية شابّ درس المحاماة في فرنسا وآثر أن يصير زعيماً لتلك المنطقة. ولمّا كان تأييد الخوري شرطاً للزعامة، حاول المحامي الشابّ استمالة أبينا. والحال أنّه نجح في ذلك، سيّما وأنّ الاثنين يجمعهما تحالف عائليّ يواجه التحالف الآخر المؤيّد لكميل شمعون. وبالفعل، نشأت بينهما صداقة تعلّم فيها الخوري من المحامي حبّ القوميّة العربيّة وجمال عبد الناصر. وأغلب الظنّ أنّ أغاني عبد الوهاب وأمّ كلثوم في تمجيد الزعيم المصريّ سهّلت مهمّة المحامي.

هكذا صار أبونا يرافق صديقه وزعيمه في رحلته الأسبوعيّة إلى سوريّا، فما إن يلتفّ بعض أهل القرية حوله، بعد رجوعه، حتّى يروح يخبرهم أنّه قال كذا لأكرم الحوراني وسمع كذا من عبد الحميد السرّاج. وهم بدورهم كانوا يزدادون يقيناً بأنّ المهمّة نجحت وأنّ أبانا إبراهيم صار فعلاً محترماً، وانتصر نهائيّاً على سعيد.

فهو مثلاً صار يحدّثهم عن المسيحيّة المشرقيّة التي تعادي مسيحيّة الغرب وتتبرّأ من الصليبيّين، ويُخبرهم أنّ أجدادهم من أبناء تغلب وغسّان متمرّسون في عروبة سبقت الإسلام. وحينما سأله صانع الأحذية، خليل، عن السبب الذي يجعله يحبّ عبد الناصر، جحظت عينا الخوري استغراباً وأجاب خليل: لأنّه، يا حمار، أمّم قناة السويس، فتجرّأ يعقوب، أحد الجلساء، على طرح سؤال آخر لم يتحسّب له الخوري: وماذا يعني تأميم قناة السويس يا محترم؟

– يعني... يعني... أنت مثلاً يا يعقوب، متى كانت آخر مرّة أكلت فيها سمكاً، ومتى سبحتَ أنت وأسرتك؟

– الحقيقة يا أبانا أنّنا لم نسبح أبداً في حياتنا. أمّا السمك، فلم أعرف طعمه منذ خمس سنوات.

– الآن تفهمون، يا أحبّائي، ما معنى تأميم قناة السويس. فالإنكليز حرموا المصريّين السمك والسباحة، لكنّكم إذا ذهبتم الآن إلى مصر لن تجدوا أيّ مصريّ في الطريق. فالشعب المصريّ يقضي كلّ وقته في السباحة، لا يتوقّف عنها إلاّ ساعتين يتناول فيهما وجبتي السمك ظهراً ومساءً. السباحة، يا أبنائي، أفضل رياضة للجسد، والسمك أفضل المآكل وأغلاها ثمناً. هذا كلّه حقّقه عبد الناصر.

لكنّ الفضول دفع يعقوب خطوة أبعد:

– ولماذا حرمهم الإنكليز السمك والسباحة؟

– لأنّهم أرادوا أن يسرقوا السمك ويأخذوه إلى بلادهم، أمّا البحر، فهم يعرفون أنّ من يسبحون فيه يستطيعون التنصّت على مؤامراتهم التي يعقدونها تحت سطح الماء مع الإسرائيليّين... هؤلاء اليهود، يا أبنائي، لهم إصبع في كلّ شيء، والإنكليز أصل الدسائس في الكون...

وعاود أبونا النظر إلى خليل وسأله: "هل فهمت يا حمار السبب؟". وإذ هزّ خليل رأسه موافقاً، تلاقت أعين الحضور معجبةً بكلام الخوري، بينما همس أحدهم في أذن جليسه المجاور، مسترجعاً حكمة الأجداد: "مَن عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم أو رحل عنهم"، قاصداً تأثّر أبينا بالمحامي الذي درس في فرنسا. لكنّ العلاقة بين الاثنين ما لبثت أن ساءت. فالمحامي الحريص على سمعته السياسيّة اكتشف ما لم يكن في حسبانه. ذاك أنّ الخوري حين كان يرافقه إلى سوريّا كان يهرّب ما وُصف بالموادّ الممنوعة، مستفيداً من أنّ سيّارة المحامي لا تُفتّش على الحدود. وإذ انهارت علاقتهما، أعلن الخوري أنّه اعتزل السياسة ليكرّس وقته وجهده للربّ ولخدمة الرعيّة.

ومضت سنوات لم يُسمع فيها خبر عن أبينا، لكنّ حينما اندلعت الحرب صار دوره مطلوباً، مثله في ذلك مثل عدد من وجهاء المنطقة ورجال دينها. فالحروب الصغرى جعلت تنشب بين قريتين أو عائلتين في قرية واحدة، وهؤلاء الذين أُطلق عليهم اسم "اللجنة" باتوا

يتوسّطون بين المتخاصمين ويصالحونهم، كما يقرّرون قيمة الديّة التي ينبغي أن يدفعها طرف مُعتدٍ لطرف مُعتدى عليه. وأبونا كان العضو الأبرز في "اللجنة" لأنّه أفصحهم وأعرفهم بالسياسة، فقد نبش ذاكرته القديمة وعاد منها بما كان يقوله عن العرب ووحدتهم القوميّة، لكنه قلبه كلاماً عن لبنان ووحدته الوطنيّة. أمّا ما لم يتغيّر، رغم مرور ربع قرن، فكان إصبع اليهود الموجود في كلّ مكان.

وهكذا استمرّت الحال إلى أن جاء أحدهم يقرع باب أبينا في وقت ليليّ متأخّر. وما إن فتح الخوري حتّى بادره الطارق:

– اندلع قتال بين قريتين في السهل، وأرجوك يا أبانا أن تحضر معي...

– لكنْ من هم الذين يتقاتلون؟

– أسماؤهم صعبة يا محترم، لم أكد أحفظها. إنّهم... السنهاليّون والتاميل...

– ماذا، ماذا تقول؟

– هؤلاء عمّال زراعيّون جيء بهم من بلد اسمه سريلانكا، بعضهم يعمل في القرية الفوقا وبعضهم في القرية التحتا...

– مِن سريلانكا تقول؟ يا إلهي! من سريلانكا!

وبعدما صفن وفرك عينيه: هل هناك أيّ معلومات عمّا إذا كان لليهود إصبع في ذلك؟

– لا أدري، فهمت أنّهم منذ كانوا في بلدهم يكرهون بعضهم بعضاً. وهنا، في لبنان، سلّحت حركةُ "فتح" السنهاليين وسلّحت حركةُ "الصاعقة" التاميل...

وأيضاً لم يفهم أبونا، خصوصاً أنه كان لا يزال يترجّح بين النوم واليقظة. لكنّ، ما إن اتّجه إلى غرفة نومه كي يلبس جبّته حتّى سمع صوت الخوريّة تقول إنّ المسألة من أصلها جنون بجنون، وتتّهم زائرهم بالخَرف. ويبدو أنّ أبانا اقتنع بما قالت زوجته فعاد من دون أن يغيّر البيجاما:

– بأيّ لغة أحدّثهم، وعمّاذا أحدّثهم؟ هذه مسخرة يا ابني. كس أخت سريلانكا وأهلها، فليتقاتلوا ما شاؤوا. فليتقاتل الجميع والجميع، أنا لا شأن لي بذلك، ولن أذهب معك ولن أصالح السريلانكيّين.

لقد شعر فجأة بنوع من العبث المرفق بملل من عمليّات المصالحة المتكاثرة، فقدّم استقالته من اللجنة في اعتزال ثانٍ عن السياسة التي لم يعد يفهمها بتاتاً.

لكن بقاء أبينا في العتم لم يطل. فإذ حلّ السلام، عاد إلى القرية أحد أبنائها المهاجرين وقد صار بليونيراً. وكمثل المحامي قبل ثلث قرن، أراد لنفسه أن يصير زعيماً للمنطقة، ومثله أيضاً أراد التقرّب من الخوري. لكنّ على عكس المحامي الذي كان يصطحبه إلى حمص ودمشق، بات البليونير يصطحبه إلى أثينا وطوكيو ولندن ولوس أنجليس كي يغنّي له في سهراته. وبدلاً من أحاديثه أمام أهل القرية عن العروبة، صار يغيب

عنهم أشهراً طويلة تبقى فيها الكنيسة موصدة، ويبقى المسنّون القليلون المقيمون في القرية بلا صلاة.

والقرية حقدت على كاهنها، وراحت تتّهمه بأنّه باعها كي يرافق البليونير. أمّا أبونا، بعد قدّاس أقامه في ما بين رحلتين إلى الخارج، فطلب من المسنّين والمسنّات المصلّين وراءه أن يقتربوا منه، فحين فعلوا، ولم يكن عددهم يتجاوز العشرة، خاطبهم: "يا أحبّائي، سمعت أنّكم تتهجّمون عليّ، وتقولون إنّني تركتكم وتبعت البليونير. هل تظنّون –يا حمير– أنّ عاقلاً يتبعكم أنتم ويبني حياته على الليرات القليلة التي تتبرّعون بها لصينيّة الكنيسة، ويترك البليونير الذي عرّفني على العالم وأغدق عليّ المال بحيث اشتريت بيتين في بيروت؟ كم يؤسفني أن أقول لكم يا أحبّائي إنّكم حمير لا أكثر ولا أقلّ...".

هنا اغتاظت العجوز مرتا، فقالت: لكنّ الإنجيل يقول...

– لا تذكري الإنجيل بلسانك يا مرتا. الإنجيل أحفظه وأصلّيه وأرتّله، وهو لا يذكر أحداً بالاسم، لا يذكرني ولا يذكرك ولا يذكر البليونير ولا يطالبني أن أتركه وأتبعك أنتِ... الإنجيل أعقل كثيراً من أن يطلب منّي طلباً كهذا. وبعد اليوم، لا أريد أن أسمع كلاماً سيّئاً بحقّي منقولاً عنكم، وإلاّ أقفلت الكنيسة نهائيّاً، وبلّطوا البحر إن شئتم. أمّا الآن، فاغربوا عن وجهي...

ونظر الخوري إلى ساعته وغادر الكنيسة مسرعاً إلى سيّارة كانت تنتظره في الخارج كي تقلّه إلى المطار. وإذ انفضّ المصلّون مكسورين وحزانى، راحت مرتا، التي تعرفه منذ أزمنة سحيقة، تتمتم ما معناه أنّ كاهن الله كثيراً ما غشّ الله، وتتذكّره بوصفه سعيد الذي لم يتغيّر.

حميد الذي لم يصبح نائباً

لم يصدّق حميد أذنيه حينما أخبره راغب، جارُه الذي يعمل سكرتيراً للقطب السياسيّ، أنّ القطب يفكّر في اصطحابه على لائحته الانتخابيّة.

– "أأنت متأكّد؟"، سأله حميد.

– "نعم، إنّه مهتمّ بالأمر ويحبّ أن يراك. هل تريد أن أطلب موعداً لك كي تلتقي القطب؟".

"طبعاً، طبعاً"، ردّ حميد الذي ما إن ودّع زائره حتّى بدأ يحرّك جسمه تحريكاً يشبه الرقص وقد أفلت من كلّ إيقاع. فحينما شاهدته زوجته لميا على هذه الحال استغربت وسألته عن سبب سعادته الغامرة، فأجابها: "سوف أصير نائباً، سوف نلعب لعباً بالمال، مثلنا في ذلك مثل باقي النوّاب. ستكون لدينا سيّارة مرسيديس كبيرة ومُفيَمة تحمل نمرة زرقاء...".

وبالفعل، رُتّب الموعد لحميد الذي وجد نفسه أمام القطب وجهاً لوجه:

– "أنت –يا أستاذ حميد– معلّم مدرسة محترم. الصغار يحبّونك وأهل الحيّ يحترمونك، فضلاً عن أنّ عائلتك كبيرة العدد، ولهذا فكّرت في احتمال اصطحابك على اللائحة الانتخابيّة التي أعكف على تشكيلها. لكنّ ثمّة أمرين لا بدّ أن أنبّهك إلى ضرورتهما: أوّلاً، يُستحسن أن تزور سيادة العقيد في البقاع، وأنت تعرف أنّنا في هذه الأيّام لا نستطيع أن نقصّ خيطاً إن لم يكن الأمن

السوريّ راضياً عن ذلك، أمّا ثانياً، فعليك أن تُظهر أنّك زعيم لعائلتك ولحيِّك، وهذا، كما تعلم، يستدعي إقامة بعض الولائم وإظهار أنّك تتمتّع بدالّة على الحشود، وإلقاء بعض الخطابات في المناسبات الوطنيّة والقوميّة، ولا شكّ عندي بأنّك تفهم ما أقصده وتعرف كيف تتصرّف...".

حميد عاد إلى بيته أسعد بلا قياس ممّا غادره وأشدّ ثقةً بأنّه سيغدو نائباً ومليونيراً بعد أيّام قليلة. هكذا، طلب من زوجته أن تدعو أبناء العائلة الكبيرة إلى وليمة غداء، فيما بادر إلى الاتّصال بجاره راغب الذي سبق أن أفهمه القطب أنّه يستطيع ترتيب موعد له مع سيادة العقيد. ورحّب الاثنان، راغب ولميا، بالمهمّتين اللتين أوكلتا إليهما.

ففي يوم الأربعاء، بدأت الحشود تتدفّق على بيت حميد الذي أنفق نصف مدخّراته من التعليم كي يضمن أن تكون المائدة عامرة بالأسماك وباللحوم. وما إن قارب ضيوفه الشبع وبدأوا تناول الحلوى، حتّى ألقى فيهم خطبة لم يفهموا في البداية سببها. فهو راح يحدّثهم عن مجد عائلتهم وأجدادهم الكرام، وأنّه لن يليق بعد الآن بعائلة كهذه أن تبقى بلا تمثيل سياسيّ. وقبل أن ينهي الخطاب، حيّى حميد الرئيسَ حافظ الأسد والعلاقة الأخويّة السوريّة – اللبنانيّة، مثيراً لدى أقربائه شتّى التكهّنات حول اهتماماته وحماساته التي لم تكن مألوفة فيه، ولم يخلُ الأمر من تساؤلات حول

كراهيته المستجدة لأميركا ولإسرائيل اللتين ختم الخطاب بتهديدهما وبجعلهما عبرة لمن اعتبر.

وفي يوم الجمعة، وجد حميد نفسه في البقاع وجهاً لوجه مع العقيد الذي تأخّر نحو ساعتين عن الموعد فيما كان معين ينتظر في غرفة جانبيّة صغيرة تطفح منها رائحة دخان وعفن متراكم. فعندما التقيا، امتدح العقيد ما سمّاه خطّ حميد القوميّ، إذ وصلته المعلومات عن وليمته، كما قال. وفيما كان ينظر إلى ساعته موحياً بانتهاء الجلسة التي دامت نحو ستّ دقائق، دعا حميد إلى عشاء يصطحب فيه زوجته لأنّ زوجة العقيد تودّ التعرّف عليهما.

وعاد حميد أشدّ يقيناً بالآفاق الزاهرة التي تنتظره، فأخبر لميا بأنّ العقيد كرّمه بأن قدّم له بيده فنجان القهوة، كما أصرّ عليه أن يبقى وقتاً أطول، ثمّ رافقه إلى الخارج مودّعاً، وهذا فضلاً عن إطلاعها على دعوة العشاء. ومضى حميد يطلب إليها التهيّؤ لوليمة ثانية كبرى يجب أن يقيمها يوم الأحد. وهكذا كان، فأنفق الزوجان ما كان قد تبقّى لهما من مدخّرات قرّرا تجميعها استعداداً لإنجابهما طفلهما الأوّل. وإذ نبّهته لميا إلى أنّ وضعهما الماليّ لا يحتمل هذه الولائم، انفجر في وجهها: "أنت تفكّرين في التفاهات الصغرى بينما الملايين سوف تتدفّق علينا بعد أيّام قليلة"، وهو ما ردّت عليه بشيء من الوجوم وكثير من الشكّ: "في انتظار أن تتدفّق

الملايين لن أحبل بالولد الذي قضينا أيّاماً نتحدّث عنه ونتفنّن في رسم ملامحه".

لكنّ علاقة حميد بزوجته شرعت تتردّى ساعةً بساعة. ذاك أنّها بدأت تلمس تغيّراً في سلوكه راح يتعاظم، جاعلاً منه شخصاً آخر في عينيها. فهو صار يتصرّف معها "كأنّه باشا"، كما قالت لجارتها الصديقة، فلا يحدّثها إلاّ بلغة آمرة، فيما يمنعها من أن تكلّمه حين يكون صافناً يفكّر في قضايا يقول إنّها تطاوِل التخطيط للمستقبل.

ولئن اصطحبها يوم الثلاثاء إلى البقاع، كي يزورا العقيد وزوجته، فوجئا بأنّ زوجة العقيد لم تحضر السهرة بداعي المرض، فيما بالغ العقيد في التودّد إلى لميا من دون أن يبدي أيّ لطف حيال زوجها. وإذ أحسّت بأنّ الدعوة هذه ليست بريئة، كما ظنّ حميد، طالبته بالانصراف مبكراً وبمغادرة مقرّ العقيد الذي كان يسكب لها الكأس الثالثة ويحاول دفعها، وهو مفرط في السكر، إلى أن تشربها. وطبعاً لم يُسرّ العقيد بمغادرتهما، كما أنّ حميد استاء قليلاً ممّا رأى أنه سوء نيّة لدى زوجته وسوء فهم ينبغي أن تتغلّب عليه.

يوم الخميس، كانت العائلة على موعد مع وليمة أخرى حاولت لميا أن تثني زوجها عنها، مثيرة من الغضب فيه أكثر ممّا أثارت من قبل: "صرتُ على قاب قوسين من الوصول، فلا تتدخلي وتهدمي مستقبلنا. أنت المسؤولة عن كلّ خراب يحلّ بنا". ورضخت لميا

ومُدّت الطاولات في وليمة أخرى استدان حميد مدخرات أخيه القليلة لإقامتها، ثمّ انتهت كسابقتيها بخطاب ناريّ كان لا بدّ أن تمتدّ ألسنة نيرانه لتطاول إسرائيل وأميركا. لكنّ الخبر السيّئ هو ما بُلّغ به يوم الإثنين. ذاك أنّ المدرسة التي يدرّس فيها، طردت حميد لتغيّبه أيّاماً عدّة من دون عذر مقبول، أيّاماً صرفها في زيارات لأقربائه الكثيرين كي يحثّهم على التصويت له. وكان ما ضاعف تلك الضرورة معرفته أنّ ابن عمّ له عاد ثريّاً من حيث يعمل في الخليج، وأنّه التقى القطب كما التقى العقيد وقدّم إليهما بعض الهدايا الثمينة.

أمّا الخبر الأسوأ بإطلاق، فتلقّاه يوم الثلاثاء، إذ شُكّلت اللائحة التي سيخوض بها القطب معركته الانتخابيّة التي ستُجرى بعد عشرة أيّام. ذاك أنّ اللائحة المنتظَرة خَلَت من اسم حميد الذي حلّ فيها ابنُ عمّه محلّه. وإذ اتّصل براغب سائلاً إيّاه عن السبب، ردّ الأخير: "سامحك الله يا حميد، لقد مرّت ذكرى الحركة التصحيحيّة وأنت لم تعلّق يافطة واحدة تبايع فيها الرئيس الأسد... معقول؟".

– يا عزيزي، أنا قلت في خطاباتي...

– لا تقل شيئاً، لقد أسأتَ التصرّف. خطاباتك لا تكفي. إنّها الحركة التصحيحيّة يا حميد، وأنت غافل عنها! هل تعلم ما الذي فعله ابن عمّك لهذه المناسبة؟ لقد علّق أكثر من عشرين يافطة، وفوق هذا عرفت زوجته الحسناء كيف تتصرّف مع سيادة العقيد، وباتا،

هي وابن عمّك، يقضيان في البقاع أوقاتٍ أطول ممّا يقضيان هنا...

حميد الذي وقع تحت وطأة الدين والبطالة وسخرية بعض الأقارب، لم يعد له إلاّ طلب واحد: هل يستطيع القطب والعقيد أن يتوسّطا مع المدرسة حتى يعود إلى التعليم، لكنّ راغب بدا حاسماً:

– القطب منشغل اليوم بالمعركة الانتخابيّة، علماً بأنّه متأكّد من الفوز، هو وباقي أعضاء اللائحة. وأنت تعلم، بعد الانتخابات سيتركّز كلّ اهتمامه على تشكيل الحكومة، وعلى من يشكّلها، وكيفيّة توزيع الحقائب الحكوميّة...

– والعقيد؟ ماذا عن العقيد؟ مكالمة تليفونيّة واحدة منه لمدير المدرسة تكفي لإعادتي إلى التعليم...

– سيادة العقيد لا يتدخّل في أمور كهذه يا حميد. لا أستبعد أن يكون قد نسي اسمك. سيادة العقيد، أعانه الله، منشغل بإسرائيل وبالتوازن الإستراتيجيّ معها وتنظيم المقاومة لها. وفوق هذا، فإنّ تدخّله من أجلك سوف يُعتبر تدخّلاً في الشؤون الداخليّة اللبنانيّة. هل سمعت مرّةً أنّ العقيد أعاد معلّماً إلى مدرسته؟

أمّا حميد، فعاد يائساً ومكسوراً، لا يبحث إلاّ عن زوجته لميا التي ربّما لم تعد هناك.

مفاتيح مجيد وسيجاره

فجأةً انتشر السيجار في المطاعم والمقاهي، كأنّما السماء أمطرت سيجاراً. بعض من كانوا يدخّنون السجائر صاروا يدخّنونه، وبعض من لم يكونوا يدخّنون أصلاً صاروا أيضاً يدخّنونه. وكان أكثر من امتهنوا المهنة الجديدة أولئك الذين تتوقّف بهم سيّارة فخمة ومُفَيّمة فيُفتح لهم الباب ويدخلون تاركين وراءهم ثلاثة مرافقين أو أربعة في الخارج يلوكون على الأرصفة سجائرهم القديمة.

لقد بدا السيجار إشارة بليغة إلى مرتبة وإلى انتظام في سلكٍ، وبات حزبُ السيجاريّين هؤلاء من القوّة حتّى أنّ أعضاءه لم يعد يردعهم عن إشهار سيجارهم ضيق الأمكنة واكتظاظها، أو وجود الأطفال فيها. أمّا من لا سيجار لديه، فبدا كما لو أنّه أصيب بلكمة على الأنف، مصحوبة بانخفاض في مستوى الكرامة.

ومجيد كان واحداً من هؤلاء الذين شرعو يتزايدون مع عودة ذاك المُهاجر المدجّج بالمال إلى بلده وإعلانه مشروعاً لإنهاض البلد. وفيما كان الأخير يبحث عن لفيف وعن مقرّبين، تمكّن مجيد من العثور على طريق توصله إليه، وسريعاً ما وصل إلى أبعد من ذلك: إلى قلب المهاجر العائد نفسه.

فالأخير أحبّه وصار يستشيره في أموره وأمور البلد أكثر ممّا يفعل مع باقي الأتباع ممّن صاروا فجأة

يدخّنون السيجار. وهو، بدوره، بادله الحبّ على نحو أوقعه في مشكلة صحّيّة. ذاك أنّ طبيب مجيد سبق أن أنذره: "خفّض وزنك يا مجيد وتلافَ سمنتك الزائدة، وإلاّ أكلك الكوليسترول"، لكنّ تعلّقه بالمهاجر العائد، الذي يفوقه سمنةً، دفعه في اتّجاه آخر، فجعل يزيد وزنه كي يرفع درجة الشبه بينهما. هكذا صار مجيد ملعباً فسيحاً لذاك الكوليسترول اللعين.

وكان أكثر ما حبّب المهاجر العائد بمجيد أنّه امتحنه في أمر بالغ الصعوبة، فنجح فيه. فهو كلّفه تعليم نجله السياسة وتقديمه إلى الناس. ومجيد أدرك في دخيلته حجم التحدّي: "للأسف، لا توجد في قواميس اللغة كلمة تستطيع ترويج النجل: دراسة؟ لم يدرس. قراءة؟ لا يقرأ. كتابة؟ لا يكتب. خطابة؟ لا يخطب. صحيح أنّه كان يحضر أفلاماً سينمائيّة لكنّه كان يضجر ويغادر الفيلم إن لم يسقط ثلاثون قتيلاً على أقلّ تقدير في ربع ساعته الأوّل. هل أقول إنّه قضى شبابه على اليخت في صحبة بنات جميلات؟ هل أقول إنّه جرّب طرقاً في الكيف والمتعة لم يجرّبها سواه؟ هذا كلام يضرّ مستقبله السياسيّ بدلاً من أن يفيده".

وبعد لحظة إطراق، مضى مجيد في مونولوغه: "بعد عمر طويل، حين يتوفّى المهاجر العائد، سوف يرث هذا النجل مالاً وفيراً، وسوف يُسمّى رجل أعمال ناجحاً. هذا مؤكّد. لكنْ ماذا أفعل به الآن، ماذا أسمّيه ومن أين آتي بالمعاني التي تسوّقه للناس؟".

وفي جلسة حميمة مع أبيه، ولم يكن معهما شخص ثالث، صارح مجيدُ المهاجرَ العائد بصعوبة الأمر، فاستغرب الوالد وقال له إنّ نجله هذا أفضل أنجاله الكثيرين وأذكاهم. وبجدّية تغلّبت في كلامه على المزاح، أفهمَه أنّ الفشل في هذه المهمّة سيُحسَب عليه هو لا على نجله.

إذاً، لا مفرّ من النجاح، قال مجيد، واعداً المهاجر العائد باجتراح معجزة لا يستطيعها أيٌّ كان. وبالفعل، اخترع شعاراً صالحاً كي يستخدمه في وصف النجل: "يسير على خطى أبيه"، لكنّ النجل فاجأ مجيد حين سأله عن معنى "خطى"، فقال له إنّها جمع "خطوة"، فسأله عن معنى "خطوة". وحينذاك، لم يبقَ أمام مجيد إلاّ حلّ واحد: ما دام هذا الشابّ لا يفهم إلاّ العاميّة البسيطة كما يتداولها الشعب، بات ينبغي تحويل هذا النقص إلى فضيلة. هكذا صاغ له الشعار الجديد: "لا يعرف أكثر منّا تعرفون". وبدا لمجيد أنّ عبارة كهذه تقدّمه زعيماً شعبيّاً محبوباً تتماهى معه الجماهير.

فحين علم المهاجر العائد بهذا الإنجاز، وعد مجيد بتسليمه حقيبة وزاريّة في الحكومة التي ستُشكّل قريباً، وأعطاه علبة سيجار وصفه بأنّه نوع جديد سيكون هو أوّل من يدخّنه في لبنان.

لقد نجحت التجربة الأصعب، واضعةً مجيد أمام المنعطف الأكبر في حياته، وحاملةً إيّاه على مراجعة صفحات من ماضيه والتأمّل فيها. فهو حين كان طالباً

جامعيّاً لم يكن يُصنّف شابّاً ذكيّاً. لقد احتكر هذه الصفة أولئك الطلاّب الذين كانوا يقرأون الكتب لساعات وساعات، ثمّ يخرجون على زملائهم بتحليلات وبأفكار وبقصائد تبهرهم. كذلك، هو لم يُعرف بخفّة دم، مثله في ذلك مثل المهاجر العائد الذي كان يستمدّ خياله وصوره من عالم البنزين ومحطّاته، حيث جنى ثروته الضخمة. مع هذا، كانت لمجيد مواهب أخرى مفادها المواظبة والجَدّ في طلب الزعامة. ففي ما يشبه الوصيّة، علّق أبوه كلّ آماله عليه، وطلب منه أن يكدّ كي يصير زعيماً. وبالفعل، تصرّف مجيد على هذا الأساس، كأنّه ينتقم للوالد الذي لم يسعفه الحظّ كي يُنتخب عضواً في المجلس البلديّ. هكذا كان في الجامعة يربّت على أكتاف الأذكياء وأصحاب المواهب والنكات، مُظهراً أنّه يستحسن أفعالهم استحسان المعلّم الراسخ أفعالَ تلامذته المزاجيّين، علماً أنّه كان يشعر بحسد لهم يتخلّل كلّ نفَس يتنفّسه. وكان ما يرعبه شعور خفيّ بأنّهم يستحمرونه من وراء ظهره.

على أنّ نقطة قوّته كانت هي نفسها نقطة ضعفه: فهو، في السياسة، كان يتحدّث دوماً عن فلسطين وعروبة لبنان ووحدة الإسلام والمسيحيّة، وهذه مسائل لا يناقش أحدٌ فيها حتّى لو لم يكن مؤمناً بها. لكنّ أولئك الأذكياء كانوا يُشعرونه بأنّه، إذ يقول ذلك، لا يتعدّى العموميّات البليدة التي لا تقدّم ولا تؤخّر.

وحين عمل مجيد بعد ذاك موظّفاً في الوزارة، كان واضحاً أنّ طموحه يتّجه به إلى مكتب الوزير. وكان كلّما تخيّل نفسه جالساً في ذاك المكتب، يأمر وينهي، صدمه الواقع المُرّ: كيف لهذا الطموح، الذي تعهّد أمام أبيه ببلوغه، أن يتحقّق؟

كلّ شيء تغيّر مع عودة المهاجر التي قلبت حياته رأساً على عقب. فهو صار يلبس بدلة داكنة مع ربطة عنق تجعل العرق يتصبّب منه في أيّام الصيف. كذلك صار لا ينظر إلاّ بعبوس إلى الناس والأشياء موحياً بأنّه يفكّر في مسائل مهمّة، أو أنّه صاحب هيبة لا تتزحلق على دعابة من هنا وتفصيل تافه من هناك. وكان إصراره على اتّباع هذا السلوك يتضاعف حين يدخل مكاناً يحتشد فيه كثيرون، كالمطعم مثلاً. فمجيد ينبغي أن يسبق الآخرين في الدخول، إلاّ متى كان بينهم المهاجر العائد، كما ينبغي أن يبدو جدّيّاً وصاحب أسرار، ينفخ صدره فيما يمسك السيجار بأصابعه كأنّه لاهٍ عنه، أو كأنّه وُلد وبين أصابعه سيجار.

ومضى المهاجر العائد ينظّم حياة تابعه وصديقه بما يناسب دوره الجديد: فهو زوّجه، مقترحاً عليه فتاة يعرف أنّها "ابنة عائلة"، ينطق لسانها بثلاث لغات درستها في أحسن المدارس واكتسبت مهارات اجتماعيّة في الاستقبال والتوديع. وهو أيضاً رتّب له شقّة فخمة في بناية فخمة في حيّ فخم. وعندما جعله

المهاجر العائد وزيراً كان رفاقه، من أذكياء الأمس في الجامعة، يتوزّعون بين باحث عن عمل ومتعطل عنه.

والتغيّرات التي طرأت على مجيد راحت تتسارع، ومعها تتسارع استجاباته على اختلافها. فأحياناً كان يخاطبه أحدهم بـ"يا بيك"، فيسري في عروقه اصطهاج يكاد يظهر على وجهه ويقلّل من هيبته، لكنّه يسارع بالردّ: "لا، لا، أنا لست بيكاً، أنا مثلكم، واحد منكم. لقد انتهى زمن الإقطاع...". وهو كان يشعر، إذ يقول كلاماً كهذا، أنّ سامعه الذكيّ لن يصدّقه، بل قد يسخر منه، كما كان يفعل بعض رفاقه في الجامعة، لكنّ السامع الغبيّ سيصدّقه حتماً ويقول عنه إنّه شعبيّ ومتواضع. وبما أنّ الأغبياء أكثر من الأذكياء، بلا قياس، فإنّ كلامه هذا سيدرّ عليه من الأرباح ما لا تُقارَن به خسائره، وفي النهاية: "ما همّي إذا قال بضعة أذكياء فاشلين شيئاً آخر؟".

وحين كانت سيّارته تمرّ في شوارع المدينة، كانت الطرقات تُقفل أمام باقي الناس ممّن ينتظرون طويلاً في سيّاراتهم كي يمرّ. ومجيد في تلك الأثناء لم يكن يتمنّى شيئاً أكثر من أن يكون بين أولئك المنتظرين بعضُ رفاقه السابقين في الجامعة ممّن كانوا يظنّونه غبيّاً.

وتلاحقت التجارب التي أقنعته بأنّ النجاح في السياسة ليس امتحاناً خطيراً للذكاء، خصوصاً متى كان المهاجر العائد مستعدّاً أن يبذل من أجل إيصاله إلى

المناصب الرفيعة كلّ هذا المال الذي يبذله. فوق هذا، ما من أحد يطالب مجيد بأن يقول كلاماً نابهاً. لقد بدا له الأمر في غاية السهولة، إذ استذكر ما كان يردّده في سنوات الجامعة عن العداء لإسرائيل وتلاقي المسيحيّة والإسلام، وصار يضيف إليه التنويه بالعلاقة الأخويّة مع سوريّا الأسد. فهذه العبارة، كما نبّهه المهاجر العائد، ضروريّة جدّاً في أيّامنا الحاليّة، وهي المفتاح لأقفال عدّة.

وبالفعل، راحت الأقفال تتداعى أمام مفاتيح مجيد وأمام سيجاره، متيحةً له أن يصنع المعجزات وفي عدادها تحويل النجل إيّاه إلى زعيم.

لم تكن ليان ترسل أياً من رواياتها إلى دار النشر قبل أن يقرأها زوجها رياض. صحيح أنّها كاتبة لامعة باتت مداخيل رواياتها توفّر لها ولأسرتها الصغيرة حياة مرفّهة نسبياً، وتُعفي زوجها من العمل متيحةً له التفرّغ للقراءة. لكنّه، في نظرها، يبقى ناقدها الأدبيّ الذي لا يُستغنى عن رأيه. فهو يلتقط بسرعة فائقة نقاط الضعف في تركيب الرواية، بل يتعامل مع التفاصيل الصغيرة معلّقاً على كلمات بعينها يرى أنّها فائضة عن المعنى المقصود أو ضيّقة عليه. وأكثر ما أقنع ليان بدقّة رياض وقدرته على التوغّل في النص أنّه يضع يده على ما كانت ظنّته هي ضعيفاً أو مكتوباً بقدر من الاستعجال.

وهو، فوق ذلك، كان في أحيان كثيرة يقترح عليها بدايات أو نهايات لرواياتها أفضل ممّا كتبته، أو يشير إلى أبعاد تنطوي عليها شخصيّاتها لم تحظَ منها بما تستحقّ من عناية أو إسهاب.

وذات سهرة، أخبرته عن مشروع روايتها الجديدة: ثلاثة فصول طويلة أوّلها عن عائلتها، والثاني عن عائلته هو، فيما الثالث عن أشكال التفاعل بين العائلتين كما تنعكس في حياتهما هما. وقد سرّته الفكرة، وسرّه أكثر ما ذكرته من أنّها أنجزت الفصل الأوّل الذي ناولته إيّاه، مدركةً أنّه كعادته لن يبخل عليها بملاحظاته المفيدة.

وما هو إلاّ يوم واحد حتّى عاد إليها مبهوراً بالفصل الذي قرأه، وهو، على غير عادته، لم يأخذ أيّ مأخذ عليه ولم يقترح أيّ تعديل. لقد أطنب في التحدّث عن ذاك الفصل، ليس فقط من نواحيه الكتابيّة والإبداعيّة، بل أيضاً لإحاطته النفسيّة بعائلة ليان وبتركيبها وعِقدها. وهذا، كما أضاف، يتطلّب درجة من التجرّد والشجاعة لم تملكها إلاّ قلّة من الكتّاب الذين قرأهم. ولم ينسَ رياض أن يضيف الفكرة التي استقبلتها ليان بوصفها مديحاً من زوج ليس الإطراء من عاداته: "إنّ أدبنا لا يصير أدباً ما لم يتجرّأ على المقدّسات، لا سيّما العائلة ونظام القرابة، وهذا ما تفعلينه أنتِ".

لكنّ حدثاً جدّ، بعد يومين أو ثلاثة، على عائلة رياض، شغله عن متابعة الرواية التي تكتبها زوجته: لقد توفّي جدّه المسنّ الذي ترك وراءه ثروة يُفترض أن توزع على الأبناء والأحفاد في أقرب وقت ممكن. وبدورها، شاركته ليان انشغاله المستجدّ لكنّها نجحت في أن تسرق الوقت اللازم لكي تكتب فصل روايتها الثاني.

فما إن قرأ رياض هذا الفصل حتّى مسّه مسٌّ غريب جعله ينقلب شخصاً آخر:

– لماذا تقولين عن أهلي ما تقولينه؟

– أنت تعرف أكثر منّي أنّ الرواية شيء والواقع شيء آخر...

– لكنّ لماذا تقولين عن أهلي ما تقولينه؟

– ماذا أقول عن أهلك؟ أنت تعرف أنّني أحبّهم وأقدّرهم...

هنا، عاد رياض إلى غرفة المكتب ثمّ أتى حاملاً في يده أوراق الفصل الأوّل، كأنّها وثيقة الإدانة، فيما كان باليد الثانية يحمل أوراق الفصل الثاني:

– أنتِ، مثلاً، تقولين عن جدّك في الصفحة 17 إنّه كان "رجلاً بالغ الوقار"، فيما تقولين عن جدّي في الصفحة 68 إنّه "بدا في منظر هزليّ...".

– لقد انتزعتَ التعبيرين من سياقيهما. فحين تحدّثتُ عن وقار جدّي كان ذلك تمهيداً للكلام عن ميله الاستبداديّ داخل عائلتنا، وهو ما سبق أن قرأتَه بنفسك وأعجبك... وحين أشرتُ إلى هزليّة جدّك كان ذلك تمهيداً للكلام عن حسّ النكتة لديه وكيف أنّه يأخذ الأمور الصعبة بخفّة...

– إذاً كنت تقصدين أنّ جدّك أكثر شعوراً بالمسؤوليّة من جدّي الذي كان خفيفاً، وهو ما بنيتِه على قصّة من قصص عائلتي كنت قد أخبرتُكِ إيّاها ولم أكن أظنّ أنّك ستستخدمينها على هذا النحو...

– ماذا تقول؟ أنت تهذي يا رياض...

– أهذي! أنا أهذي، يا ليان! مَن يدافع عن الحقيقة يكون يهذي! مَن يدافع عن أناس يحبّهم يكون يهذي! فيما نشرُ القصص الحميمة والأسرار الداخليّة للبيوت عمل قويم وصائب؟!

– كأنّني لا أعرفكَ بتاتاً، كأنّني أسمع منك عكس ما سمعتُه على مدى عشر سنوات...

– هذه مسائل لا أمزح فيها... عائلتي! ماذا لو قرأ أبي وأمّي وأخوتي هذا الكلام الذي تقولينه عنهم؟

وبالفعل، لم تعد ليان تفهم شيئاً، خصوصاً أنّ ذاكرتها استرجعتْ بسرعة عبارته التي رأت أنها مديح ثمين، من "أنّ أدبنا لا يصير أدباً ما لم يتجرّأ على المقدّسات، لا سيّما العائلة ونظام القرابة". فهل كان يقصد، كما قالت لنفسها، أنّ الأدب لا يصير أدباً إلاّ إذا تجرّأ على عائلتي وحدها؟

بدت الصدمة التي أحدثها رياض عميقة، فأحسّت ليان أنّها سوف تعيش طويلاً وهي تحاول أن تتدبّر صدمتها هذه. ولرغبة منها في التفرّغ لاستيعابها، آثرت ألاّ تدفع الأمور بعيداً فتنشغل في نزاع لا تملك له الوقت والأعصاب ولا تنوي الخوض فيه.

هكذا حاولتْ تهدئته فأخبرته أنّها ستُتلف الرواية وتستغني عنها جملةً وتفصيلاً، لكن رياض لم يهدأ:

– لقد كشفتِ نيّاتك حيال أسرتي... يا عزيزتي ليان. وهذا يعني أنكِ تملكين أيضاً نيّات خفيّة حيالي أنا. بعد اليوم، ليس مهماً أن تصدر الرواية أو لا تصدر. المهمّ أنّ صدعاً عميقاً أصاب علاقتنا... بحقّ الله، لماذا لم تخبريني قبلاً بأفكارك وبنواياك هذه...؟

– فعلاً أنت تهذي يا رياض. لندع هذا الموضوع إلى الغد. لقد تأخّر بنا الوقت الآن. غداً سوف أتّصل بدار

النشر وأخبرهم أنّني لن أسلّمهم أيّ رواية، وسوف أُرجع إليهم النقود التي تسلّمتُها منهم كسلفة مُقدَّمة عليها...

في اليوم التالي عرف رياض أنّ وصيّة جدّه قد قُرئت على العائلة، وأنّه حُرم كلّيّاً الإرث الذي حصره الجدّ في أعمامه وأبنائهم وحدهم. ذاك أنّه كان يرى في رياض، منذ سنوات طويلة، عاصياً أمر العائلة، وأنّه اختار لنفسه طريقة في الحياة لم يقرّه الجدّ عليها ولم يغفر له اتّباعها.

من هناك، من حيث اجتمعت العائلة لتقتسم الميراث، خرج رياض واتّصل بليان:

– حبيبتي، لا... لا تفعلي ما قلتِ البارحة إنّكِ ستفعلينه. آمل ألاّ تكوني قد محوت الفصل الثاني من جهاز الكومبيوتر. لقد فكّرت ثانيةً في الأمر ووجدت أنّ ما قلتِه عن جدّي وعائلتي ليس فيه ما يسيء بتاتاً، وهو طريقة أخرى في النظر والتأويل، إذ يصعب أن تستنفد المسألةَ، أيّ مسألة، طريقة واحدة. وبالمناسبة، أرجوك ألاّ تعيدي السِلفة الماليّة إلى دار النشر، فأنا مضطرّ أن أدفع لشركة الطيران ولمكتب السياحة كلفة رحلتنا إلى إيطاليا. الرواية ممتازة يا ليان، وجدّي، على أيّ حال، مات.

لا يكفي العداء للإمبرياليّة كي يُديم الغرام

لا يكره الإمبرياليّةَ أحدٌ كما يكرهها نجيب. يصفها بالخبث وباللؤم ويُضفي عليها من النعوت ما تنسبه ثقافات الذكور إلى النساء، كأنْ يكون كيدهنّ عظيماً. يسهّل ذلك أنّ لفظ "إمبرياليّة"، باللغة العربيّة، يؤنّثها ويجعلها تشبه نساء شرّيرات وساحرات غالباً ما سبّبن للأطفال الخوف والأرق. لكنّ نجيب كان أحياناً يستعين بعالم السيّارات في وصفها، كأنْ يشتهي تنفيس دواليب الإمبرياليّة، أو تفريغ بطّاريّتها، الأمر الذي ربّما نشأ عن افتراضه أنّ السيّارات صناعة إمبرياليّة كبرى ومعروفة وحاضرة في كلّ مكان، وأنّها قابلة للاستلهام لأنّ الجميع يعرفونها ويعرفون المصطلحات التي تتّصل بها.

وفي الحالات كافّة، يكاد نجيب لكثرة ما يستحضرها، يراها واقفةً أمامه، أو أنّها تسدّ عليه الطريق وتمنعه من زيارة أهله، ويراها خصوصاً تمدّ يدها إلى جيبه في غفلة عنه فتختلس نقوده القليلة، والنهب، كما نعلم، من عاداتها الراسخة. وهي تتبدّى له ناشطة في الشرّ، ما إن تفتح عينيها صباحاً حتّى تباشر التآمر. تنظر في المرآة إلى وجهها القبيح وتقول: سأتآمر عليهم واحداً واحداً، ثمّ تطلق ضحكة مرتفعة وعاهرة وصفيقة.

هكذا يتخيّلها نجيب من دون أن يكون قد أجهد خياله كثيراً. فأمر الإمبرياليّة واضح وضوح الشمس،

وأخلاقها عاطلة منذ نعومة أظفارها. إنّها يومياً تنفّذ سبعة مليارات مؤامرة، بمعدّل مؤامرة لكلّ إنسان يعيش على هذا الكوكب، وهذا فضلاً عن المؤامرات الكبرى على الشعوب والبلدان، ما يستدعي التخطيط المحكم والطويل الأمد.

لهذا، ما بين جدّ ومزاح، خطرت لنجيب فكرة اختبرها في أحاديثه مع رفاقه. فهو حين أجبرته ظروف العراق على الهرب إلى بريطانيا، ووضعته وجهاً لوجه مقابل الإمبرياليّة، رأى أنّه اقترب من مصادر قوّتها ونسغ حياتها المغذّي. هكذا قال لبعض أصدقائه: "لو أنّ كلّ مناهضيها يتّفقون، حين يغادرون بيوتهم، على ترك حنفيّات المياه مفتوحة. عندذاك تستنزف الإمبرياليّة من ظهرها عبر تجفيفها من ماء الحياة". لكنّ أصدقاءه رأوا في كلامه مزاحاً صرفاً لشابّ جاء من بلاد النهرين، حيث التفكير في المياه يتقدّم كلّ تفكير. وهم ضحكوا، وهو شاركهم الضحك بعدما لفتوا نظره إلى أنّ تطبيق هذه الخطّة يجعل المياه تغمر بيوت المناهضين للإمبرياليّة وتتلفها بيتاً بيتاً، فضلاً عن أنّ فواتير مياههم، والحال هذه، لن تكون أقلّ من نكبة ماليّة لا يقوون على احتمالها. لكنّ هذه أيضاً لها حلّ، كما قال نجيب بين جدّ ومزاح: ذاك أنّه حين تأتي أدوات القمع لتحصيل فواتير الماء، تكون كلّ الاستعدادات موضوعة لتفجير الثورة في وجوههم. وضحك الجميع ثانية وشاركهم نجيب ضحكهم بشيء من التردّد والمسايرة.

وهو اغتاظ كثيراً حين اكتشف مطعماً لـ"ماكدونالدز" في لندن. وأيضاً بين الجدّ والمزاح، اتّهم الإمبرياليّة التي "فتحت المطعم" بأنّها لم تكتف بأكل لحومنا، بل باتت ترغب في أكلها بسرعة كي تلتهم أكبر كميّة في أقصر وقت. وقد ظلّ نجيب مع كلّ احتكاك يحتكّه بما يظنّه وجهاً أصيلاً من وجوه الإمبرياليّة يلجأ إلى خزّان من الصور العميقة التي أتى بها من العراق، المنبع العظيم للأسطورة وللتخييل. لكنّ الحدث الذي أشعل مخيّلته بعدما هزّه كما لم يهزّه حدث سابق، كان مشاهدته بطاقات الائتمان التي تدرّ مالاً على حاملها ما إن يُدخلها في آلات بدأت تنتشر في الشوارع. وهو ما فسّره، بين جدّ ومزاح كذلك، بأنّه يدلّ على كميّة الأموال التي سرقتها الإمبرياليّة من بلداننا إلى حدّ أن جدرانها باتت محشوّة بالفلوس، فيكفي أن تضرب فيها البطاقة البلاستيكيّة حتّى تتدفّق النقود. وراح نجيب يردّد هذه الصورة حتّى كاد الجدّ فيها يطغى على المزاح، بينما ساورتني الشكوك في أنّه يحاول، في غفلة عن الناس، التلصّص على تلك الجدران وما وراءها لعلّه يكتشف طريقة الاشتغال الجهنميّ لتلك الآلة العجيبة.

وهو استمرّ يردّد حكمته هذه إلى أن التقى بعراقيّ مُسنّ وصل إلى بريطانيا للعلاج، وكان يشاركه الكراهية للنظام القائم في بلاده، لكنه يفضّل البديل الملكيّ الموصوف بالعمالة للإمبرياليّة، لا البديل الاشتراكيّ. فحين عرض نجيب ما تصوّره عن بطاقات الائتمان،

ضرب أبو كريم يده على الطاولة معترضاً: "هذا ليس صحيحاً على الإطلاق، والله هم أشرف منّا بكثير. لقد أعطى الإنكليز ابني كريم بطاقة مثلها بعدما اكتشفوا نزاهته في العمل وحسن أخلاقه، وقالوا له: يا كريم، اضرب هذه البطاقة في أيّ حائط تشاء وخذ ما تحتاجه من فلوس، لكنّ ابني الذي لا يضربها إلاّ مرّة في الأسبوع، لا يأخذ ديناراً واحداً فوق حاجته. إنّه يأخذ حاجته فحسب".

ولم يشأ نجيب أن يردّ على أبي كريم مراعاةً منه لفارق السنّ، لكنّه رأى كلامه بورجوازيّاً صغيراً ورآه أداة احتياطيّة للثورة المضادّة، حاسماً بامتناعه بعد اليوم عن مجالسة أشخاص ذوي أفكار يمينيّة كهذه.

في هذه الغضون، تعرّف نجيب إلى فتاة يساريّة بريطانيّة اسمها جاين، وجد أنّها تتّفق معه في كراهية الإمبرياليّة، لكنّها تخالفه في بعض التفاصيل المهمّة. فجاين كانت تجمع بين يساريّتها وبين كونها بيئويّة خضراء، وهو ما لم يكن نجيب قد سمع به من قبل. وهي لئن رأت نظريّاته التي يردّدها بين جدّ ومزاح، مع رجحان ضمنيّ للجدّ، تبسيطيّة في إدراك معنى الإمبرياليّة، أفهمته أنّ ساحة المعركة الأبرز ضدّها هي الطبيعة وتلويث البيئة. فهناك، كما قالت، تُجنى الثروات الهائلة، وهناك يُعتدى يوميّاً على حاضرنا ومستقبلنا، وعلى توازن الأرض، بل صحتنا نفسها. وكانت الصورة

التي تقدّمها، رداً على صورته، أنّ "ماكدونالدز" لا تأكل لحمنا بسرعة لكنّها ببطء تسمّم اللحم الذي نأكله.

وأنصت نجيب إلى جاين مرّة بعد مرّة، وبدا متعاطفاً مع ما تقول، لكنّه لم يتصوّر نفسه يطارد الإمبرياليّة في الطبيعة، ويَعدّ انبعاث الغازات أو يغتاظ للتلوّث في إنكلترا التي لا يشتهي لها إلاّ أن تتلوّث أكثر.

وبالفعل، نشأت بين الاثنين علاقة لطيفة كان يعكّرها أحياناً تباين في الثقافة والتجارب التي صدر كلّ منهما عنها، لكن الحبّ الذي كان ينمو بينهما تكفّل بتذليل تلك المشكلات.

شيء واحد لم يستطع حبّهما أن يبدّد الخلاف حوله: إنّه المواعيد. فهي تتأخّر نحو ساعة، وأحياناً أكثر من ساعة، عن أيّ موعد تضربه مع نجيب. أمّا السبب، فإنّها كلّما سارت في الشارع آتيةً لملاقاته عثرت على قنينة بلاستيكيّة مرميّة على الرصيف، فحملتها وأعادتها بضعة أمتار إلى الوراء كي ترميها في سلّة المهملات. بعد ذاك تتقدّم أمتاراً أخرى فتلقى قنينة بلاستيكيّة، فتعود إلى حيث سلّة المهملات قبل أن تعاود التقدّم من جديد. هكذا كانت جاين تراوح طويلاً في مكانها نفسه قبل أن تصل إلى حيث ينتظرها نجيب بتوتّر راح يوماً بيوم يزيد ويتصاعد.

وكان للتوتّر هذا أن انفجر مشادّةً بينهما لم يصمد أمامها حبّهما. فهو سألها بحدّة وباتّهام: "ألا تشكّين أبداً في أن تكون الإمبرياليّة قد نصبت لكِ فخّاً بهذه

القناني؟ هل يعقل أن تكون الثوريّة ساذجة إلى هذا الحدّ، تصرف وقتها كلّه على هذه التفاهات؟".

وفاض الغضب بجاين: "إلى متى هذا التبسيط الأبله في نظرتك إلى الإمبرياليّة؟ مرّةً تقول إنّ جدرانها محشوّة بالفلوس، ومرّةً تفترض أنّ إسقاطها يتمّ بفتح حنفيّات المياه في البيوت... حتّى لو كنت تمزح، فإنّ تكرارك هذا المزاح يدلّ على جدّيّة بلهاء آن الأوان أن تتخلّص منها".

وبصوت الكرامة الذكريّة الجريح، ردّ نجيب: "إذاً، كلامي عن الإمبرياليّة تبسيط أبله، وكلامك عنها هو الكلام العلميّ؟ أتريدين للجماهير أن تصدّق أنّ أخطر ما تفعله الإمبرياليّة هو نثر القناني البلاستيكيّة على الأرصفة، وأنّ أعلى درجات النضال ضدّها هي جمع تلك القناني! النضال ضدّ الإمبرياليّة سجون ومشانق يا جاين، إنّه فقْء أعين وقطع ألسنة وصبّ باطون على المناضلين الأحياء، لا جمع قنانٍ بلاستيكيّة".

وإذ أشعرها كلامه بدوار رافقه تعرّق بارد، انتقل نجيب إلى مونولوغ حزين إنّما غاضب: "لقد دمّرتِ سنة من حياتي بالحديث عن البلاستيكيّات، وكنت تشرحين لي كلّ وجه من وجوه خطرها كأنّك تريدين تحويلي إلى خبير في البلاستيك، وفي عزل الحرارة وتلوّث التربة والهواء والماء وإعاقة نموّ النبات وتسميم الحيوان، حتّى بتُّ مطالَباً أن يكون لديّ موقف من صناعة ألعاب الصغار، ومن تخزين الدهون والإصابة

بالسرطان والتأثير في الإجهاض وخفض بعض الهرمونات وإفساد مناعة الأطفال. يا لله! وأسوأ من هذا كلّه ما يحدث كلّما ذهبنا لشراء حاجيّات ترفضين وضعها في كيس. لقد رأيتِ بعينيك ما حدث لي آخر مرّة تبضّعنا حين فقدتُ السيطرة على علبة البيض التي انكسرت وغطّى بيضها نصفي الأسفل فيما يداي الاثنتان مشغولتان بالإمساك بباقي الأشياء التي أحملها حتّى لا تسقط هي الأخرى. كان مشهداً مضحكاً للناس ومهيناً لي، مشهداً لا يؤذي الإمبرياليّة بشيء بل يعرّضني لسخريتها ولقهقهتها اللئيمة. ما تفعلينه مهزلة يا جاين، وقد آن الأوان أن تنضجي وتغادري سخافاتك هذه".

كانت تلك المشادّة، على سخونتها، تنطوي على شفقة متبادلة، والحبّ والشفقة ضدّان. هكذا اختار كلّ منهما أن يسير في طريقه: جاين مضت تطارد القناني البلاستيكيّة على الأرصفة، ونجيب مضى يحلم بالعودة إلى العراق حيث النضال الجدّيّ ضدّ الإمبرياليّة.

وصلت نضال كمن يحطّ على الأرض بعد طيران: "لقد زال كلّ خطر، لقد ربحنا المعركة"... ثمّ اقتربت من أبيها الجالس في الصالون، صافناً في الفراغ بالبيجاما والروب اللذين يدسّ جسده المتضائل فيهما، وأعطته الأوراق التي طبعتها. وبحماسة مسكونة بالثقة، قالت له إنّ الخلاص بات مضموناً، ثمّ غمرته وراحت تقبّله.

الوالد، الذي بدا كمثل من يفيق من نوم عميق، تناول منها الأوراق، وقبل أن يبدأ القراءة لاحظ اسم "هآرتز" في أعلى الصفحة: ما الذي جعل ابنته تحمل أوراقاً مطبوعة لقطعة منشورة في صحيفة إسرائيليّة؟ هل أقرّت إسرائيل بهزيمة كبرى لحقت بها؟ وأيّ هزيمة هي هذه التي حدثت من دون أن يسبقها ما يشير إلى حرب أو معركة أو حتّى توتّر حدوديّ؟

لكنّ بصره ما لبث أن وقع على العنوان: "السرطان انتهى وصار من الماضي"... وإذ راح يقرأ، فهم أنّ طبيباً إسرائيليّاً اكتشف دواء يقضي نهائيّاً على السرطان، وأنّ هذا الدواء جُرّب على مرضى من الجنسين، متعدّدي الأعمار، ومصابين بأنواع مختلفة من ذاك المرض القاتل. وهؤلاء الذين جُرّب الدواء الجديد عليهم بلغ عددهم 600 شخص توزّعوا ما بين تلّ أبيب ونيويورك وبوسطن ولندن وطوكيو وجوهانسبورغ، وهم كلّهم تماثلوا للشفاء. وبعدما ذكرت الصحيفة أنّ كلّيات الطبّ

في الجامعات الإسرائيليّة هي التي أنتجت هذا الدواء الذي سيباع بسعر زهيد، أنهت قطعتها بأن باركت للمرضى هذا الإنجاز الكبير، معلنةً أنّ على الإنسانيّة بعد اليوم أن تتأهّب لمواجهة متاعب وأمراض أخرى، فالسرطان صار وراءنا.

نضال، التي كانت ترمق أباها فيما هو يقرأ، لاحظت أنّ انفعاله ظلّ مضبوطاً وتعابيره ظلّت مقتصدة.

– ماذا تقول؟ أليس الأمر مدهشاً؟

– لكنّه دواء إسرائيليّ يا نضال...

قالها الأب كمن لا يعرف عمّا يتكلّم، أو كأنّه يهذي في تأويل عالم مستغلق.

– وماذا إذا كان إسرائيليّاً! هل تفضّل الموت على تناول دواء إسرائيليّ؟ هذا دواء وليس سلاحاً...

طالت صفنة الوالد فيما نضال متحرّقة أن تسمع تعليقاً منه. وفجأة، وبصوت منخفض ومتردّد:

– هل نسيتِ أنّني واحد من رموز حركة المقاطعة لكلّ سلعة إسرائيليّة؟ هل نسيت أنّني شهّرتُ بكلّ من شوهد وهو يتحدّث إلى إسرائيليّ، وأنّني عطّلت ترجمة كتب لكتّاب إسرائيليّين، وحفلات غنائيّة وموسيقيّة لمجرّد أنّ الفنّان مرّ مروراً بإسرائيل؟

– لكنْ ما الذي يمنع أن تستفيد من دواء إسرائيليّ يستطيع أن يردّ لك الحياة؟ لا بدّ من مصارحتك بالحقيقة كما أسرّ بها أطبّاؤك، وهي أنّ حياتك المتبقّية ستقتصر على بضعة أشهر! ليكن الدواء إسرائيليّاً أو أيّ

شيء آخر، فإنقاذ حياتك يفوق كلّ اعتبار. أليس حراماً أن تموت وأنت في الثالثة والأربعين لأنّك لا تتناول دواء إسرائيلياً؟

الوالد المرتبك طلب من ابنته الشابّة أن تهدأ قليلاً وأن تمنحه مهلة للتفكير، لكنّ في هذه اللحظة بالذات رنّ جرس الهاتف، فإذا به طبيبه الدكتور رياض الذي سمع صوته في البيت كلّه كما لو كان جرساً:

– مبروك. ألف مبروك. الأخبار ممتازة يا عزيزي عمر. لقد انتهى السرطان...

– علمت بالأمر لتوّي...

– الحكومات العربيّة أعلنت نيّتها عقد اجتماع طارئ تعلن فيه استثناء الموادّ الطبيّة الإسرائيليّة من المقاطعة.

ومع انتهاء المكالمة، التي لم تنجح في زحزحة عمر عن هدوئه المتربّث، دخل نجله جهاد الذي عرف بالخبر في جامعته فهرع إلى البيت وقال لأبيه بأعلى صوته:

– الحمد لله على السلامة. لقد انتهينا من هذه المحنة التي استهلكت سنة من أعمارنا...

وإذ اقترب من الأب يحاول تقبيله، ردّ الوالد:

– لكنّه إسرائيلي يا جهاد...

– حياتك قبل أيّ شيء آخر...

– وماذا لو اخترع الإسرائيليّون في الغد دواء للإيدز؟ هل يشتريه أيضاً مرضانا بالإيدز؟ المسألة

ليست بهذه البساطة يا جهاد، وهي قد تفتح الباب أمام تنازلات كثيرة...

– هذه ليست تنازلات. أن يحافظ واحدنا على حياته فهذا أهمّ من السياسة وحساباتها...

– دائماً كان خصومنا يقولون كلاماً كهذا: مرّةً بحجة الحياة، ومرّةً بحجة الفنّ والثقافة، ومرّةً بحجة الحرّيّة الشخصيّة... ودائماً كنّا نسخّف أقوالهم ونقول إنّ العداء لإسرائيل يأتي أوّلاً وأخيراً، ثمّ ماذا أقول لرفاقي في حركة المقاطعة: هل أقول إنّ حياتي استثناء على القاعدة؟ ماذا أقول للشبّان الصغار من أمثالك ممّن أقنعتهم بأهميّة المقاطعة والانخراط فيها؟

– ما داموا من أمثالي، فإنّهم سيقتنعون. فأنا، كما ترى، مقتنع بضرورة شراء الدواء...

– أنت لأنّك ابني، ولأنّ حياتي تهمّك أكثر ممّا تهمّك المقاطعة...

الأمّ التي وصلت في تلك اللحظة إلى المنزل وجدت نفسها أمام مشهد غريب: نضال وجهاد يغمران أباهما ويحاولان حمله على القبول فيما هو جامد كلوح ثلجيّ. وإذ استفهمت عن الأمر، ركضت نضال باتّجاهها وروت لها باختصار قصّة الدواء الإسرائيليّ، متأكّدة من أنّها ستضمّ صوتها إلى صوتَي نجليها في الضغط على الأب المتردّد. والحال أنّ ذلك بدا لهما من قبيل تحصيل الحاصل، خصوصاً أنّ أمّهما لم تكترث مرّةً للسياسة، كما كانت تصف الحماسة للمقاطعة بأنّها هَوَس غير مفهوم.

لكنّ نهلة جلست على الكرسيّ الأقرب إليها وطلبت من خادمتها السريلانكيّة التي في المطبخ أن تأتيها بكوب ماء وأن تحضّر لها فنجان قهوة. وإذ اندمجت نهلة في صمتها وجعلت تتأمّل زوجها من بعيد، راح نجلاها يلحان عليها أن تقول شيئاً يقوّي حجّتهما.

وبعد ربع ساعة من الصمت غير العابئ بتوتّر نجليها وبإلحاحهما، تحدّثت نهلة:

– لا شكّ أنّ الخبر عظيم يُفرح كلّ مريض بالسرطان ويُفرح أهله، لكن وضعنا وضع خاصّ. أنتم جميعاً تعرفون أنّني لم أكن مرّة ممّن يحبّون السياسة والمقاطعة وكلّ هذا الهراء، لكنّ عمر، أباكما، قضى نصف عمره في هذا النشاط، وبنى أمجاداً كثيرة عليه. وأنتم تعرفون أنّ كثيرين ممن يحبوننا ويحترموننا اليوم إنّما يفعلون ذلك تقديراً منهم لدوره في المقاطعة.

وصمتت نهلة للحظة وسط اندهاش ابنيها، ثمّ أضافت:

– الدواء سيمنحه الحياة، لكنّها ستكون حياة تجلب العار عليه وعلينا جميعاً. ماذا سيقول الجيران؟ ماذا سيقول أهل الحيّ؟ ماذا سيقول الكتّاب الذين كان يشتمهم لأنّهم لا يلتزمون المقاطعة؟ ماذا سيقول رفاقه في هذه المقاطعة؟ ماذا سيقول رفاقكم أنتم في الجامعة؟

وإذ بدأت نهلة تنفعل وهي تتحدّث، رفع جميل صوته للمرّة الأولى:

– أنتِ يا نهلة تريدين لي أن أموت. متى كان يهمّك رأي المناضلين في حركة المقاطعة؟ أعرف أنّك تكرهينني وأنّكِ كنت دائماً تكرهينني وترين أنّني أستبدّ بك ولا أعاملكِ كما ينبغي أن يعامل زوج زوجته. أتظنّين أنّني لم ألاحظ كيف اختلفتْ حياتك منذ أقعدني المرض قبل عام؟ أتظنّين أنّني لا ألاحظ كيف بتِّ تتصرّفين من دون استئذاني، وكيف بتِّ تبالغين في الاهتمام بمظهرك كما تبالغين في ما تسمّينه زيارات وواجبات خارج البيت؟ أنتِ تستعملين المقاطعة ضدّي كي أرفض الدواء الإسرائيليّ وأموت. هذا واضح في سلوكك...

وبينما كان الحرج والضياع يدفعان بنضال وبجهاد إلى مشيٍ متوتّر داخل الغرفة، رفعت نهلة رأسها وقالت:

– أنت يا عمر منعتني من الكلام أمام الناس لأنّ كلامي يُحرجك، ومنعتني من زيارة أهلي، ومنعتني من مصادقة بعض صديقاتي، وكنتَ كلّما أنفقتَ قرشاً عليّ، تذكّرني به مئة وثلاثاً ورباعاً. لم تكن تسمح لي بالعمل رغم شهادتي الجامعيّة، ورغم أنّ جهاد ونضال كبرا ولم يعودا في حاجة إليّ... فقط حين أقعدكَ المرض وجدتُ لنفسي عملاً أحسّ أنّه الشيء الوحيد في حياتي الذي يحبّني بقدر ما أحبّه... لقد كنتَ دائماً تقول: إمّا نحن وإما إسرائيل، وأنا بصراحة تامّة أقول لك: إمّا حياتي أو حياتك.

وانسلّت نهلة إلى غرفتها موحيةً أنّها ستجمع أغراضها تمهيداً للرحيل.

إيّاك أن تسأل منيب عن رواية قرأها أو فيلم سينما شاهده، خصوصاً إذا كان قد أحبّهما. ذاك أنّ منيب يروي أدقّ التفاصيل، فلا يترك شاردة أو واردة يتذكّرها منهما إلاّ ويسردها. وللأسف، فإن ذاكرة منيب قويّة ولسانه طلق.

وهذا ليس حكماً عليه ألقيه جزافاً. فأنا هنا سأورد مَثلين عمّا أقصد:

منيب إذا شاء، مثلاً، إخبارك أنّ فلاناً ذهب من بيته إلى عمله، قال لك إنّ ذاك الفلان لبس ثيابه ونزل إلى الشارع فوقف على الطريق وبدأ يسأل السائقين، فإذا التقى واحداً منهم بادره: هل أنت تاكسي أم سرفيس؟ وبعد أن يجيبه السائق بكذا وبكذا يصعد، أو لا يصعد، في سيّارته. وهكذا دواليك إلى أن يوصل السائقُ بطلَه إلى مكان عمله.

أمّا إذا أراد أن يخبرك عن اتّصال بين اثنين لبتّ أمر ما، قال إنّ فلاناً ضرب بالتليفون رقم فلان، فردّ الثاني على مكالمة الأوّل، فبادره الأوّل بـ"ألو" ليجيبه الثاني بـ"ألو"، فسأله عن حاله فأجابه بسؤال مقابلٍ عن حاله هو. وعلى هذا النحو تمضي الرواية حتّى نهايتها المنشودة.

وكما نلاحظ هنا، لا يضيف التفصيلُ أيّ معنى على الإطلاق، كما لا يضفي أيّ صورة أو تلوين أو نكهة. فهو

ليس البثة من نمط التفاصيل المحبَّذة في الأدب أو الرسم، ولا حتّى من نوع التكرار الكلثوميّ حيث تختلف العبارة كلّ مرّة عن سابقتها المماثلة.

والأنكى من ذلك أنّ منيب أحياناً ينسى تفصيلاً هو شديد الحرص عليه، وهو دائماً حريص على جميع تفاصيله، فيقطع سرده ويروح يتحزّر: هل وضعَ يده على كتفها اليمنى أو على كتفها اليسرى يا ترى؟ ثمّ يخاطب نفسه: أين وضعتَها يا منيب؟... وعلى هذا النحو، يروح يعصر ذاكرته ويعصر روحك في الوقت نفسه إلى أن يستقرّ على جواب قاطع يتباهى بتقديمه إليك. فإذا لم يستطع حسم الأمر، أكمل قصّته بنصف يقين، لكنه في الخاتمة عاد يتحزّر من جديد إلى أن يأتيك باليقين الكامل والشافي الذي لا يقبل الشك.

وهو قد يضيف إلى تفاصيل ما حدث تفاصيل ما لم يحدث، أو ما كان يمكن أن يحدث. فقد يقول فيما هو يروي قصّة انتقال فلان من مكان إلى مكان: تأملوا لو لم تحضر سيّارة في تلك اللحظة... كان سيحدث كذا وكذا... وبهذا، نجدنا أمام سرد موازٍ للسرد الأصليّ لا يقلّ عنه غنى بالتفاصيل.

وقد ينتابك، وأنت تتقلّب على جمر اليأس والاستسلام، أنّ منيب قد لا يكتفي بما يورده من تلك التفاصيل المضنية. فهو، مثلاً، حين يقول إنّ صاحبه لبس ثيابه، يدبّ في أوصالك الخوف من احتمالات غير محسوبة. فهو قد يُكمل بأنّ ذاك الصاحب لبس القميص

الفلانيّ الذي اشتراه من المكان الفلانيّ بالسعر الفلانيّ، ثمّ يروي الشيء نفسه عن البنطلون، وهكذا دواليك قطعةً قطعةً من ملابس صاحبه.

والتفاصيل تُخلي مكانها في مرّات كثيرة للبديهيّات. فإذا كانت قصّة منيب من صنف اقتصاديّ، قليلة الأفعال والأدوات التي تتيح الإسهاب، عوّض عن ذلك بحِكَم غريبة يقولها بعد صفنة تأمّل، من نوع أنّ احتساء البيرة الباردة في الصيف الحارّ ألذّ مذاقاً من شرب البيرة الساخنة، أو أنّ الربيع ألطف وأشدّ اعتدالاً من الشتاء خصوصاً إذا أتى الشتاء عاصفاً. وقد نسب إليه صديق على شيء من الخبث أنّه قال، تفادياً منه لأدنى خطأ محتمل، إنّ عشرة عصافير في اليد خير من عصفور واحد على الشجرة.

فالاستماع إلى منيب، إذاً، مهمّة تستدعي صبراً من نوع أيوبيّ. فهو مرّة أخبرني عن رحلة إلى الخارج زار خلالها حديقة حيوانات، فذكر أنّه رأى فيها الأسد والنمر والفهد والضبع والذئب والثعلب والنعجة والقرد، ومضى يعدّد. وهي عادةٌ كلّفته بعض الزبائن ممّن كانوا يتردّدون على متجره للألبسة. فأنا شهدته بعيني وهو يشرح لأحد الزبائن عن موسم تخفيضاته البالغة نسبتها 50 في المئة، في انتظار أن يعرض ألبسة جديدة للموسم المقبل. هكذا تحدّث في ترويجه أسعاره الجديدة: "كلّ شيء صار بنصف سعره الأصليّ. ما كان ثمنه 200 صار 100، وما كان ثمنه 50 صار 25، وما كان ثمنه 40 صار

20، وما كان ثمنه 30 صار 15، وما كان ثمنه 19 صار 5.9"، وعند تلك المحطّة، اضمحلّ الزبون.

وأنا، والحقّ يقال، لا أملك في العادة إلاّ القليل من هذا الصبر. وغالباً ما أضبط نفسي في استعجال يكلّفني إهمال أشياء ضروريّة كثيرة، أو ارتكاب أخطاء كان ممكناً تفاديها، علماً بأنّني كثيراً ما أكتشف أنّ ما من شيء فعليّ أنا مستعجلٌ عليه، لكنّ بطء منيب شيء ووصفه شيء آخر. فهو كلّما تحدّثَ أروخ أقول في نفسي: أسرغ –أيّها الوقت– أسرغ، خذنا إلى أيّ مكان، خذنا حتّى إلى الموت. وقد راودني غير مرّة أن أقول له: أسرغ أسرغ... يا منيب، أو: وماذا بعد، أو: وكيف انتهت القصّة؟، لكنّني، من قبيل التهذيب، لم أتجرّأ ولم أقل له عبارة كهذه إلاّ مرّة واحدة كانت الدوخة فيها قد تمكّنت منّي. وفي تلك المرّة اليتيمة، استمرّ منيب في تفاصيله كأنّني لم أقل شيئاً، أو كأنّ انسحاره بتفاصيله منعه من أن يسمعني.

مجرّد تفاصیل

طريق اللوتو الموصد

في عهد الشباب المبكر، لم يكن هناك لوتو. كان اليانصيب وحده ما نعرفه أوراقاً ملوّنة تباع في شوارعنا، لكنّني كنت واحداً من أولئك الكثيرين الذين يجهرون بكرههم اليانصيب. أمّا نعته بـ"الوطنيّ" فبدا لنا، نحن الذين يكرهونه، برهاناً آخر على فقر الوطنيّة اللبنانيّة وخوائها وطواعيّتها لكلّ استخدام وضيع. ذاك أنّ الأرزة وقلعة بعلبك وسواهما من رموز توصف بالقداسة إنّما تُسلّع ملصقاتٍ على الطرقات بما يؤكّد قولنا إنّ البورجوازيّة لا تفهم الوطنيّة إلاّ كسباً وغنماً. وكنت، حينذاك، أردّد، في هجاء اليانصيب، حججاً لا أذكرها اليوم بالتفصيل، لكنّها تشبه القول إنّه يضع الصدفة محلّ القانون، كما يُحلّ الوهم محلّ الواقع، جاعلاً مَن يتعاطاه يتشاطر بالخلاص الفرديّ على قوانين التاريخ الصارمة التي أُلمّ بها إلمام الخبراء المحلّفين. وربّما كنت أقول أيضاً إنّ اليانصيب مشاركة في نهب فائض القيمة الاجتماعيّ، والمنهوبون، بالطبع، الكادحون.

وقد يكون في هذه الأحكام بعض الصحّة لكنّها على العموم ثقيلة الدم، عديمة الانتباه إلى سيكولوجيا الأفراد ورغباتهم الملتوية والمداورة، أو ما يسمّيه بعضهم طبيعتهم الإنسانيّة.

وأشدّ ما كان يفوت تحليلاتنا العظمى أنّ "الطبقة العاملة"، التي نزعم تمثيلها، أكثر الفئات انجذاباً إلى تخييل حياتها، وإحلال الوهم محلّ واقع مُزرٍ. صحيح أنّنا كنّا نحضّها على ألاّ تفعل، ونسألها أن تقارع الواقع بواقع بديل، لا بتعويض وهميّ عنه، لكنّ الصحيح أيضاً أنّنا كنّا بذلك نطالبها بصبر أيّوب وبزهد المتصوّفين العتاة في وقت واحد، بحيث تتخفّف من كلّ عزاء، ولو مُتوهَّم، على مدى انتظارها قيام الثورة. فكيف وأنّ نُضجين لا بدّ أن يتحقّقا قبل ذلك: نضج العامل الموضوعيّ ونضج العامل الذاتيّ، كما ينبغي أن يلتقي النضجان في مكان ما فلا يضلّ أحدهما طريق الآخر!

هكذا لم يتكرّم أيٌّ منّا بشيء من التسامح مع ميل الطبقة العاملة إلى قدر من الاسترخاء، ومع تعلّق عابر قد تُبديه بـ"أوهام بورجوازيّة صغرى" تقيم على هامش الهدف الثوريّ الكبير في لحظات تعبه من الانتظار. لكنّ كائناً ما كان التحليل، راح بعض أصحابنا يفعلونها في السرّ، فيشترون ورقة من تلك الأوراق الملوّنة التي لا يكفّون عن شتمها. وهو ما لم أكن أرتكبه في بيروت. فحين كسب أبي، ذات مرّة، خمسة وعشرين ألف ليرة لبنانيّة حملتها إليه ورقة اشتراها، كان خوفي من التضليل الذي ينجم عن هذا الكسب أكبر كثيراً من فرحي به. لقد طاردتُ الفكرة وتركت أخي يستمتع وحده بعوائدها. لكنّ النفس الأمّارة بالسوء انفجرت فيّ حينما كنت في لندن. هناك أقمت في بيت قريب من

دكّان يبيع اللوتو، وكنت، كلّ ليلة سبت، أشاهد على التلفزيون ظهور النتائج التي تدسّ الملايين في جيوب الفقراء. وتلك كانت موضوعاً لترويج واسع يصعب أن يغمض المرء عينيه عنه، أو أن يواجهه بالتعالي. وقد درج التلفزيون وصحف التابلويد على استعراض هؤلاء الأغنياء الجدد واستصراحهم، ما يقطع باليقين كلّ شكّ قد يراود توما الذي هو أنا. وربّما قيل، عن حقّ، إنّ الآراء التي كانوا يدلون بها لا تشجّع أحداً على تقليدهم أو الاقتداء بهم، لكنّ وجودهم نفسه، لا آراءهم، كان يحمل على التقليد. وهل ثمّة من يبحث عن الأفكار والنماذج عند أغنياء اللوتو الجدد؟

هكذا طوّرتُ بيني وبين نفسي ردوداً على اعتراضات قد تنتصب في وجهي، ومن دون أن أُخبر أحداً بفعلةٍ كنت لا أزال أخجل بها قليلاً، تسلّلتُ إلى ذاك الدكّان فتعلّمت كيف أملأ قسائم اللوتو بامتثال المصلّين في بيوت العبادة. وأسبوعاً بعد آخر، رحت أواظب على تلك الزيارة التي تكشّف عنها عالم سحريّ خالص. لكنْ قبل السحر، لا بأس بقليل من الحقيقة. فهناك، في حضرة اللوتو، تعوّدت الوقوف في الصفّ أنتظر دوري بين أفراد من أهل الحيّ الذين ينتظرون أدوارهم أيضاً. ومرّة بعد أخرى، بتّ أعرف وجوه معظمهم: الزوجات اللواتي انتهت زيجاتهنّ إلى عائلات مكسورة هيمن البؤس والشقاء عليها، فعوّلن على الخلاص باللوتو، والسكارى الذين يميلون بأجسادهم ويسندونها عليّ أو على سواي،

وهم واقفون ينتظرون دورهم، ومع الدور ينتظرون فردوساً في آخر النفق، فيما تنبعث منهم رائحة خمر وتبغ وعرق يصعب احتمالها، لا سيما في الصباح.

أمّا في مجال الانسحار، فكنت لا أكفّ عن مساءلة نفسي: لماذا يشتري هؤلاء اللوتو ويبدّدون أموالهم القليلة، فيما المؤكّد أنّني من سيكون الرابح؟ وأحياناً كنت أتذكّر مقامر دوستويفسكي، المدرّس الروسيّ أليكسي إيفانوفيتش، وقناعته بأنّه سوف يكسب كلّ ما هو مطروح على طاولة القمار. ووفقاً للقناعة هذه، كنت أتصرّف، على مدى الأسبوع الذي يفصلني عن موعد السحب المقبل، بوصفي غنيّاً. وكغنيّ، كنت أروح أنفق بما يفوق طاقتي الفعليّة على الإنفاق، بل كنت أحياناً أتمنّع عن متابعة نتائج السحب وقت ظهورها، فأترك الأمر يوماً أو يومين بما يُطيل لذّتي ويُبقيني أطول مدّة ممكنة عائماً على الملايين. لكنّني كنت، في أحيان أخرى، أذهب أبعد من ذلك في مداعبة أوهامي، فأوزّع، بيني وبين نفسي، بعض الثروة التي سأجنيها على أشخاص أحبّهم.

وفي هذه الغضون، أجد نفسي أواجه أسئلة من نوع: هل أقسم المبلغ الأصليّ بيني وبينهم، وهذا هو السلوك اللائق، أم أبقيه موحداً بيدي كي أضمن الحصول على فوائد أعلى فيما أوزّع عليهم شهريّاً بعض تلك الفوائد؟ لقد بدأت تتسلّل الحسابات إلى العلاقة التي يُفترض أنّ الحسابات لا تداخلها. وهذا معطوفاً على مفاضلات

صرت أجريها بين صديق وآخر، وبين صداقة وأخرى، كي أرصد المبالغ المناسبة التي سأوزّعها. وكما في كلّ مفاضلة، يتذكّر المُفاضل في صديقه نواقص أو إساءات كان قد نسيها، قياساً بصديق آخر لم تبدر عنه نواقص وإساءات مماثلة. لكنّ الورطة تتجدّد هنا أيضاً، إذ ماذا لو عرف فلان أنّني أعطيت علاّناً أكثر ممّا أعطيتُه هو، علماً بأنّه يظنّ أنّني أحبّه أكثر ممّا أحبّ علاّناً؟ فوق هذا، كانت كلّما تحسّنت علاقتي بالآخرين أو ساءت، زدت أو أنقصت المبلغ الذي سأهديهم إيّاه. وأحياناً كان ينتهي الأمر بي نهاية مزعجة، إذ أوزّع المبلغ كاملاً ولا يبقى في يدي شيء منه.

وعلى العموم، كانت هذه الأسئلة تُشعرني بشيء من اليأس حيال العمليّة برمّتها، أو بأنّني مُقبل على تردٍّ سوف يقصف بعض علاقاتي بأصدقاء لا أريد أن تُخدش علاقتي بهم.

وذات ليلة، حضر ما ينقذني من كلّ أنواع الحيرة التي ساقني اللوتو إليها.

لقد عرفت، مع إذاعة أرقام الفائزين، أنّني واحد منهم. والحال أنّ المبلغ الذي كسبته لم يكن كبيراً، ولا هو من النوع الذي يغيّر وضع صاحبه الاجتماعيّ، لكنّه، مع هذا، يعادل ما أكسبه من عملي في شهر كامل.

ورحت أبحث عن الورقة لأكتشف أنّها تُركت في جيب القميص الذي دارت به الغسّالة ألف دورة.

هذه الحرب على سجائري!

ما زرت مدينة إلاّ واجهتني فيها مشكلة السجائر والتدخين، حتّى إنّني لا أستطيع اليوم التفكير في المدن إلاّ مقروناً بتذكّر هذه المشكلة أو تلك كما عشتها فيها. وكثيراً ما قرّرت، ثمّ تراجعت، ألا أزور أيّ مكان ولا أصعد أيّ طائرة، وأنّني بمثل هذا الامتناع وحده أمارس حقّي ورغبتي المطلقين في التدخين. والحال أنّ وضعي هذا يذكّرني بأحوال الجيوش التي تتراجع أمام تقدّم جيوش أقوى، إلى أن تُحاصَر في رقعة جغرافيّة ضيّقة تُضطرّ فيها إلى الاستسلام، لكنّني عاهدت نفسي على ألا أستسلم.

مرّةً واحدة فحسب حملني الضعف على وقف التدخين، ومن أجل أن ألزم نفسي القرار كتبت في الصحيفة ما يفيد التعهّد بالطلاق مع السيجارة. مع هذا، لم يدم العمل بتعهّدي سوى يومين أو ثلاثة. فحين لمحني شابٌ عراقيّ في لندن سبق أن قرأ مقالتي قبل أن يراني حاملاً السيجارة بيدي، سمعته يعلّق مستاءً: "ويطلبون منك أن تثق بالإعلام العربيّ!".

لكنّ الأمر أبعد من ذلك: فإذا استسلمتُ وأقلعت فعلاً عن التدخين، أين أخبّئ وجهي عن عيني صديقتي ريم التي طلبت سيجارة وهي تلد ابنها في المستشفى؟ وكيف لا أكون خائناً لذكرى الصديق الراحل أبي حيدر الذي زرته إبّان مرضه، فسألني تزويده سيجارة، فما إن

شاهدته أمّ حيدر واستهولت واستفظعت حتّى أجابها، والبسمة الراضية على شفتيه: لقد أصابتني السيجارة بسرطان واحد، وهو لن يصير سرطانين.

الصديق الألمانيّ الذي عاش سنوات في الشرق الأوسط وافقني حينما قلت له إنّ شيئاً من الجنون يُبديه بعض الأميركيّين حين يقاومون التدخين مثلما يقاومون الشيوعيّة والإسلام. إنّهم يتصرّفون كمن يريد إحراق ما يرونه شرّاً واستئصاله من جذوره، أمّا الشرور، كما يصنّفونها، فتتساوى كلّها في نظرهم. لكنّه بعدما صمت قليلاً، قال: "نحن –في ألمانيا– لسنا مثلهم، لكنّنا لسنا مثلكم في الشرق الأوسط. فأنتم تنتظرون أن يولد طفل كي تقفوا فوق رأسه وتباشروا التدخين نافثين دخانكم على وجهه". ومع أنّ قوله أضحكني، فإنّه لم يخفّف حماستي للتدخين في كلّ أرض وتحت كلّ سماء.

بالأمس في باريس، وعلى جاري عادتي، كان السؤال الأول الذي سألته لعامل الفندق: أين يقع أقرب مقهى من هنا؟ ذاك أنّني حين أصحو فجراً أهرول إلى المقهى من دون أن أمشّط شعري أو أغسل وجهي. أضع ثياب الأمس عليّ كيفما اتّفق وأروح أسعى وراء القهوة والسيجارة سعي الغريق إلى الهواء. فأنا يزعجني كثيراً أولئك الذين يفيقون من النوم ويتّجهون إلى المطبخ كي يأكلوا. هؤلاء، في أحسن أحوالهم، أشخاص بلا مزاج، إذ كيف تنتهي نهاراتهم وقد بدأت بالفول

والمناقيش والأجبان؟ والشيء نفسه يقال في من يستيقظون ويباشرون الكلام أو يُظهرون حيويّة فائضة، فيذكّرونني بالعبارة الشهيرة لأوسكار وايلد: "الأبله وحده هو الذي يبدو لامعاً أثناء تناول الفطور".

في لندن مثلاً، وبعد مغادرتي المدينة، صرت حين أزورها أقصد المقهى المجاور لفندقي في السادسة والنصف صباحاً. أدخل بعدوانيّة مَن لا يريد أن يحدّثه أحد أو يحدّث أحداً، وأطلب من النادلة اللطيفة ستّة فناجين إسبرسو في كوب واحد.

النادلة تنظر إليّ باستغراب شديد كأنّني آتٍ من كوكب آخر. تتفحصني بسرعة طولاً وعرضاً وهي تبتسم لي ابتسامة من يشكّك في رجاحتي فيما ترغب، في الوقت نفسه، أن تتعاطف مع المرض الغريب الذي أتخبّط فيه.

أقول لها جازماً: "نعم، نعم، ستّة فناجين إسبرسو في كوب واحد"، ثمّ أحمل هذا الكوب إلى الخارج حيث البرد وشيء من العتم الذي خلّفه الليل وراءه. هناك أجلس وحدي وأجعل أدخّن وأدخّن بينما أحتسي قهوتي في خلوة تامّة صافية من أيّ همسة تعكّرها.

هذه ليست المفارقات الوحيدة التي أوقعني فيها التدخين. ففي واشنطن، وجدتني أقف، عند كلّ فجر، بين العمّال والعاملات الذين يدخّنون خارج الفندق وأغلبهم من الملوّنين الذين صار يربطني بهم اشتراكنا في مصيبة التهميش والاستبعاد. ومرّةً وصل إلى

الفندق زائر جديد فيما نحن متجمّعون على مدخله، فاختارني كي يطلب مني أن أنقل شنطته إلى الداخل، أو أن أساعده في إنزال والدته العجوز من السيّارة.

ومرّة أخرى، في نيويورك، كنت أسير في الشارع وأدخّن، فاصطدم دخان سيجارتي بوجه سيّدة تمرّ في مقابلي، وإذا بها تشتمني بصوت مرتفع ولئيم، وتتّهمني بأنّني أقتلها بـ"التدخين السلبيّ". والحقيقة أنّني تمنّيت في تلك اللحظة لو يتاح لي أن أربطها بقوّة على الكرسيّ وأحرمها كلّ قدرة على الحركة، وأروح أدخّن وأنفث دخاني في وجهها مثنى وثلاثاً ورباعاً إلى أن يتمّ نقلها مغميّاً عليها إلى المستشفى.

يصدر كلامي هذا عن موقع يصفه بعضهم بالتطرّف. وقد سبق لصديقي الذي هاجر ثلاثين عاماً لم أره خلالها أن لاحظ أنّ كلّ شيء فيّ تغيّر، من المظهر الخارجيّ إلى الأفكار والأحزاب، انتهاءً بالأصدقاء والصديقات، لكنّ التدخين بقي الثابت الوحيد. وأنا، في الواقع، لا أخفي تطرّفي في المسألة هذه. فحين كنت شابّاً، وكنت أدخّن الجيتان الفرنسيّ الذي يمقت رائحته كثيرون، كنت أُحكم إقفال غرفتي قبل النوم وأتأكّد من أنّ الشبّاك مغلق تماماً، ثمّ أجلس وأدخّن ثلاث سجائر متلاحقة كي أضمن أنّ يتنشّق أنفي تلك الرائحة وأنا نائم. والحقّ أنّني لم أعثر على تعريف للنّوم، ذاك الموت المقسّط، أكثر إقناعاً من أنّه عزوف اضطراريّ ومؤقّت عن التدخين.

وهذا ما يجعل انزعاجي من الحصار الذي يُضرَب علينا اليوم، تحت وطأة الثقافة الصحيّة المتنامية، انزعاجاً وجوديّاً. فنحن -المدخّنين- نتعرّض للاضطهاد، ونُحاصَر في بلد بعد آخر، لأنّ الحكومات تنوي تقليص فواتير الاستشفاء المدفوعة للمستشفيات. وذلك لا يلغي صوراً ملطّفة من الإزعاج نلقاها يوميّاً، كأنْ يعظك ناصح حكيم بضرورة وقف التدخين، مع أنّك أنت المعتدى عليه، أو كأنْ يبتسم لك الأب أو الأمّ ويقولان إنّ في بيتهما أطفالاً، ما يعني أنّ ضيافتهما لا تشمل حقّنا في التدخين. فكأنّه لا يكفي تحمّل وجود الأطفال معك في سهرة واحدة، وغزل الأمّ والأب بنبوغ طفلهما أو بجماله الفتّاك، كما لا يكفي اضطرارك أن تسايرهما وتوافق على ما يقولان بالابتسام المفتعل. فإلى هذه المعاناة المحضة كلّها يضاف منع التدخين، وهذا علماً بأنّ مجاورة الأطفال تحضّ على التهام السيجار التهاماً لا الاكتفاء بتدخين السيجارة النحيلة والقصيرة. وأسوأ الواعظين أولئك الذين يقولون إنّهم فكّروا في الأمر وانتبهوا إلى عبثيّته وضرره فأقلعوا، مستعرضين قدرتهم النابوليونيّة على صنع المعجزات أمام شخص مثلي لم يحبّ مرّةً قوّة الإرادة وفلاسفتها.

على أنّنا، كما يبدو الآن، نعيش عشيّة تحوّل مهمّ. ذاك أنّ المنع الذي وصل إلى بيروت سوف يسري فيها قريباً، ولسوف نطارَد هنا أيضاً مثل هنود حمر تسعى العنجهيّة والعنصريّة وراء فرو رؤوسهم. فالذين لم

يُسقطوا الطائفيّة بل عزّزوها، ولم يعطّلوا سبباً واحداً من أسباب الاحتراب الأهليّ، يستعرضون جبروتهم وبأسهم في مواجهة... سيجارة.

حسناً، سوف نكتفي –نحن المدخّنين– بأن نغنّي مع غلوريا غاينر "سوف أحيا"، أو نقول مع المتنبّي "كذا أنا يا دنيا"، ولسوف نردّد، شامتين مناكفين، تلك الدعابة الروسيّة عن البطل الخرافيّ نيكولاي الذي قيل أنّه لم يدخّن سيجارة واحدة في حياته ومات في أتمّ الصحة والعافية...

أطبّاء أسناني

تعود علاقتي بأطبّاء الأسنان إلى صغري. فقد كان قريبنا "الدكتور موسى"، أو "عمّي موسى" كما كنت أسمّيه، أوّل طبيب أسنان أعرفه. وهو، فضلاً عن لطفه غير العاديّ وخفّة دمه، كان يوزّع علينا –نحن أطفال القرية– ألواح شوكولا سوداء وحليبيّة. وأهمّ من هذا أنّه كان ذا صوت جميل وحنون، يُرفقه بالعزف على عوده الذي ما إن يغادر العيادة إلى بيته حتّى يتفرّغ له. أمّا أغنيته المفضّلة، التي كان بها يبدأ الغناء وينهيه، فـ"كلّ ده كان ليه" لمحمّد عبد الوهاب.

وأنا لم أعرف عمّي موسى على أنه طبيب أسنان، لأنّ أسناني آنذاك لم تكن تحتاج إلى طبيب، لكنّه حبّبني بتلك المهنة حتّى أنّني ظننت أنّ كلّ طبيب أسنان مثله، رقيق ولطيف ومغنّ وعازف عود، كما خِلت أنّ طبّ الأسنان ألطف مهنة يمكن لشخص أن يمتهنها.

ومرّت في النهر مياه آسنة وتزايد تدخيني وتراجع اكتراثي بأسناني فوقعتُ في قبضة أطبّاء عديدين، وكان عمّي موسى قد رحل عن هذه الدنيا، لكنّني لم ألتزم أحداً ولم أتورّط تورّطاً حصريّاً مع أيّ منهم. هكذا استمرّت العلاقة بهم على القطعة وبالمفرّق، فكنت أبحث عن واحدهم كلّما نزلت نازلة بأسناني، ثمّ أنساه وأبحث عن غيره مع تعرّض أسناني لنازلة أخرى. لكن الأمور تغيّرت مع هجرتي إلى بريطانيا، حيث على

المقيم هناك أن يرتّب أطبّاءه وينظّمهم مثلما يرتّب قمصانه وينظّم مواعيده، غير تارك للمصادفة أدنى مكان. وفي هذه الغضون، غدت أسناني أسوأ ممّا كانت عليه في بيروت، وغدوت أكثر احتياجاً إلى طبيب أتردّد إليه.

ولا أدري كيف قادتني الصدف، أنا الذي أهتمّ بالسياسة، إلى أطبّاء أسنان ثلاثة كلّهم، بطرقهم المختلفة، سياسيّون. فعلى مقربة من بيتي، كانت هناك عيادة لطبيب إيرلنديّ متعصّب لإيرلنديّته ويكره الإنكليز. ولا أزال أذكر زيارتي الأولى له التي أساءت إلى علاقتي اللاحقة به. فهو علّق في عيادته صورة كبيرة لرجل تبدو عليه المهابة والجلال، لكنّه حين سألني ما إذا كنت قد عرفت صاحب الصورة أجبته بالنفي. حينئذ، اكفهرّ وجهه وأجاب أنّه دي فاليرا، قائد النضال الوطنيّ الإيرلنديّ وأوّل رئيس لجمهوريّة إيرلندا التي أقيمت في الجنوب. وأنا كنت أعرف من هو دي فاليرا، لكنني لم أكن قد رأيت صورة له من قبل.

وتلك لم تكن بداية حسنة، إذ بدأ بعدها يحدّثني بشيء من العصبيّة والخشونة، أو يسألني بعدوانيّة أسئلة عن لبنان وأزمة الشرق الأوسط. ورحت ألاحظ أنّ الرجل يميل إلى عكس ما أقوله، من دون أن يكون بالضرورة مقتنعاً بما يقوله. فإذا قلت، مثلاً، إنّ إسرائيل تمارس سياسة عدوانيّة تجاه الفلسطينيّين، دافع عن إسرائيل بوصفها "الديموقراطيّة الوحيدة في الشرق

الأوسط"، وإذا قلت إنّ المطلوب حلّ سلميّ لنزاع الشرق الأوسط، قال إنّ هذا مستحيل في ظلّ الصهيونيّة.

إنّه يريد أن يناكفني فحسب، وأن يدفعني ثمن جهلي بصورة دي فاليرا الذي رآه جهلاً مقصوداً منّي بهدف الاستخفاف به وبقضيّة النضال القوميّ الإيرلنديّ.

وبعدما انتقلت إلى عيادة أخرى أبعد قليلاً اكتشفت أنّ الطبيبة التي تشغلها بولنديّة متزمّتة في كاثوليكيّتها. فهي تكاد تعبد البابا البولنديّ يوحنّا بولس الثاني، فيما تكنّ للألمان والروس كراهية عظمى. صحيح أنّ الطبيبة هذه رصّعت عيادتها بصور البابا، وهو يصافح كبار رجالات العالم، أو يلاطف الأطفال، أو يخطب في الجماهير، لكنّ عقلها بدا، مع ذلك، أكبر من عقل الطبيب الإيرلنديّ، وربّما أكبر قليلاً ممّا يجب.

فهي، مثل زميلها، كانت تجرّني إلى كلام سياسيّ، لكنّ حين كنت أقول لها، مثلاً، إنّني لست مولعاً بالبابا، أو إنّ الألمان والروس ليسوا كلّهم سيّئين، لم تكن تعادني وتتمرّن على كراهيتي. لقد كانت، في المقابل، تنظر إليّ برأفة وشفقة، كأنّني طفل لم يتعرّض بعد لتجارب الحياة ودروسها. وهذا، بدوره، صعب لأنّ الاستحمار ليس ممّا تُحمد عقباه، سيّما وأنّ توازن القوى في عيادتها محسومٌ أمره لها، هي صاحبة العيادة التي تطبّب، وأنا الضيف الذي أخضع لطبابتها.

وحينما تعبت من هذا الاستحمار المصحوب بالشفقة، اتّجهتُ إلى عيادة لطبّ الأسنان قريبة من المكتب، لا

من البيت هذه المرّة، لأعرف أنّ الطبيب عراقيّ. وبالفعل سرّني ذلك لاكتشف سريعاً أنّه مناضل في "حزب الدعوة" الإسلاميّ. لكنّ مشكلتي معه لم تكن في السياسة، بل في ميله الراسخ إلى أن يبسمل ويحمدل كلّما عالج ضرساً. أمّا حين يقلعه، فيروح يقلّبه بين أصابعه، متبسّماً ومردّداً ما يوحي بالإعجاز وكبائر الأمور. وهذا بقي ممكن الاحتمال، وأحياناً مثيراً للضحك المكتوم، لكنه كان يخيفني حين يكتشف في فمي ما يفترضه على شيء من الإعضال: في هذه الحالة كان يتراجع مسافة متر إلى الوراء وتجحظ عيناه ويتمتم، مرّة بعد مرّة كأنّه يطرد الشياطين، "العياذ بالله، العياذ بالله"، فيما يروح صوت كلّ تمتمة يرتفع عن صوت سابقتها. وأذكر أنّه استولد فيّ أقصى الرعب حين لم يتمتم ذات مرّة، بل قال "إنّ الله على كلّ شيء قدير".

هؤلاء جميعاً ودّعتهم في بريطانيا، لأقع في لبنان على الدكتور سليم، العونيّ الهوى الذي لم يتخلّ عن خلفيّته الشيوعيّة القديمة. وهو، بالطبع، من حقّه أن يكون ما يشاء أن يكونه، لكنّ ليس من حقّه أن يفتح فمي ويثبّت آلاته في داخله ثمّ يبدأ كلامه الذي يستفزّني فيما أنا عاجز عن الردّ. وأعترف بأنّني كنت، في هذه اللحظات من العجز، أتذكّر إحصائيّة سبق أن قرأتها تقول إنّ أطبّاء الأسنان، تبعاً للانقسام المهنيّ، أكثر مَن ينتحرون. وعلى هذا النحو، كنت أنتقم منه، إذ

أروح أتخيّل، فيما هو يتفاصح في السياسة، أيّ نوع من أنواع الانتحار سيختاره في غد قريب: إلقاء نفسه من هذا الطابق المرتفع، أو قصّ الأوردة والشرايين، أو طلقة في الرأس، أو بضع حبوب ينام بعدها نوماً أبديّاً؟

لقد عانيت فعلاً مع أطبّاء الأسنان، ولم تنته معاناتي إلاّ حين أخبرتني قريبة لي عن طبيب أسنانها وتكرّمت عليّ بطلب موعد لي، وهكذا كان. فالطبيب الجديد سبعينيّ من المدرسة القديمة، وهو لا يتحدّث بتاتاً في السياسة، بل لا يتحدّث في شيء إلاّ الأسنان. وعلى عكس معظم اللبنانيّين، لم يسألني من أين أنا، ولا سايرني بالإشارة إلى قريبتي التي كانت صلة الوصل بيننا، ولا مازحني في طائفتي أو منطقتي. وهو يعطيك الوقت كاملاً، ويشرح لك أدقّ تفاصيل ما يفعله، كما ينبّهك إلى عيوب أسنانك من دون تهويل. ومعه فحسب خرجت من العيادة أفضل حالاً ممّا دخلتها، ليس لأنّ الأطبّاء السابقين كانوا يسيئون إلى أسناني، وهم لم يفعلوا، بل لأنّهم كانوا يسيئون إليّ أنا، أنا الذي لا يجوز أن تتدهور أحوالي من أجل أن تتحسّن أسناني.

معين حين لم يعد يسألني

كلّما رآني، هو في سيّارته وأنا أمشي على الرصيف، هتف لي بأعلى صوته: "أستاذ، كيف معدتك؟". مرّاتٍ أجيبه: "ماشي الحال، كيف معدتك أنت يا معين؟"، ومرّاتٍ أحسّ بالحَرَج، خصوصاً حين ينظر إليّ مُشاةٌ على الطريق نفسها، ظانّين أنّ في سؤاله عن معدتي، وبصوت أقرب إلى الصراخ، ما يثير الاستغراب، أو أنّ السؤال ربّما كان "كُوْداً" يخفي معاني أخرى.

ومعين أحياناً، لا سيّما حين يكون محاصَراً بزحمة السير التي تمنع سيّارته من التقدّم، يضيف إلى سؤاله أسئلة أخرى من نوع: "كيف تتناول الفلودينيوم هذه الأيّام، أتتناول حبّة واحدة أم أكثر، ومتى: صباحاً أو مساء؟".

والحال أنّني لا أذكر بالتمام متى بدأت معرفتي بمعين، لكنّني أذكر أنّني ما إن ركبت سيّارته للمرّة الأولى حتّى ربطتني به علاقة موضوعها المعدة وما يتفرّع عنها. فقد سألني عن العلاج فوصفت له الفلودينيوم، مع بعض اقتراحات تتعلّق بالمآكل. لكنّ في اللقاء الثاني أخبرني أنّه عمل بنصيحتي وبدأ يتناول الفلودينيوم، مضيفاً: "والله إنّني أتحسّن كثيراً بفضله وبفضلك". ثمّ في مرّة أخرى، راح يتغزّل بالفلودينيوم الذي غيّر مجرى حياته، كما قال، وكان بين عبارة غزل

وأخرى بذاك الدواء يرمقني بنظرة يمتزج فيها الإكبار والاندهاش.

وعلى هامش الحديث عن الفلودينيوم، كنّا نتوسّع في كلام يتّصل بالمعدة التي قضى ثلاثين سنة يعاني آلامها: الأسيد، الحمض، الحرقة، الغضب الذي لا سبب له، ثقل الصدر ووجع الرأس... وكان حديثنا يتشعّب في اتّجاهات شتّى: عن المآكل الصالحة كالخضار المسلوقة التي لا طعم لها، وتلك المضرّة الحسنة المذاق كالخبز والحلويات والأجبان والمقالي، كما في مُنغّصات الحياة التي تساند آلام المعدة ولا يكافحها إلاّ الفلودينيوم، كالوضع الاقتصاديّ السيّئ، وحركة السير المكتظّ، وضجيج الأطفال في البيوت. ومعين كان حريصاً على فقرة خاصّة عن حماته التي يبذل جهوداً جبّارة لفصل زوجته عنها، ما يفاقم مشكلاته المعويّة. ذاك أنّ تلك الحماة لا تحبّه بتاتاً، وهي لم تُرده أصلاً زوجاً لابنتها. وأهمّ من هذا، أنّه بدأ يلاحظ كيف أنّ جواربه يتناقص عددها كلّما زارتهم، وأنّه رأى عمّه ذات مرّة يلبس جورباً من تلك التي اختفت من جاروره. ويعرّج الحديث بالطبع على زوجته: "قلتُ لها ألف مرّة إنّني لا أحبّ وجودها عندنا، لكنّها متعلّقة بأمّها، ماذا أفعل؟ أمّي أنا لا تزورنا إلاّ مرّة في السنة، أمّا أمّها فمرّتين في اليوم الواحد".

والكلام مع معين عن المعدة وما تسبّبه آلامها أغنى وأكثر تسلية بلا قياس من أحاديث السياسة في

السيّارات العموميّة. فهو مباشر وواضح لا يحتمل الفذلكة ولا يقود إلى خلافات يُستحسن تجنُّبُ الخوض فيها على الطرقات.

مع هذا، ترتّب على حوارنا المِعَويّ ما لا يسرّ القلب. ذاك أنّه، منذ وصفتُ له الفلودينيوم وانتفع به، طبَق على علاقتنا معادلة مَراتبيّة صرت أنا، بموجبها، مَن يتلقّى الأسئلة التي يطرحها معين ومَن يجيب عنها.

ماذا عن الثوم يا أستاذ؟ يسألني، فأقول له إنّه ضارّ جدّاً وعليه ألاّ يأكله أبداً، علماً بأنّني آكل الكثير من الثوم أنا نفسي بغضّ النظر عمّا سوف ينجم عن ذلك. وقد ألتقي معين في مرّة تالية فيخبرني أنّه لم يُخلّ بتعهّده لي ألّا يذوق الثوم، أو يقول: لكنّ البندورة لا بأس بها، أليس كذلك؟ فأجيبه: بندورة! العياذ بالله، إنّها قاتلة، خصوصاً إذا كانت مطبوخة، ابتعذ عنها يا معين. وأنا يكاد لا يمرّ يوم من حياتي لا آكل فيه البندورة.

ومع أنّني لا أتناول الخضار المسلوقة إلاّ في المستشفيات، رغم معرفتي بفوائدها المعويّة، فإنّني أقول لمعين بلغة تكاد أن تكون تهديديّة: "عليك بالجزر وبالكوسا"، ثمّ أعبسُ ردّاً على تململه الذي ينمّ عن ضيقه بقسوتي وبحزمي، كي أفهمه أنّ الأمر لا يحتمل المزاح.

ولا أعرف كيف تطوّرت هذه الصلة بيننا على شكل سؤال متردّد منه وجواب حاسم منّي، مع أنّني بدأتها بقدر من التأفّف والتردّد، لكنّني أعترف بأنّ التذمّر

الصامت سريعاً ما غادرني، واكتشفت في نفسي استعداداً لأن أكون طبيباً يردّ على أسئلة مريضه، وهذا من دون أن أكون مُحبّاً ممارسةَ السلطة على معين، ومن دون أن أملك أيّ لذّة ساديّة حياله. وربّما كان ما ثبّتني في هذا الدور رغبة دفينة في أن أُشبه عمري في مكان ما، ويبدو أنّني اخترت الوعظ والحكمة ووجدت في السائق المسكين أصلح الزبائن وأكثرهم استعداداً لتلقّي مواعظي. لكنّ المسألة لم تعد تقف عند هذا الحدّ. فهو صار يسألني عن سيّارته، أنا الذي لم ألمس مقود سيّارة في حياتي.

"يا أستاذ، في اليومين الأخيرين باتت تقطعني في منتصف الطريق"، فأجيبه مستعيناً بأحاديث متناثرة سمعتها على مدى سنوات طويلة عن السيّارات: انتبه يا معين، قد تكون البطاريّة هي السبب. افحص البطاريّة. افحصها فوراً.

ومرّاتٍ، ولجهلي بالسيّارات وبأحجام مشكلاتها، قد أنبّهه إلى ما أظنّه العلاج المطلوب، فيأتي تنبيهي أكثر دراميّةً ممّا تحتمله المشكلة، كأنْ يقول لي إنّه يحسّ أنّ في موتوره قليلاً من الوسخ، فأردّ بشهقة وباستنكار لا يستدعيهما وسخ الموتور القليل، لكنّهما يزيدان قناعته بأنّني شخص جدّيّ، بل كماليّ لا يتساهل في الاستئصال الفوريّ والجذريّ لأيّ خلل طارئ.

هكذا صار يُخفي عنّي أموراً كثيرة، في صحّته كما في سيّارته، فلا يطلعني عليها إلاّ بعد أن يعالجها: "لم

أقل لك يا أستاذ إنّني عانيت ورماً في القدمين، لكنّني الآن، بعدما زرت الطبيب، صرت بألف خير"، أو "لم أخبرك يا أستاذ بأنّ فرامل السيّارة كانت سيّئة ومتراخية، لكنّني الآن أصلحتها وصارت على أتمّ حال".

وعلى العموم، غدت استشارتي في أمور كثيرة وشديدة الاختلاف لازمةً من لوازم لقاءاتنا المشتركة، لكنّ هذه العلاقة فرضت نفسها بما لا يتّسع لأدنى ذبذبة في إجاباتي. فهو نصّبني حاكماً عليه تبعاً لتشخيصي مشكلة أُعاني مثلها، ولاقتراحي الفلودينيوم عليه، حتّى بات من الصعب أن أبدو أقلّ ممّا يتوقّعه فيّ. وتدريجاً، غدا تمسّكنا بلعبة السؤال والجواب شرطاً لكي لا يختلّ نظام العلاقة بيننا:

– ما أجمل بلد في العالم يا أستاذ؟

– إنّه السويد (التي لم أزرها من قبل).

– أيّ سنة كانت السنة الأبرد في تاريخ لبنان؟

– 1724 (أقولها اعتباطاً).

ومضينا على هذا المنوال إلى أن التقيت به ذات مرّة وهو غاضب ومأزوم:

– ما القضة يا معين؟

– الفلودينيوم لم يعد ينفعني.

لم يخاطبني معين، على عادته، بـ"الأستاذ"، كما أنّ نظرته إليّ بدت جانبيّة ومداورة كما انطوت على شيء من الاستخفاف لم أعهده فيه من قبل.

قلت له: "جرّب النيكسيوم يا معين. فهو ربّما أفادك".

حرّك يده بما معناه: فلنغيّر هذا الحديث.

وعندما كرّرت اقتراحي، ردّ بعبارة تترجّح بين الاستياء والشعور بالخذلان والمرارة: الأمر لله وحده... إلى أين تريد أن أوصلك؟

وأحسست بأنّ معين لا يريد أن يمنحني فرصة أخرى، بعدما بالغ في الرهان على خلاص بالفلودينيوم لم يتحقّق له. فأنا، في نظره، خسرت أساس الشرعيّة التي قامت عليها سلطتي، وكم كان أساساً هشّاً على ما يبدو.

لقد ساد السيّارةَ ذاك الصمت الذي استمرّ حتّى الوصول إلى المكان المقصود، حتّى إنّني افتقرت إلى الشجاعة المطلوبة كي أخاطبه باسمه. هناك، حين وصلنا، نظر إليّ نظرة مَن يقول إنّه لن يُلدغ بحجر مرّتين.

– كم تريد؟

– عشر ليرات.

– شكراً.

للأمكنة، كلّ الأمكنة، روائح. وليس جديداً، لا في الحياة ولا الأدب، أن نستذكر وجوهاً وحالات تمتّ إلى ماضينا البعيد، من روائح نبّهتنا مصادفات عابرة إلى أنّنا لا نزال نحملها فينا. لكنّ، إذا كانت القرى والأرياف تزخر بروائح طبيعيّة يقول الأطبّاء إنّها مفيدة للصدر وللتنفّس، وربّما لأعضاء ووظائف أخرى في الجسد، فإنّ المدن تطالعنا بنوعٍ مختلف من الروائح. فهنا، تتجاور النفايات الملوّثة والتلويث الصناعيّ، بما فيه ذاك الصادر عن اهتلاك الآلات القديمة، لتضعنا أمام نتائج يصعب وصفها بالصحّيّة أو بالنفع.

مع ذلك، رغم هذه المنغّصات جميعاً، فأنا منحاز بقوّة إلى العيش في المدن. فالروائح الطيّبة في القرى لا تستطيع أن تحلّ محلّ البشر الذين يندر وجودهم هناك. أمّا الروائح السيّئة في المدن، فلا تحجب عنّا حيويّة تلك المدن وحركة البشر والأفكار التي تضجّ بها. وانحيازي هذا إلى المدينة هو ما جعل صديقي حسن يتّهمني بأنّني أسعى إلى "خراب بيته". فهو يملك منزلاً جميلاً في الريف، لكن إلحاحي على ضرورة أن يتخلّص منه ويشتري بيتاً في المدينة، وحرصه على استمرار صداقتنا، جعلاه يبحث عن أيّ مُشترٍ، حتّى لو دفع له ما يقلّ عن سعر البيت العادل.

على أيّ حال، بالغث بيروت في امتحان قدرتي على التحمّل، كأنّني "العاشق الوحيد" الذي رثث حالَه أغنية محمّد عبد الوهاب الشهيرة.

فأنا أقمت في شطري بيروت، الغربيّ والشرقيّ، اللذين اكتسبا تسميتهما هاتين إبّان "حرب السنتين" في أواسط السبعينات، فانطوى كلّ منهما على معنى طائفيّ ودلالة سياسيّة معيّنين. والإقامة في الشطرين معاً لا تنمّ فحسب عن حبّ صاحبها لبيروت، بل هي في نظر كثيرين تعبير عن وطنيّة متعالية على الهوى الطائفيّ الضيّق. لكنّ ما حدث لي لا يشجّع مُحبّي المدن كما لا يشجّع مُحبّي الأوطان. ففي الأشرفيّة، الواقعة في الشرق، اخترت شقّة في الطابق الأوّل من البناية. ولسوء الحظّ اكتشفت، بعد الانتقال إليها، أنّ هناك مصبغة تقيم تحتها في الطابق الأرضيّ. وحين تقال كلمة "مصبغة"، في هذا السياق، لا يكون المقصود فعل التنظيف بل فعل التوسيخ. ذاك أنّ الروائح الكيماويّة التي كانت تنبعث منها كانت تتجاوز توسيخ بيتنا إلى توسيخ صدورنا. وهي معضلة دائمة لا يخفّفها تحوّل الطقس وتغيّراته: فإذا هبّ علينا الهواء، هبّت هذه الروائح معه قويّةً عاصفةً، وإذا انحبس الهواء واضطررنا إلى فتح الأبواب، كنّا كمن يفتح ذراعيه لملاقاة هذه الرائحة القبيحة.

وكنت أقول وأنا هناك: إنّ الروائح الكيماويّة أسوأ من الروائح الطبيعيّة، ليس فقط لأنّها أكثر إضراراً بالصحة،

بل أيضاً لأنّها أصعب على التعقّل والفهم، فضلاً عن كونها غير مألوفة نهائيّاً في ذاكرة أنوفنا. وأذكر ذات مرّة أنني قرأت مقالة لواحد من عتاة البيئويّين بهذا المعنى، مستخلصاً أنّ الرأسماليّة الصناعيّة لن يهدأ لها بال قبل أن تودي بنا جميعاً إلى التهلكة. وأحياناً، وفي محاولة منّي للتحايل على مأساتي، كنت أقول لنفسي: هذا طبيعيّ، وأولئك البيئويّون المتطرّفون هم كمن يطالبنا بألّا نأكل كي لا نضطرّ إلى دخول بيت الخلاء، لكنّني لا ألبث أن أتذكّر أنّ الأمور عندنا ليست على هذا النحو بتاتاً. فنحن في بلد كلبنان، إنّما نحصد التلوّث من دون أن نجني أفضال الصناعة، إذ يقتصر أمر "تقدّمنا" على تنظيف بعض قمصان زبائن المصبغة وستراتهم!

لكنّني حين انتقلت إلى منطقة الحمرا، في الشطر الغربيّ من العاصمة، بدأت، لسبب آخر، أعيد النظر في تلك الأفكار البالغة العداء للروائح الكيماويّة. فهنا وقعت على شقّة لطيفة في حيّ بالغ الحيويّة لا تبارحه الحركة ليلاً ولا نهاراً. فوق هذا، تحتلّ الشقّة الجديدة الطابق الخامس من البناية، نائيةً بنفسها عن الموبقات التي قد تأتي من الطريق العامّ وجلبته. وهي أيضاً شديدة التعرّض للضوء الذي يكاد ينفجر فيها انفجاراً، لأنّ فجوات عمرانيّة واسعة تحيط بها، وهذا ما تزداد ندرته في بيروت التي يقول صديقنا أحمد إنّنا بعد وقت قصير لن نرى سماءها بسبب المباني الشاهقة المتكاثرة. لكنّ المشكلة تكمن بالضبط هنا. فالطبيعة لا تمنحنا

الشمس فحسب، بل تمنحنا أيضاً رائحة المجارير التي تهبّ علينا بين فينة وأخرى هبوباً ساحقاً، وإن كان لا يدوم طويلاً. ولا بدّ أنّ الأمر الكريه هذا ناشئ عن فساد البنى التحتيّة التي لم تُجدّد بما يجعلها تواكب التحوّلات السكّانيّة وحاجاتها المتزايدة. ولربّما زاد في تفاقم المشكلة ما عُرف به لبنان أخيراً لجهة عجزه عن جمع نفاياته وتصريفها، أو إعادة تدويرها بما يفيد.

وكائناً ما كان الدور الذي اضطلعت به المعالجات السياسيّة والاقتصاديّة السيّئة، يبقى أنّ روائح المجارير طبيعيّة جدّاً، وأكاد أقول إنّها جزء لا يتجزأ من ثقافة شعب بعينه ومن تعاطيه مع مألوفاته وما هو حميم فيه. ولست هنا بحاجة إلى الاستشهاد بعلم النفس، خصوصاً علم نفس الأطفال ممّن لا يكتمون تعلّقهم بأسوأ ما تفرزه أجسادهم.

لكنّ لا هذا يحلّ المشكلة ولا ذاك. فأنا ماضٍ في دفع الأكلاف الباهظة التي رتّبها عليّ حبّي للمدن، ومعه وطنيّتي المتعالية على الطوائف. وقد كان من نتائج ذلك تعرّضي لشمّ روائح الطوائف والجماعات كلّها التي تقيم في المدينة، بالصناعيّ منها وما قبل الصناعيّ. وكم ينتابني هذا الشعور صباحاً حين أتوّهم أنّ السير في محاذاة البحر "يوسّع الصدر"، كما يقول الرياضيّون ودعاة الصحة، فأرجع إلى البيت بصدر أصغر ومعنويّات أقلّ.

لهذا، ومن دون أن أقرّ علناً بذلك، أضبط نفسي أحياناً مُوافقاً صديقي الشابّ ماهر على أفكاره. فماهر قرّر، قبل سنوات عدّة، أن يلوذ بالقرية، وأن يرى فيها حصناً يعتصم به أمام زحف المدينة المتعاظم. فإذا ما اضطرّه ظرف بالغ الاستثنائيّة أن يفد إلى بيروت، عامل نفسه كأنّه أسير حرب لا يحظى بحرّيّته إلّا حين يقفل راجعاً إلى القرية.

والمؤكّد أنّ رئتي ماهر أنظف ألف مرّة من رئتيّ، لكنّني مُصرّ على ألّا أقول هذا الكلام، لا لحسن ولا لماهر، وأن أمضي متنقّلاً بين طوائف مدينتي وروائحها الكريهة.

عن ماضينا ومستقبلنا

١٩٧٨... أو حرب البصلة

تُروى، في المنطقة التي جئت منها، قصّة لا تخلو من طرافة، لكنها كذلك لا تخلو من معنى. ذاك أنّه في أواخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات، ظهرت بصلةٌ على الحدّ الفاصل بين منزلين متجاورين. لم يُعرف بالضبط مَن الذي حفر الحفرة الصغيرة هناك، ومن الذي طمر الثمرة، وربّما سمّدها ورواها. ما عُرف أنّ صاحبي البيتين المحيطين بالبصلة تنازعا على ملكيّتها، وادّعى كلّ منهما أنّه نفّذ تلك المهمّات من غير أن يراه الآخر.

وعلى العموم، نجحت البصلة في استنفارهما وإيقاظ ما فيهما من غضب وكراهية. لم يردعهما عن ذلك مرور بضع سنوات على نيل الاستقلال الذي حفّت به أغاني الوحدة الوطنيّة والإيحاءات الكثيرة بأنّ الأرزة هي الشيء الوحيد الذي يطلع من الأرض ويستحقّ تنافس اللبنانيّين على امتلاكه.

هذه لي، قال أحد الجارين مشيراً إلى البصلة بعينين محمرّتين. بل هي لي أنا، قال الثاني بعينين أشدّ احمراراً.

والحال أنّ البصل كان دائماً زهيداً، لا يستحقّ أن يثير شجاراً بين اثنين يجمع بينهما الجوار اللصيق، فضلاً عن الانتماء إلى قرية واحدة وبلد واحد، وطبعاً إلى العروبة والإسلام. وفي عكّار، كما في مناطق أخرى من لبنان، كان غالباً ما يقال في وصف السلعة الرخيصة

الثمن "إنّها بسعر بصلة". مع هذا، فبصلتنا العكاريّة لم تُثر شجاراً فحسب، بل تأدّى عنها سفك دم وإزهاق أرواح.

فهي، وقد باتت رمزاً للكرامة والشرف، دفعت الخلاف إلى سويّة الإهانة، إذ جاء كلّ من الجارين ببندقيّة قديمة مخبّأة داخل البيت، بعيداً عن أنظار رجال الأمن، وانتهت المجابهة بينهما على نحو فظيع. ففي وقت واحد، بل في لحظة واحدة، ضغط الرجلان إصبعيهما على الزناد، فأردى كلّ منهما الآخر.

ليس واضحاً ما الذي حدث بعد ذاك: هل أُشركت الجثّتان في جنازة واحدة؟ هل شهدت علاقات الأسرتين الجارتين مزيداً من التوتّر؟ ذاك أنّ شيئاً من الشعور بالفضيحة لفّ الحدث وعطّل الكلام في تداعياته. فلبنان، يومذاك، كان يباشر الدخول في عمليّة تحديث نجحت في التسلّل إلى المناطق والقرى البعيدة من بيروت. ومن عيوب التحديث أنّه يجعل الكلام في أمور كهذه أقرب إلى عيب يستحي به صاحبه. فالقتل عيب، والقتل المزدوج عيبان، أمّا أكبر العيوب فأن ينجم هذا كلّه عن شيء تافه وزهيد كالبصلة. لكنّ ما يقيم عميقاً في الروح يستحيل تدبّره بالكتمان إلى ما لا نهاية.

على أيّ حال، مرّت سنوات طوت سنواتٍ وإذا بنجلي القتيلين شابّان، واحدهما كان يتخرّج محامياً في جامعة بيروت العربيّة، والثاني أستاذاً للتاريخ في

الجامعة اللبنانيّة. وفضلاً عن إرخاء كلّ منهما شاربين كثّين، على جاري العادة في السبعينات، انتسب أحدهما إلى حركة "فتح"، فيما انتسب الثاني إلى "الحزب الشيوعيّ اللبنانيّ". وهما، في موازاة التحالف بين تنظيميهما، ربطتهما صداقة ربّما لم يستسغها أقاربهما الأكبر سنّاً ممّن آثر جرحهم القديم والصامت ألّا يندمل. لكنّ هذا لا يهمّ في النهاية، فالمسنّون كانوا يفقدون سطوتهم على القرية، أمّا الشبّان، فولاؤهم للعقيدة وللتنظيم يجبّ الولاء للعائلة وسائر الروابط الموصوفة بالرجعيّة. وكان ممّا قوّى صداقتهما صمتُهما، هما أيضاً، على الفضيحة التي ارتكبها الوالدان وذهبا ضحيّتها. وأهمّ من ذلك أنّ الشابّين الجارين والصديقين باتا قدوتين لسائر شبّان القرية الذين رأوا أنهما يرمزان إلى تقدّم وانعتاق، وأنّهما لا يعبآن بأفعال الأهل وأفكارهم العائدة إلى زمن بائد.

لكنّ الصداقة الوثيقة التي تُمارَس يوميّاً، تنفق كلامها بسرعة. ومن أجل كسر الضجر ومدّ اللقاءات بأسباب جديدة، ينقاد الأصدقاء إلى مطارحات ويتزحلقان إلى مكاشفات هم ليسوا منيعين دائماً حيالها.

هكذا، وفيما كانا، ذات مرّة، يتبادلان آراء متشابهة حول "التخلّف" و"عقليّة زمن الإقطاع" اللذين يريدان إزالتهما، زوّدتهما تلك الذاكرة البيتيّة اللعينة بالحجّة التي لا تُدحض. قال أحدهما: "تأمّل في المأساة التي أدّت إلى يُتمنا وشقائنا لسنوات طويلة. أليست هذه أكثر

ما يعبّر عن عقليّة التخلّف وزمن الإقطاع؟ هل يُعقل أن يتقاتل أبي وأبوك على بصلة وأن يُقتلا بسبب بصلة؟ شيء لا يُصدّق بالفعل!".

وما لبث رفيقه أن وافقه، وأردف بما يفصح عن شيء من الحيرة التي تتملّم حيرته: "عجيب. كلّ الذين عرفوا أبي يقولون إنّه كان شخصاً عاقلاً وموزوناً، فكيف يأتي شخص عاقل وموزون عملاً كهذا؟". فأجابه رفيقه: "وأنا أيضاً أسمع كلاماً شبيهاً عن أبي"، ليضيف بعد ثوانٍ من الصمت المرتبك: "حتى لو كانت البصلة لأبي، هل كان هذا كافياً لحدوث ما حدث؟". وهنا ردّ رفيقه: "لكنّها، إذا شئتَ الحقيقة، لم تكن لأبيك"، وراح بصوت منخفض ينطق بكلمات غير مفهومة حملت رفيقه على مقاطعته بنبرة قويّة وحازمة: "ما دمت تقول هذا، فالبصلة كانت لأبي، وهي أقرب قليلاً إلى بيتنا منّا إلى بيتكم". وبالفعل، تشنّج الاثنان وافترقا من دون كلمة وداع أو توافق على لقاء آخر، كما كان يجري في العادة، لكنّ قريتهما راحت، بعد يومين على ذاك اللقاء، تتحسّب للأسوأ. فقد قيل إنّ مقرّ "الحزب الشيوعيّ" تعرّض لطلقات ناريّة ليلاً، كما قيل إنّ مقرّ حركة "فتح" تعرّض بدوره لطلقات مماثلة. وإذ جعل بعض أهل القرية يحمّلون هذا الطرف مسؤوليّة التحرّش بالنار، وبعضهم الآخر يحمّل ذاك، كان من المتّفق عليه أنّ السلاح المتوافر اليوم أشدّ فتكاً بلا

قياس من بنادق الزمن القديم التي تأدّى إليها موت الأبوين الجارين.

فمثلما طاول التحديث الأفكارَ، طاول الأسلحة، لكنّ البصلة ظلّت تحفر عميقاً في الصدور والقلوب. ومنعاً لما لا تُحمد عقباه، أرسل التنظيمان الحزبيّان قياديّين من المدينة إلى القرية العكّاريّة فجمعا الشابّين الخصيمين اللذين تعانقا وقالا إنّهما سينسيان البصلة، من دون أن يصدّقهما رفاقهما الآخرون.

بعد ذاك، صدر عن حركة "فتح" و"الحزب الشيوعيّ" بيان يؤكّد أنّ الجميع رفاق خندق واحد، وأنّهم ماضون إلى ما لا نهاية في حربهم على الإمبرياليّة والصهيونيّة، لن يحرفهم عن هدفهم هذا هدف آخر، أكان كبيراً أم صغيراً.

حينما خطفتُ كميل

لم أكن أنوي أن أجذبه من قميصه، ولا أن أصرخ في وجهه ثمّ أوسعه شتماً، مع أنّني كنت سمعت من أشخاص مجرّبين أنّ الخاطف ينبغي أن يضرب مخطوفه لحظة اقترابه الأوّل منه. ذاك أنّه بسلوك كهذا "يأكل رأسه" كما يقولون عندنا، أي يسيطر عليه ويحمله على الإذعان لمشيئته. مثل هذا ليس من عاداتي أبداً، فضلاً عن أنّني فكّرت في إتمام المهمّة بكلّ هدوء ولياقة، لكنّ الرجل اللئيم المحتمي داخل سيّارته المرسيديس، هو مَن رفع صوته في وجهي. وهو لم يكتف برفع الصوت، بل جعل يحرّك قبضته في الهواء محتجّاً على ما أطلبه منه. لقد تصرّف كأنّه يتحدّاني، متوقّعاً أن ترتعد فرائصي فأتراجع عمّا بدأت وأدعه يكمل سيره بكلّ حرّيّة.

هذا الأبله لم يحسب حساباته جيّداً. فهل يعقل، حتّى لو كنتُ أخاف من صراخه وحركة يده، أن ينتابني الخوف ونحن على بُعد مئات الأمتار من منطقتي التي هو غريب عنها، أو أن أجبن أمامه فيما أنا محاط بثلاثة شبّان واحدهم أصغر منه بقرابة خمسة عشر عاماً؟

في البداية، قلت له بكلّ تهذيب: تفضّل، انزل من السيّارة وشرّفْ معنا. كنت أتمنّى لو أنّه استجاب فأعفاني من غضب وددتُ لو أتفاداه، لكنّه بدا عصبيّاً جدّاً ووقحاً جدّاً في الوقت نفسه، وقد تراءى لي تصرّفه

هذا غير مقبول ولا محتَمَل. ما زاد رداءته وجعلني أفقد أعصابي ذكرُه أسماء الزعماء والوجهاء الذين عدّدهم بسرعة وبثقة بالنفس كأنّه يوحي لي أنّهم أصدقاؤه، وهو، في آخر المطاف، لا أكثر من سائق بسيط لسيّارة تاكسي. فذاك الأبله ظنّ أنّنا نتأثّر بأولئك الذين سمّاهم من ذوي الأسماء الكبيرة، أو أنّنا نخشاهم، لمجرّد أنّهم مسلمون مثلنا، مع أنّنا كنّا نحمل السلاح في وجههم تماماً كما نحمله في وجه الزعماء المسيحيّين. وقد وصل به الخبل إلى التعويل على أولئك الأشخاص كأنّهم يستطيعون ردعنا عن خطفه، فيما هؤلاء أنفسهم مَن كان يُستحسن بنا أن نخطفهم قبله.

هذا المسكين كان كأنّه لا يزال يعيش في زمن سابق على حملنا السلاح حينما حوّلنا، برشّاشاتنا وببنادقنا، أولئك الزعماء إلى ما يشبه فئراناً مذعورة لا تبارح بيوتها المغلقة عليها.

لقد بدا ذاك السائق المسيحيّ متعجرفاً ومتعالياً حقّاً، وهذا ما سهّل عليّ العمليّة التي تردّدتُ طويلاً قبل الإقدام عليها. وكانت زوجتي يومذاك تزيد في تردّدي، إذ ما إن عرفت نيّتي حتّى راحت تؤكّد وتكرّر أن عملاً كهذا غير مقبول أبداً وغير أخلاقيّ. وهي بالغت في تحذيري حتّى إنّني منعتها من التحدّث معي في الموضوع جملة وتفصيلاً.

وأنا لم أكن أفكّر في خطف ذاك الرجل المسيحيّ النازل من جبله نحو الساحل، بل لم أكن أفكّر في خطف

أحد أصلاً، أكان مسيحياً أم غير مسيحي.

كانت قضيّتي من نوع مختلف تماماً عن أعمال الخطف الرائجة حينذاك. كانت نبيلةً أضحي من أجلها حتّى بالنفس، وهو ما قد يفعله كثيرون مثلي في الحركة التي أنتسب إليها أو في أحزاب أخرى. لكنّ في ذاك اليوم جاء ابن عمّ أبي، متوتّراً ملهوفاً، يخبرني أنّ بعض الكتائبيّين خطفوا ابنه، وأنا لم أنتبه إلى أنّه كان يطالبني بخطف مسيحيّ في المقابل. وابن عمّ أبي لم يكن، بالضرورة، طائفيّاً ولا كان كارهاً للمسيحيّين، لكنّ هذه كانت القاعدة المتّبعة عندنا يومذاك: واحد يساوي واحداً، فإمّا أن يعود الاثنان معاً إلى أهليهما وإمّا أن يتبخّرا معاً في ذاك المكان الغامض حيث يتبخّر المخطوفون.

وقريبي خطفه مسلّحون من "حزب الكتائب" فيما كان في طريقه إلى منطقة مختلطة، لسبب ليس أبوه متأكّداً منه. وهو بدا متألّماً فراح، بغضب يشوبه الخوف، يسألني ويحضّني على أن أخطف، ردّاً على خطف ابنه، شخصاً مسيحيّاً، أيّ شخص مسيحيّ يمكننا أن نقايض به خاطفيه. وإذ سيطرتْ على مفاجأتي، جعلتْ أهدّئه وأحدّثه بالتي هي أحسن، فلم ينفع ذلك إلاّ في رفع وتيرة الغضب لديه، لكنّ في الأيّام التالية بدأ إحساسي بالضجر منه ومن قضيّته يحلّ محلّ التعاطف معه. بات يأتيني كلّما علم أنّني جئت لزيارة عائلتي، حتّى إنّني صرت أتركه في البيت وأعود إلى مقرّ

الحركة في بيروت، أو أدلف، إذا كنت متعباً، إلى غرفة نومي تاركاً إيّاه يعتمل في غضبه وإحباطه المتواصلين.

كنت أقول لنفسي قاصداً تهوين المسألة عليّ: إما أن يعود نجله في يوم قريب وإما أن ينتابه اليأس فيتخلّى عن الموضوع برمّته ويدعني لشأني. لكنّ مرّت أيّام عدّة ولم يعد ابنه ولا توقّفت زياراته الملحّة إلى بيتي. صار يأتي مرّتين أو ثلاثاً يوميّاً حتّى من دون أن يتأكّد مسبقاً من وجودي هناك. فهو ربّما ظنّ أنّه إذا أقنع زوجتي بذلك، أو إذا استمالها إلى مطلب الخطف، زاد في أسباب الضغط عليّ. أمّا حين كان يجدني، فكان يعيد على مسامعي ما بتّ أحفظه عن ظهر قلب. ذاك أنّ ابنه لم يحمل سلاحاً، بل لم يكن حزبيّاً أصلاً. لقد كان مجرّد طالب مجتهد ومنكبّ على درسه، لا يهمّه إلاّ أن يتخرّج سريعاً من الجامعة ويحصّل فرصة عمل تتيح له أن يتزوّج وأن يعيل أهله الفقراء.

"لقد خطفوه لمجرّد أنّه مسلم شيعيّ"، بهذه اللازمة بات ينهي محادثته معي، ظانّاً أنّه، بالعبارة هذه، يحرّضني التحريض الأفعل.

زوجتي أيضاً، رغم تعاطفها معه، أصابها البرم به وبزياراته، خصوصاً حين لا أكون في البيت فتُضطّر إلى مجالسته والتحدّث إليه والاستماع إلى الرواية نفسها مرّةً بعد مرّة. قلت في نفسي: فلأوصلْ اسم المخطوف إلى التنظيمات الحزبيّة والوسطاء، لعلّهم ينجحون في التوصّل إلى إعادته، لكنّ ما من حلّ ظهر في الأفق. كلّ

ما كان يردنا من أولئك كان يؤكّد لنا الحقيقة إيّاها: الخطف هو الردّ الوحيد على الخطف من أجل استرجاعه.

والده اختارني لهذه المهمّة من بين سائر شبّان العائلة، وأنا أستطيع أن أتهرّب وأتحايل إلى حين، لكنّني لا أستطيع أن أقول له: أنا لا أخطف، أو إنّني عقائديّ لا طائفيّ ولا أرتكب الخطف على الهويّة. مثل هذا الكلام كان ليبدو جبناً ممزوجاً بفذلكة مدّعية وغير مفهومة لديه، وهو ما يعرّضني للاحتقار وللسخرية في وقت واحد، لا منه فحسب، بل عند العائلة وفي عائلات منطقتنا.

وأنا، بين أقربائي الكثيرين، كنت معروفاً بأنّني شيخ شبابهم الذي يحتاجونه في الملمّات. أمّا علاقتي بالحزب وبالتعاليم الحزبيّة، فإمّا أنّها لم تكن تعنيهم من بعيد أو قريب، وإمّا أنّهم سمعوا بها ولم يحملوها على محمل الجدّ. وأنا، من ناحيتي، آثرت أصلاً ألاّ يتعرّفوا إليّ في وجهي هذا لأنّ نظرتهم إليّ كشيخ شباب أهمّ ألف مرّة في حساباتهم من صورتي كمناضل عقائديّ. أكثر من هذا، كانت حزبيّتي، في نظرهم، أقرب إلى نشاط لا يليق بي، يُدنيني اجتماعيّاً ويعرّضني لمهانة لست مضطرّاً إلى تحمّل مثلها.

والحال أن الحزبيّة برمّتها كانت تثير شيئاً من النفور عندهم. فهم مكتفون بالولاء لأنفسهم ولعائلتهم الكبرى، ولا تراودهم حاجة إلى ولاء آخر.

ونحن لم نأخذ معنا رشّاشاتنا حينما ذهبنا لخطف ذاك الشخص المسيحيّ المجهول. كان هذا العمل الأوّل من نوعه، وكان الأخير أيضاً، لكنّ التنفيذ، مع ذلك، بدا أسهل من أن يستدعي إحضار السلاح. كنّا نعلم أنّ ذاك الرجل يمرّ من هناك كلّ فجر، وأنّه يمرّ بمفرده كي يعود ناقلاً ركّابه من المطار في اتّجاه الجبل. كذلك لم اضطرّ، ولم أُجبِر أيّاً من الشبّان الثلاثة المرافقين لي، إلى شهر المسدّسات التي كنّا نحملها على خصورنا. فهو ما إن رحتُ أوالي الصراخ في وجهه حتّى تراجع عمّا قال، كأنّه لم يقل شيئاً بالأصل. لقد بات ينفّذ كلّ ما أطلبه منه من دون أدنى تردّد في ذلك. وهو نسي الزعماء الذين عدّد أسماءهم الطنّانة بالسرعة نفسها التي استحضر فيها تلك الأسماء، لكنّني ضبطته ينظر بعين حذرة إلى خصري كي يرى ما إذا كان هناك مسدّس مخفيّ تحت السترة، كما ينقّل تلك العين اللعينة على خصور مُرافقيّ الثلاثة واحداً بعد الآخر.

ولوهلة، انتابني شعور غريب فيما كان يدقّق مذعوراً في خصورنا. لقد أحسست بما يحسّه الأب حين يضبط مغتصباً يسترق النظر إلى ابنه. فهو يتلصّص على ما لا يحقّ لواحد مثله أن يتلصّص عليه لأنّ هذا الشيء الذي نحمله على خصورنا أشرف من أن تلوّثه نظرة وغد انعزاليّ.

لقد تردّدت فعلاً قبل أن أقدم على خطف ذاك الرجل المسيحيّ، بل تردّدت كثيراً حتّى كدت أعزف عن تنفيذ

تلك المهمّة برمّتها. كلّ ما فكّرته وكلّ ما اعتنقته من قبل كان يردعني عن فعل كهذا. فالخطف، كما كنّا نقول، طائفيّ وغريزيّ، فضلاً عن كونه بلا أيّ مردود سياسيّ ثوريّ. لكنّ الضغط العائليّ راح يشتدّ عليّ ويقوى، فبتُّ أتلقّى تأثيراته مرّات عدّة في اليوم الواحد وبصور مختلفة. صرت أقول في نفسي: ليتني تقدّمت من عائلتي بوصفي قياديّاً حزبيّاً ضعيف الطاقة والنفوذ، لا كشيخ شباب. ليتني فعلت هذا منذ البدايات الأولى، إذ لو فعلته لأعفوني من مهمّة كتلك لأنّهم كانوا سيرون أنّ هامشيّاً مثلي ليس أهلاً لها. لقد انتابني شعور غريب ومعذّب مفاده أنّ أسباب قوّتي في نظرهم انقلبت، هي نفسها، أسباب ضعف وشلل.

والدة قريبي المخطوف أتتني ذات يوم مع زوجها وقالت لي كلاماً لا أستطيع وصفه بأقلّ من مُهين. كانت نظرتها رهيبة في عدوانيّتها وفي احتقارها لي. لقد راحت تتطلّع إليّ من رأسي إلى قدميّ، ثمّ تحرّك عينيها صعوداً في اتّجاه رأسي، كأنّها تشكّك في رجولتي، أو ربّما في وجودي ذاته الذي أُعطي لي من دون أن أستحقّه. وهي لم تنس تلك العبارة الجارحة تقذفني بها: "ماذا كانت المرحومة أمّكَ لتقول فيك لو أنّها لا تزال بيننا؟". في ذاك اللقاء لم ينبس زوجها ببنت شفة، بل أمسك بها من يدها وشدّها بعيداً عنّي كأنّه كان متخوّفاً من تعريضي لمزيد من المهانات، أو ربّما تعبيراً عن يأسه منّي ومن دفعي إلى المبادرة.

في تلك الليلة اللعينة، ظللت أسكر حتّى مرضت واستفرغت كلّ ما في أحشائي. ولأيّام قليلة، جعلت أتصرّف كأنّني شخص خرافيّ الوعي، لا أملك معياراً واضحاً يوجّهني ويقود خطاي. رحت، مثلاً، أحتكم إلى الرموز وما يوحيه الطقس أو شارات السير أو أيّ شيء عارض آخر وبلا معنى ممّا أصادفه أمامي. وذات مرّة، وفيما سيّارةٌ تسير أمام سيّارتي، قلت لنفسي: إذا انعطفتْ هذه يميناً نفّذتُ عمليّة الخطف وإذا انعطفت يساراً أحجمت عنها. صرت أفهم الأشياء هكذا كأنّني فاقد كلّ قدرة على تعقّلها بمفردي وبموجب ما يمليه الإدراك أو المعرفة.

لكنّني، في هذه الغضون، رحت أبثّ في نفسي مناعة وإقداماً أنا في أمسّ الحاجة إليهما كي أكمل ما بدأته. صرت أقول، مثلاً، إنّ هذا المسيحيّ الذي سأخطفه هو لا بدّ مختلف عنّي، وإنّه لا بدّ طائفيّ ومتعصّب يريد إلحاق الأذى بي وبكلّ مسلم مثلي، وإلاّ لماذا خطف مسيحيّون مثلُه قريبي البريء، ولماذا ينضوون في حزب "الكتائب" وباقي الميليشيات الطائفيّة؟ ثمّ ما الذي يضمن أنّه، هو ذاته، لم يكن قيّماً على الخطف، أو مشاركاً فيه، إنْ لم يكن لقريبي فلشخصٍ آخر بريء مثل قريبي؟ حاولت أن أقنع نفسي بأنّ خطفي له قد يحبّب عائلتي بالحزبيّ الذي هو أنا، وتالياً بالحزبيّة. هكذا أفيد التنظيم وأحسّن صورته فيما أصالح، من جديد،

الطرفين النقيضين اللذين تشكّلت منهما، العائلة والحزب.

وفعلاً كانت الحرب قد غيّرتنا مثلما غيّرت أعداءنا الذين يقاتلون هناك على الضفّة الأخرى. فقد نشأت عادات وماتت عادات كنّا نظنّها متمكّنة منّا. حتّى علاقاتنا بالأهل وبالأصدقاء، وبالناس عموماً، لم تعد كما كانت من قبل. وهل يعقل ألاّ يحدث ذلك بعد تداعي أبنية صلدة لم يبق منها إلاّ الحجارة المتكوّمة على طرق مقطوعة. وحين تتغيّر الطبيعة، هل يبقى البشر على ما كانوا عليه؟

مع هذا، فالخطف، مثل أمور قليلة أخرى، بقينا لا نرتكبه أبداً، لا بصفتنا الفرديّة ولا كحركة حزبيّة. غيرُنا من الأحزاب ربّما فعل ذلك، أمّا نحن، فأجزم أنّنا لم نفعل، بل لم يخطر أصلاً في بال أيّ منا. وهذا الموقف الذي يكاد يحرّم الخطف هو ما حملني على تنفيذ العمليّة بنفسي وبشبّان ليسوا إطلاقاً من الحزبيّين، بل أبقيت الأمر كلّه سرّاً، ما وسعني ذلك، جاهداً كي لا يعرف الحزب به. ذاك أنّ معرفة الرفاق بأمر كهذا لا بدّ أن يُطلق في وجهي وكر دبابير لا أقوى على احتمال تبعاته. عندئذ، سيتّهمني العقائديّون المتشدّدون بيننا بالعائليّة وبالقَبَليّة، وسينقضّ عليّ الكارهون والحسّاد الذين يغارون من الموقع المؤثّر الذي أتمتع به والذي، في رأيهم، لا أستحقّه. حتّى الذين يحبّونني بينهم سيجدون أنفسهم مُحرَجين في الدفاع عن دوري

"المتخلّف" هذا، فيما أجد نفسي أخوض معركة غير أخلاقيّة وغير مبدئيّة، لا حليف لي فيها.

لقد اخترنا فجر يوم هادئ أمنيّاً للتنفيذ. آنذاك كانت الصحف تتناقل أخباراً عن انفراجات قائمة وأخرى محتملة. وفي الأيّام التي لا يسودها القصف والقنص، وتتراءى الأمور طبيعيّة، أو شبه طبيعيّة، تسترخي الأعصاب، فيعود الناس إلى حركتهم العاديّة ويعاودون تنقّلهم بين المناطق التي يكونون قد توقّفوا عن زيارتها إبّان اشتعال الجبهات. هكذا يكثر مجدّداً المسيحيّون الذين يفدون إلى مناطق المسلمين والعكس بالعكس.

وقد صدف أنّ الشبّان الثلاثة الذين حضروا معي في ذاك الفجر كانوا علي وحسين وصافي: علي كان قريب مخطوفنا وصديقه أيضاً، وقد اعتاد مرافقتي ظانّاً أنّني أقحمه في عالم المغامرة وفي تجرّؤ الشباب على الحياة العاديّة، وحسين كان ينوي مصاهرة علي فأبدى استعداده لتقديم أيّ خدمة تطلبها عائلته الجديدة، بما يعزّز المصاهرة. أمّا صافي، فكان صديقهما القديم وجارهما في الحيّ نفسه.

في تلك اللحظة التي أعقبت تنفيذ العمليّة، بدوت كأنّني أحضّ نفسي على أن أضاعف جرعة الكراهيّة التي أكنّها لمخطوفي. بدا ذلك مطلوباً كي أقدم على هذا العمل الذي لا أستسيغه بتاتاً. فقد كان عليّ أن أبرّر الخطف لذاتي أوّلاً، ثم للشبّان الثلاثة الذين أتيت بهم كي يشاركوني المهمّة. صرت أناقش نفسي بصمت،

ولكنْ من دون توقّف، كأنّني أطوّر حججاً قد أُضطرّ إلى قولها، ردّاً على من يسألني عن السبب الذي دفعني إلى خطف هذا المسيحيّ. وهي لم تكن حججاً دفاعيّة بحتة إذ شحنتُها بطاقة عارمة من الغضب الهجوميّ. رحت، مثلاً، أستحضر صورته الأولى في السيّارة، حينما تحدّث معي بطريقة قليلة الأدب، غيرَ عارف من أكون وغير مكترث لذلك أصلاً. صرت أستعيد تلك الصورة وذاك الصوت، مثنى وثلاثاً، تماماً كما تُستعاد مقاطع مكرّرة من الأغاني في الأسطوانات المجرّحة، وأقول في نفسي: سوف أُريه مَن أكون أنا ومَن يكون هو. فهذا الرجل لا يعدو كونه وغداً انعزاليّاً آخر، وهو خاطف لا بدّ، وهو قاتلٌ وضيع ما من شك في ذلك. صرت أتذكّر وجوه أشخاص سيّئين مرّوا في حياتي، وأستنتج أنّه يشبههم: عينا فلان مثل عينيه، وسحنة وجه ذاك اللعين مثل سحنة وجهه.

كان يجب أن يكون ذاك المسيحيّ سيّئاً بما فيه الكفاية حتّى لا أكون، أنا، سيّئاً. لكنْ ما إن خطفناه واتّجهنا به حتّى بدأ يتكشّف عن شخص مختلف تماماً عن إطلالته القبيحة الأولى. وهذا ما حدث دفعة واحدة لا تدرّج فيها. فهو ضعيف ومتردّد، بل خائف لم يبقَ فيه أيّ أثر من تجرّئه السابق. قال لنا إنّه كان متّجهاً إلى المطار حينما دهمناه، لا ليعود بركّاب يقلّهم إلى الجبل، على ما يفعل يوميّاً، بل ليسلّم سيّارته لرجل سبق أن اشتراها منه ودفع له ثمنها، على أن يدبّر أمره بعمل آخر

في مكان آخر. لقد راح لسانه ينطق بالتخلّي كما جعلت إشارات يديه تتنصّل وترسّم المسافات. فهو، كما جزم تكراراً، غير معنيّ بمنطقته وبطائفته ولا بسياستهما وبأحزابهما، بل غير معنيّ بأيّ أقارب له، كأنّه مولود من حجر. ذاك أنّ البلد كلّه لا يهمّه في شيء، كما قال، ما خلا الرغبة المُلحّة في مغادرته مرّةً وإلى الأبد وابتداء حياة جديدة في بلد جديد.

سقناه إلى بيتي وهو لا يزال معصوب العينين، يتمتم تمتمة المهووس الذي يحدّث نفسه بهوسه، واثقاً من صحة ذاك الهوس المستولي عليه، ومستهجناً كلّ سبب قد يكون أدّى إلى اختطافه. زوجتي أصابها شيء من الرعب ولم تُرد لطفلنا الوحيد أن يباشر الحياة بمشهد قاسٍ كهذا، كما تخوّفت من أن أُضطرّ، أنا أو المرافقون الثلاثة، إلى ضربه أمامها وفي عقر دارنا. ذاك أنّ أموراً كهذه لا يُتوقّع غيرها بين خاطف ومخطوف. نزعتُ العصبة عن عينيه وتظاهرنا، أنا والشبّان الثلاثة، بأنّ كلّ شيء على ما يرام. بعد ذاك، أجلسناه، كما نفعل مع الضيوف المكرّمين، في غرفة الجلوس فيما هو يداري ارتجافه الطفيف ويحاول أن يتحايل عليه. لقد أشعره البيت بقدر من الدفء فطلب سيجارة أشعلها له أحد الشبّان، ثمّ مجّها مجّتين مشبعتين أو ثلاثاً قبل أن يسأل هل نسمح له بالتوجّه إلى بيت الخلاء.

مخطوفنا هذا كان في حوالى الخامسة والثلاثين. بدا بسيطاً، يلبس ثياباً عاديّة، قميصاً أبيض وبنطلوناً

أسود، ما لا يوحي لمن يراه إلاّ بمواطن كأيّ مواطن يلتقيه واحدنا في أيّ شارع. شكله لم يعد مستفزّاً البتّة، بل سريعاً ما راح يغدو أليفاً حتّى كاد يمسي مدعاة لتعاطفنا.

وقبل أن أبادر إلى التحدّث إليه، خاطبني بصوت متهدّج، على حدود البكاء، فقال إنّ لديه ثلاث بنات ماتت أمهنّ وكلّ ما يريده أن يؤمّن لهنّ لقمة العيش الكريمة. قلت له مهدّداً وجازماً في تهديدي الذي أرفقته بخبطة من يدي على الطاولة: "إذا بكيتَ، فسوف أبكي أنا أيضاً، وهذا ما لا أريده أن يحدث، فإن حدث، لن أسامحك عليه". عند ذاك سيطرت على وجهه دهشة لم يستطع أن يخفيها، كأنّه استغرب منطق العقاب العجيب الذي أهدّده به. ولم أكتف بقولي هذا، بل قمت من حيث أجلس وقعدت إلى جانبه ثمّ أمسكت بزنده شادّاً عليه، كأنّني أطمئنه وأشدّ من عزيمته. في تلك اللحظة بدا لي أنّه راق وهدأ قليلاً من دون أن تتبدّد دهشته المثبّتة في نظراته. قلت له: "ما اسمك؟"، قال: "كميل". سألته عمّن يعرف من المسؤولين أو من السياسيّين، فقال إنّه كان يكذب لحظة المواجهة الأولى بيننا، وإنّه لا يعرف أحداً منهم، بل هو يكرههم كلّهم من دون استثناء. وبدوري، انتابتني خيبة أمل جحظت لها عيناي. فحبّذا لو أنّه كان يعرف فعلاً مسؤولين وأشخاصاً مؤثّرين، إذ كان يمكننا، في هذه الحالة، أن نضغط به عليهم، ولربّما استعدنا، من ثمّ، قريبي المخطوف.

صفنت قليلاً وسألته عن مدى جوعه، فقال إنّه يتضوّر جوعاً، فطلبت فولاً مدمّساً وجلسنا، نحن الخمسة، حول الطاولة نأكل، فيما زوجتي توزّع اهتمامها بيننا وبين طفلنا في الغرفة الأخرى. أيدينا راحت تتشابك فوق صحون الفول، مُزيلةً ما تبقّى من حواجز بيننا، فيما نحن نتقاسم الخبز والبصل والفجل والزيت والزيتون. قلت له كأنّني أشركه في همّي: "عندي قريب مخطوف"، وأضفت غير واثق من أنّه سيتفهّم شرحي: "نحن لم نُرد أبداً خطفك، لأنّنا أصحاب قضيّة تردعنا عن خطف المدنيّين الأبرياء. كلّ ما نريده أن نستعيد مخطوفنا، وهو الآخر بريء مثلك". سألته أن يسمّي لي أحداً من عائلته أو من معارفه، أيّ أحد، يمكننا الاتّصال به، فقال إنّه لم يكن يكذب حينما أخبرنا بأنّ لا عائلة لديه ولا أصدقاء.

– يا إلهي، لقد أوقعنا أنفسنا في ورطة. فما الذي سوف نفعله بهذا الرجل المقطوع من شجرة؟

قريبي، والد المخطوف، حضر في تلك اللحظة بعدما أخبره جار لنا أنّه رآنا، أنا والشبّان الثلاثة، ندخل البيت وفي صحبتنا رجل معصوب العينين. اتّجه مسرعاً إلى بيتنا كأنّه عثر على كنز كان مطموراً، لكنّني ما إن فتحت له الباب بنفسي حتّى منعته بلباقة من الدخول. قلت له إنّنا نجري تحقيقاً بالغ الدقّة مع مخطوفنا، وطلبت منه أن يعود إلى بيته فوراً، على أن أطلعه لاحقاً على ما أتوصّل إليه من معلومات.

الشبّان الذين معي فوجئوا بارتباكي وحيرتي اللذين يتحوّلان إلى غضب صامت، وسألوني عن سبب فقدان الارتياح الذي أبديه. علي قال بشيء من الاحتجاج الذي تسكنه سخرية مبطّنة من فعلتنا: "أنتَ أردتَ شخصاً مسيحيّاً، وها هو المسيحيّ قد صار بين يدينا". قلت وأنا عازف عن الدخول في إجابات طويلة: "لكنْ يجب أن يكون المخطوف مسيحيّاً مهمّاً". صافي، في المقابل، اقترح إطلاق سراحه وتنفيذ عمليّة خطف أخرى لمسيحيّ يكون مهمّاً، فبادلت اقتراحه بنظرة تدعوه إلى طيّ المسألة برمّتها وتناول الأمور الجدّيّة بجدّيّة أكبر.

نقلناه، ريثما نتدبّر الأمر، إلى بيتٍ مهجور، هو ملك واحد من أقاربي، يقع في طابق أرضيّ من بناية مأهولة، وكلّفت الشبّان الثلاثة التناوب على حراسته. كذلك اتّصلت برفيقين كانا وحدهما، فضلاً عن زوجتي، مَن يعلم بقرار الخطف، سائلاً إيّاهما أن يطالبا به في الصحف مستخدمين اسمين مستعارين. فهذا شخص لا يريده أحد ولن يطالب به أحد.

وبالتدريج، كبرت خشيتي من أن تطول العمليّة وأن تُعرف القصّة في أوساط حزبنا وباقي الأحزاب الحليفة، من دون أن نتوصّل إلى حلّ مقبول. فاحتمال كهذا سوف يكون محرجاً جدّاً لي ولحزبي سواء بسواء. ذاك أنّ التنظيمات الأخرى ستجد ما تبتزّنا به أو ما تزايد به علينا في ما خصّ اتّهامنا بالطائفيّة وفي ما كنّا جميعاً نسمّيه ممارسات ثأريّة متخلّفة.

في هذه الغضون، رحت أكثر من تردّدي على مخطوفي، وبتّ كلّما زرته أحمل معي مآكل لا تقدّم عادة إلى المساجين والمخطوفين. كنت، بهذا، كأنّني أصرّف الذنب الذي ينتابني حيال هذا الرجل عبر تزويده مآكل خاصّة وشهيّة ليس من السهل التوفّر عليها حتّى للأفراد الأحرار في أزمنة الحرب. مرّةً جئته بشرائح من سمك السلمون وبكافيار روسيّ أتاني به صديق قياديّ في "الحزب الشيوعيّ" عاد للتوّ من الاتّحاد السوفياتيّ، لكنّه ما إن علم بأسعار هذه الأصناف حتّى رفض تناولها. وكنت، إلى هذا، لا أكفّ عن تنبيه الشبّان الثلاثة إلى حسن معاملته وضرورة تأمين حاجاته على أحسن وجه. كذلك، طلبت من قريبي، والد مخطوفنا، توفير الطعام له حين أكون بعيداً أو مشغولاً في مهمّات أخرى، مع الحرص على ألاّ يقترب منه وألاّ يخاطبه مباشرة. وشيئاً فشيئاً، غدت الأوقات التي أقضيها معه تزداد طولاً، نتبادل فيها الكلام والقصص، فأتعرّف عليه أكثر وأعرّفه أكثر بنفسي.

وحتّى اليوم، لا أفهم ما الذي استحوذ عليّ في قصّة الرجل هذا. صار يتخلّل أحلامي التي توقظني أحياناً، كما صار وجهه يختلط بوجوه أليفة تأتيني في الليل.

ولا أدري لماذا، في إحدى المرّات، وفيما كان يحدّثني عن بناته الثلاث، وعن أمهن التي رحلت قبل سنتين، بكيت. وقد استجرّ بكائي المفاجئ حرجاً لم أعد أعرف كيف أداريه، فما كان منه سوى أن نظر إليّ بشيء من

تضامن الأب مع ابنه في لحظة محنة. وفيما راح يربّت على كتفي، طلب منّي أن أكون أقوى مما أنا عليه، إذ الضعف يليق به، هو، ولا يليق بي، أنا. ذاك أنّ القائد، كما قال، لا ينبغي أن يكون قلبه ضعيفاً، وأنا قلبي ضعيف، في رأيه.

في تلك اللحظة، حدث شيء من انقلاب الأدوار. فهو بات القويّ وأنا الضعيف المرتبك الذي اختطفتني قضته، كما جذبتني إليه أسرار لا أعرفها ولا أعرف هل كان هو نفسه يعرفها.

صرت، كلّما أتيح لي الوقت، أقصده، فيما ظللت أكابد وأعاني كي أحتفظ بالمسافة اللازمة التي تفصل السجّان الذي صرته عن السجين الذي صاره هو. ولم يكن لبكائي أمامه إلاّ أن ضاعف رغبتي في ترسيم مسافة كهذه، إذ آخر ما ينبغي أن يحدث على هذه الأرض هو أن أبكي أمامه مرّة أخرى. لكنّ، شيئاً فشيئاً تجمّعتْ بين يديّ قصّة لمخطوفي ما لبثتْ أن صارت جزءاً من قصّتي أنا.

فنحن، لدى خطفنا إيّاه، عثرنا معه على تذكرة سفر إلى إحدى دول الخليج لم ندقّق فيها ولا تحدّثنا عنها من قبل. ذاك أنّ ما من شيء، كما قال لنا مراراً، بات يربطه بهذا البلد التعيس. وهو حينما خطفناه كان متّجهاً إلى بيروت، لا للعودة بركّاب إلى الجبل، بل بقصد تسليم سيّارته التي باعها وأودع ما قبضه سيّدةً عجوزاً يثق بها كي تتولّى الاهتمام ببناته الثلاث. وهذا، كما

أضاف، لا يفعله مختاراً أو عن طيب خاطر. فالأسى يعتصر قلبه على فراق بناته، لكنّه متيقّن من أنّه لا يستطيع أن يفعل لهنّ شيئاً أكثر ممّا تفعله الجارة العجوز التي تذكّره بالقدّيسات.

فهو، على ما راح يشرح كأنّه يعتذر، لا يسعه التحدّث إليهنّ كما كانت أمهنّ تفعل، إذ هو رجل لا يفهم عليهنّ، كما لا يمكنه التأثير فيهنّ إلى الأحسن، بينما يستطعن هنّ إبقاءه مكتئباً مشلول العزم والإرادة. وهذا وضع ينوي الهرب منه بأيّ طريقة، حتّى لو بدت الطريقة، لمن لا يعرفه، قاسية القلب وعديمة العاطفة.

في تلك الأثناء، اشتبكت بالسلاح أحزاب المنطقة التي نقلنا كميل إليها، وراحت المعارك الموضعيّة والصغرى تتكاثر في أحيائها وتخلّف قتلى وجرحى، تبعاً لمستجدّات لم تكن في توقّع أحد منّا. وأنا، بدوري، توجّهت إلى هناك كي أتفقّد زوجتي وصغيري، على ما كنت أفعل عادةً، خصوصاً أنّ جهاز التليفون كان يتعطّل مع كلّ اشتباك يندلع. بعد ذاك، مررت بكميل والشبّان الثلاثة لأتفقّدهم أيضاً، متخوّفاً من أن تمتدّ الاشتباكات إلى حيث هم فتزيد حيرتهم وبلبلتهم، لكنّ دهشتي كانت كبيرة بما رأيت هناك. ذاك أنّ الرجل الذي يقف حارساً يحمل رشّاش كلاشنيكوف على مدخل البناية التي تضمّ شقّتهم، يبدو كأنّه كميل.

في تلك اللحظة، بدا الحيّ خالياً إلاّ من كلاب بعيدة تعوي، والكهرباء كانت مقطوعة فيما الزاروب المفضي

إلى البناية، والذي رحت أسير فيه باتّجاههم، ضيّق جداً. هكذا صرت أركّز نظري عليه وأبالغ في التحديق فيما أنا أقترب منه. إنّه فعلاً... كميل، مخطوفنا كميل.

لقد لاح، رغم العتم الشديد، أشبه بوجه روبوتيّ يتحرّك جسمه وفق انعطافات هندسيّة حادّة تشبه الزوايا القائمة. كان كأنّه يمثّل دوره الجديد تمثيلاً أو يمسرحه مقلّداً أبطالاً لم يعرف أنّهم هزليّون، أبطالاً كان قد شاهدهم في السينما أو على خشبة مسرح.

لقد نام حرّاسه الثلاثة الذين كانوا قد سهروا الليل كلّه واستبدّ التعب بهم، وحينما أبدى استعداده للسهر، أعطوه كلاشنيكوف وقالوا له: قم أنتَ بحراسة البناية، وإذا سمعت صوتاً غريباً أيقظنا.

استقبلني بعبارة: أهلاً يا رفيق. وهو ما استهولته قبل أن أسأله: أين الشباب؟

قال: الرفاق نائمون.

سألته فيما عيناي جاحظتان: ما هذا؟ ماذا تفعل هنا؟

قال إنّه يحرس لأنّ التعب والنعاس استوليا على الشبّان الثلاثة.

ومن دون أدنى تردّد، مددت يدي صوبه وأخذت منه الرشّاش بشيء من الغضب الملجوم، ثمّ دخلت عليهم لأجدهم يغطّون في نوم تشي أصوات صدورهم بعمقه. صرخت فيهم كي يستيقظوا وركلت واحداً منهم بقدمي، فاستيقظوا مفاجَئين بما أفعل. قالوا، شارحين لي ومبرّرين فعلتهم، إنّ لديهم كامل الثقة بكميل الذي

تكشّف لهم عن رجل اشتراكي مثلي. قال عليّ: "هو رفيق لك، اشتراكي أكثر منّا"، فيما كان نصف نائم، وعيناه اللتان يفركهما بأصابعه حمراوان جدّاً.

حسين بدا أقلّ جزماً، لكنّه قال ما معناه إنّ كميل، في أسوأ الأحوال، لن يهرب في تلك المنطقة الغريبة عنه والتي لن يلتقي فيها إلاّ بمسلّحين من طائفة أخرى، لا يعرفهم، وقد يعرّضونه للخطر.

نظرت إلى كميل، وقد تبعني إلى داخل الشقّة ووقف ورائي تماماً، فوجدته يهزّ رأسه موافقاً على ما فعله الشبّان حينما سلّحوه. وهو لم يتردّد في الإدلاء بدلوه في السياسة، إذ استنتج أنّ نشوب المعارك بين أحزاب تنتمي إلى المذهب نفسه دليل على أنه لا وجود للطائفيّة، وأنّه، رغم إيمانه المسيحيّ، علمانيّ واشتراكيّ.

وفي ما يشبه الخلاصات التي تتوصّل إليها البيانات الحزبيّة، رأى كميل أنّنا ينبغي، مهما اختلفت أديانّنا، أن نكون متّفقين وموحّدين في وجه الطائفيّين جميعاً. قال أيضاً، بعد لحظة صمت، إنه أحبّني كثيراً وأحبّ الشبّان الثلاثة وبات محيّراً بين البقاء معنا والرغبة في العودة إلى لا أحد ولا مكان. لقد راوده، كما أضاف، أن يشاركنا حياتنا حيث نحن، مقترحاً عليّ أن أجعله حارساً لي، وبهذا يستطيع، بين فينة وأخرى، وفي أثناء الهدوء النسبيّ، أن يتردّد على بناته. قال هذا فيما كانت تلفّه حالة عاطفيّة تتجلّى في صوته المتقطّع ووجهه

المستسلم على شيء من ارتباك، وإن بقي جسمه مشدوداً مستعدّاً لسائر الاحتمالات. لكنّ توقّف الاشتباك لاحقاً لم يوقف الأخبار السيّئة التي كانت تتدفّق علينا بوتيرة يوميّة. فالنبأ اللعين ما لبث أن وصلني بالعثور على جثّة قريبي المخطوف مرميّةً على طريق ضيّق في إحدى البلدات المسيحيّة القريبة. وتصوّرتُ للتوّ كيف سيأتيني أبوه غاضباً محملقاً في يحمّلني المسؤوليّة، وكيف ستتصرّف أمه التي لن تسيطر على ألمها بل ستفجره غضباً في وجهي أنا. ورحت بسرعة وارتباك أستعرض وجوه الأقرباء الذين ظنّوا أنّني أملك وحدي مفتاح العودة التي تنتظر مخطوفهم البريء. وأسوأ من ذلك كلّه أنّ الحفاظ على حياة كميل سوف يغدو، بمجرّد أن يشيع خبر الموت، مهمّة شاقّة إن لم تكن مستحيلة.

توجّهت من الفور إلى حيث هم كي أطلق سراحه. قلت له متغلّباً على تردّدي: سنقول لهم إنّك هربت، فيما تعود أنت إلى أهلك وننهي الموضوع، لكنّه اعترض لأنّ ما من أهل يعود إليهم، إذ نحن وحدنا أهله. "بناتي الثلاث - كما قال بصوت مرتجف - أمّنتهنّ بسعر السيّارة التي دفعها مقدّماً ذاك الشخص الآدميّ الذي يثق بي، وبالجارة العجوز التي تهتمّ بهنّ والتي لي كلّ الثقة بها. وهناك أيضاً راهبات الدير المجاور اللواتي يعطفن عليهن وفي وسعهنّ مساعدة السيّدة العجوز إذا لزم الأمر".

وبعد صمت لم يدم أكثر من دقائق ثلاث، كنّا كلّنا خلالها مذهولين، استأنف كلامه بصوت يكاد لا يُسمع،

أقرب إلى تمتمة الحائر غير المستقرّ على حال: "حقاً، أريد أن أرى بناتي، لكنّني واثق من أنّ مريم العذراء لن تتركهنّ، خصوصاً أنّ ابنتي الثانية اسمها مريم. والعودة إليهنّ صعبة عليّ، لا لأنّني لا أحبهنّ بل لأنّني لا أريد أن أواجه يومياً هذا الواقع الصعب والمعذّب الذي أبغي نسيانه. لقد كانت خطّتي أن أذهب إلى الخليج، وأنا هنا معكم أقرب كثيراً إليهنّ من الخليج".

كان الارتباك المصحوب بمشاعر غريبة يحملني على الإنصات، فيما انخفاض صوته يزيد تركيزي. إذ ماذا أقول لشخص حائر بين حرّيّته وبين رغبته في البقاء بين خاطفيه؟ وكيف لي أن أهبط بالحديث الذي نتبادله إلى سويّة الحرج حيال الأقرباء أو صعوبة حمايته أو سواهما من الاعتبارات التي جعلها كميل تافهة وسخيفة؟ بعد ذاكَ عاد فشرح بشيء من التفصيل ما سبق أن ذكره لي. فهو يرفض أن يتركني لأنّني صرت له الأخ الأصغر الذي لم تلده أمّه، كما قال حرفيّاً. وأنا، في رأيه، عاطفيّ ذو قلب ضعيف ولا يجوز أن أُترك وحدي. وقد تعدّدت الأسباب التي تحيّره حيال تركنا، فهو أيضاً يحبّ حرّاسه ممّن صنّفهم إخواناً صغاراً له، فوق أنّه يؤمن بقضيّتنا، قضيّة الفقراء والمظلومين من كلّ الطوائف، وفق تعبير له كان قاطعاً فيه.

وكابدتُ صمتي، لكنّ كان عليّ أن أصارحه بالحقيقة الجارحة. قلت له إنّهم سيقتلونك حتماً ولن أستطيع، أنا والشبّان، الدفاع عنك، كما لن تستطيع ذلك براءتُك

المؤكّدة من دم قريبي، ولا كلّ النيّات الحسنة التي أبديتَها وتبديها والتي لا يرقى شكّنا إليها. وتصرّف كميل تصرّف مَن لا يسمعني أو مَن لا يقتنع البتّة بكلامي. لقد ظلّ شارداً يحدّق في الحائط الذي يواجهه ويهزّ رأسه يمنة ويسرة كأنّه لا يعرف بماذا يردّ.

حوّلت نظري عنه إلى علي، وقلت له: "غداً توصلونه إلى المتحف"، فيما كميل ماضٍ في صمته العميق كأنّه يغرز نفسه في داخله. ومن جيبي، سحبت ألف ليرة ومددتها في اتّجاهه، فأشاح عنها ولم يمدّ يده في المقابل، كأنّه لا يريد الهبوط من سويّة الحيرة الجليلة التي هو فيها إلى هذه السويّة. تركت النقود على الطاولة وشددت بقوّة على زنده كما فعلت في اليوم الأوّل للخطف، متخوّفاً من أنّه قد لا يمدّ يده لمصافحتي في ما لو مددت يدي نحوه.

ذاك الوداع الصعب رافقه صوت كان يأتينا من راديو بعيد حيث تتردّد أغنية حنونة لم أستطع أن أتبيّن كلماتها. على إيقاعها غادرت كميل، ومعه غادرت أشياء كثيرة...

فتح ميشال عينيه على الدنيا مع حرب 58 الأهليّة. حينذاك، كان شابّاً متحمّساً لكميل شمعون، حامي النصارى كما سمّوه، وقد أعطاه "حزب الكتائب" مسدّساً صغيراً لم يُضطرّ أبداً إلى استخدامه. وهو، أصلاً، ظلّ يؤرّقه حمل المسدّس ويثير فيه شيئاً من الاستغراب بل القرف، إذ لا يجوز ذلك في مسيحيّ حقّ، كما كان يقول، لكنّه بات دائم التردّد إلى "بيت الكتائب" في منطقة الصيفي، يختلط بالمقاتلين وبالمحازبين على أنواعهم ويقضي معهم معظم أوقات فراغه. وهذا ما كان يمنحه إحساساً مبكراً بالنضج وبإحراز شرعيّة تتيح له التدخّل في ما يحدث حوله.

ولمّا انتهت تلك الحرب، فترث حماسة ميشال، مثلها مثل حماسات شبّان كثيرين، فاستأنف حياة عاديّة في بلد بدا، فقط على السطح، عاديّاً. لكنّ ما بقي فيه من تلك التجربة هو الخوف على المسيحيّين الذي كان يؤجّجه حدث عارض إلى أن يبدّده حدث عارض آخر. إلاّ أنّه، في حرب 67، لم يُخفِ ارتياحه لانتصار إسرائيل، مثله في ذلك مثل جمهرة عريضة من أبناء دينه ومنطقته. ذاك أنّ مسلمين قالوا يومذاك، على ما نُسب إليهم، "اليومَ السبت وغداً الأحد"، قاصدين أنّهم ما إن ينتهوا من اليهود ويصفّوا الحساب معهم حتى يبدأوا بالمسيحيّين.

يومذاك، كان ميشال لا يزال يعيش مع أسرته الصغيرة المؤلّفة من أب وأمّ وأخ واحد، في شارع ضيّق متفرّع عن وسط المدينة، غير بعيد عن منطقة الصيفي. هناك أقامت عائلات مسيحيّة فقيرة وكثيرة، بعضها وفد للتوّ من الأرياف القريبة. لكنّ المسيحيين، كما كان يقول بشيء من الزهو، كانوا يتحايلون على فقرهم فيطردونه من بيوتهم وشوارعهم. هكذا كانوا يظهرون في الشارع بلباس لا يوحي بذاك الفقر، كما تلوح شوارعهم دائماً مرتّبة ونظيفة. وهو كان يبدو، حين يقول ذلك، كأنّه يعني أنّهم أكثر عناية من المسلمين بالنظافة والترتيب، أو أن هذه قناعة سرت في بيت أهله ولدى أبناء منطقته، حفظها ميشال وتشرّبها وجعل يردّدها من دون تمحيص.

والده كان معلّماً بسيطاً يدرّس اللغة العربيّة في مدرسة دينيّة يديرها كهنة، وكان مؤمناً لا ينقطع عن الصلاة في الكنيسة، مع زوجته وابنيه. وقد اهتمّ الوالدان بتربية ميشال وأخيه الأصغر تربية تنمّ عن الورع وتأمر به. ذاك أنّ الصلبان وصور العذراء والقدّيسين كانت كثيرة في البيت تشرف من عليائها على أفعال العائلة المحافظة. فهم ملتفّون حول الأب، كأنّه المرجع الأخير للبيت، وصاحب الرأي الذي لا يُردّ في كلّ ما يعرض لهم. وقد درج الأب والأمّ على مطاردة الشتائم والبذاءة في أقوال النجلين الصغيرين حتّى

خُيّل لهما أنّهما استأصلا هذه العيوب لا من لساني نجليهما فحسب بل من قلبيهما أيضاً.

جدّ ميشال لأبيه، وكان تاجراً صغيراً يملك دكّاناً في الحيّ نفسه، ربطته علاقة تجاريّة ما مع تاجر مسلم كانوا يرونه أحياناً زائراً في البيت، لكن زياراته ظلّت قليلة وسريعة ومتقطّعة. وهذا المسلم الغامض الذي يأتي ولا يأتي هو كلّ ما عرفه ميشال من المسلمين وعنهم.

لقد درس الابنان، هو وأخوه، في مدرسة الحكمة التي يديرها رجال دين، وسط جوّ عامّ ظلّ المسلم غريباً عنه، وهي غربة لم ترافقها صور مُستحبّة أو جذّابة. فالمسلم لم يُنظَر إليه هناك إلاّ بوصفه رجلاً عنيفاً وكثير الإنجاب، يتزوّج ويطلّق على هواه، ويستجيب لشهواته بلا روادع. وربّما فاق ذلك أهميّةً أنّه، في نظرهم، غير مؤمن بلبنان وطناً نهائيّاً له، يفضّل عليه سوريّا والعرب وعبد الناصر.

ورغم قرب الإقامة من الأسواق التجاريّة، المختلطة والمتداخلة، ساد بيتَ ميشال موقفٌ يحذر الاحتكاك بالغرباء، لا سيما في حال كانوا من غير المسيحيّين. فهو وأخوه نادراً ما كان يُسمح لهما بالنزول إلى الشارع، أو الاختلاط بالأولاد اللاهين فيه واللعب معهم، فكانا يكتفيان بأبناء الأقرباء البعيدين أو ببعض أبناء الجيران القليلين الذين يعرف أهلُهم أهلَهم.

ومنذ أوائل الستينات، عاد الخوف عودة قويّة، فصار كلّ عام يمرّ يزيد الميل الدفاعيّ عند ميشال كما يشحذ مشاعره التي تنبئه بأن وجود المسيحيّين في لبنان عرضة لخطر مؤكّد. ذاك أنّ ثنائيّ عبد الناصر وفؤاد شهاب بدا ثقيلاً على أهله وعلى الوسط الذي يعيش فيه ويتحرّك. ومع أنّ هزيمة 67 عزّزت معنويّاته قليلاً، كان لانتشار السلاح الفلسطينيّ، في مناطق تلّ الزعتر والنبعة، أن رفع الحذر مجدّداً إلى مصاف الذعر. ذاك أنّ الفلسطينيّين المسلّحين باتوا يتحكّمون بعقدة الاتّصال والطرق في ما بين مناطق المسيحيّين المتلاحمة، كما يوقفون مسيحيّين لبنانيّين يقودون سيّاراتهم، مصحوبين بعائلاتهم، بين تلك البلدات والأحياء. وفي 73، حينما وقعت المعركة الشهيرة بين الجيش اللبناني والمسلّحين الفلسطينيين، تضاعف خوف ميشال، إذ تكشّفت له قوّة الفلسطينيّين العسكريّة وبأسهم. يومذاك، داعبته أفكار وخواطر لم يطبّقها عن ضرورة أنْ يتسلّح المسيحيّون ويدافعوا عن أنفسهم.

والفلسطينيّون بدوا لميشال مخيفين: سلاحهم يتهدّد حياته وحياة أهله وأبناء دينه، وهو في مشاعره هذه كان صادقاً. فتحت سطح الخوف من السلاح المسلم، أقامت طبقة مؤلمة ومؤثّرة كما الإقامة في المسامّ تحت الجلد الظاهر. فقد روى كيف أنّ أهل بيته عاشوا على قصّة تروي سيرة جدّته لأمّه التي كانت سريانيّة، عراقيّة الأصول، قبل أن تستقرّ في لبنان.

قال:

"أخبرتنا جدّتي تلك القصّة مراراً ونحن صغار، حتّى باتت جزءاً من وعينا ومن طريقتنا في فهم العالم. القصّة تبدأ من ضياع والديها حينما كانت في الخامسة وكان أخوها، وهو وحده مَن تبقّى من عائلتها، في التاسعة. لقد هربا بين البساتين، فارّين من مدينة الموصل العراقيّة، في أوج مذبحة المسيحيّين هناك أوائل تسعينات القرن التاسع عشر. سارا في محاذاة نهر الجقجق، أحد روافد نهر الخابور، وهم يتلفّتون إلى الخلف خوفاً، لا حنيناً إلى العالم الذي تركوه وراءهم. حينذاك، كان السلطان العثماني قد أصدر فرماناً ضمنَ فيه لمسيحيّي منطقة الجزيرة حماية كلّ من يأوي منهم إلى أعالي جبل سنجار. وبالفعل، أمَّ الكثيرون بينهم ذاك الجبل طلباً للحماية، لكنّهم لم يلبثوا أن تعرّضوا هناك لإحدى أبشع المذابح الجماعيّة. وتلك كانت مذبحة كبيرة حقّاً، حجمها في حجم ذاك التجمّع الآمن والمؤمن. جدّتي وأخوها لم يذهبا إلى جبل سنجار، بل سلكا، في المقابل، طريق البساتين على طول الخابور. لقد كانا جزءاً من قافلة ضخمة ضمّت أفراداً من السريان والكلدان والأرمن، كلّهم مسيحيّون وكلّهم مستضعَفون وخائفون. والقافلة سارت في أراضٍ وعرة بعيدة عن طرق المرور الاعتياديّة تفادياً منها للقَتلة، فيما أطبق عليها الهلع فراحت تتوسّل لنجاتها القدر والعذراء وسائر القدّيسين. وكانت جدّتي تروي أنّها،

والذين معها، كانوا يشاهدون، بين فينة وفينة، رجالاً منتصبي القامة لواحدهم سالفان طويلان وشعر متدلٍّ مجدول بأناقة وترتيب. هؤلاء كانوا من اليزيديّين الذين يقال إنّهم يعبدون الملك طاووس، وقد عطفوا على المسيحيّين النازحين فساعدوهم في حصولهم على الطعام، كما أرشدوهم إلى الطرق الآمنة والالتفافيّة التي ينبغي سلوكها تجنّباً للموت المؤكّد. وفي ظنّي أن جدّتي وأخاها، والآخرين الذين معهما، قضوا مدة طويلة وهم يتقدّمون بصعوبة في محيط نهر الخابور ووفق مساره، ينامون على الأرض ويقتاتون من جنى الطبيعة".

وتمضي القصّة التي تكشف عن موهبة سرديّة آسرة في ميشال، فيما يمتقع وجهه وتنطلق يداه في رسم إشارات لم تكن ترافق الكلام الذي يتكلّمه في العادة:

"لكنْ في يوم مظلم، فاض نهر الخابور وتدفّقت مياهه القويّة في اتّجاه البساتين المجاورة، وكان لمَدّه العارم أن جرف جدّتي الصغيرة وكثيرين معها. وهي راحت، في تلك المسافة الضيّقة والمتغيّرة بين الماء واليابسة، تركض بما أوتيت من قوّة، محاولة الابتعاد عن النهر والاقتراب، ما أمكن، من أشجار البساتين. لكنْ فجأة التقطتها يد من شعرها الطويل ورفعتها إلى شجرة، ثم ثبّتتها على أحد أغصانها. كان شقيقها القويّ منقذها من حيث كان يختبئ في تلك الشجرة. لقد كلّفته العذراء مهمّته هذه وقوّته بما يتيح له أن يلبّيها".

وبعد لحظة صمت وانكفاء على النفس، أضاف:

"وهذا الشَعر الأشقر الناعم الذي أنقذها، حرصت جدّتي طوال حياتها على ألاّ تقصّه. لم تفعل ذلك أبداً مذّاك، بل ظلّت يوميّاً، وبما يشبه الشعائر التي هي مؤتمنة عليها، تمشّطه لدقائق عدّة، ثم تجدله بتأنٍّ وتعقده خلف رأسها".

كان ميشال فيما هو يروي قصّة جدّته، يبدو موصولاً بعالم آخر، لا عالم طفولته هو، بل عالم الطفولة التعيسة التي عرفتها الجدّة، يعيشها ثانية أو يتقمّصها، رغم انقضاء عقود عدّة. لاح هذا العالم الذي ينقله عنها جزءاً من فجر الزمن الأوّل ومن غموضه، ومن أرض ما بين النهرين وشعوبه وأساطيره وألوانه، ومن إرادات السلاطين وفيضانات الأنهر وثبات الأشجار في مواضعها. لقد كانت على شيء من الفتنة تلك القصّة التي راحت تتداعى صوراً وتُسمع فيها أصوات الطبيعة مثلما يبدو تاريخ العذاب واحداً جامعاً. ومعها كان ميشال يتبدّى آتياً من أمسٍ مكسور ودامٍ. فهو امتداد لأسلاف لم يختزهم لكنّهم حكموه في أمور كثيرة يدرك بعضها القليل ويجهل بعضها الأكثر.

جدّة ميشال، كما روى، انتهت أسيرة ذاك الماضي المكسور، ماضيها، لا ترى في ما يجدّ من أيّام ولياليٍ غير تكرار كسول له، ولا ترى في ما يطرأ من وجوه غير استعادة لتلك الوجوه القديمة، لكنّها انتهت أيضاً حبيسة المسيح وأمّه العذراء، يحلّ الورع الممزوج بالكآبة حيث تحلّ. ذاك أنّ أخاها ما لبث أن قضى بداء غامض وهو

لم يتجاوز الثالثة عشرة، تاركاً إيّاها وحدها تشقّ طريقها الصعب في لبنان الذي كان لا يزال غريباً عليها، فيما تتخبّط مع ذاكرة تضجّ بالموتى وبالمضطهَدين. وهذا كان كافياً بحد ذاته لتسويد وجه العالم الذي تُقبل عليه محمّلةً باليأس واللاجدوى. وإذ تعهّدها دير للأيتام تتولاّه الراهبات، استمرّ المسيح والعذراء يملآن كلّ الأمكنة التي احتلّتها المشاعر الكبرى لديها.

لقد فكّرتْ، قبل لقائها الرجل الذي صار جدّ ميشال، في أن تتحوّل راهبة لخدمة الربّ وأن تقضي حياتها على النحو هذا. ولئن تخلّت لاحقاً، لسبب غير معروف، عن رغبتها تلك، فإن الشيء الكثير بقي منها وانتقل، من ثمّ، إلى أفراد الأسرة ثمّ استقرّ عميقاً في سلوكهم وأفكارهم.

"كانت والدتي تصرف وقتاً وجهداً كبيرين في جمع المعونات والمساعدات لليتامى والفقراء المسيحيّين، وكانت كثيراً ما تصلّي، مثلها مثل أبي الذي درج، في معظم الأماسي، على أن يقرأ بصوت عالٍ وخاشع معاً صفحة من إنجيل أصابه عتق واضح هلهل دفّتيه. في تلك الجلسات كانت تجتمع العائلة كأنّها تحتمي بالنصّ الذي يقرأه أبي، فتنصتُ إليه جدّتي وأمّي فيما أنا وأخي صغيران نلهو بالدوران حولهم في غرفة الجلوس. وكانت جدّتي تتابعه بنظرات عميقة، وهو يتلو الإنجيل، فلم نكن نعرف هل كانت تنكبّ على داخلها، تتأمّل فيه، أم أنّها تتأمّل في خارجها إذ تحاول التمعّن

في ما يتلوه لاستخلاص شيء مفيد من ذلك. عيناها كانتا مثبّتتين في نظر لا يتغيّر فيما كانت ترسم بأصابعها، بين فينة وفينة، شكل الصليب. وكان ذكر الجنة يشيع شيئاً من الدفء الداخلي فيها، فتلتمع عيناها من دون أن تتحرّكا، تماماً كما كان ذكر جهنّم يثير هلعها، وأحياناً يُدمع تينك العينين الجامدتين. ويبدو أن أفعال الله وحدها كانت الأفعال التي تتملّك جدّتي. أمّا الله ذاته، فكان الكائن الذي يقيم في وحدتها وعالمها الحميم، مصحوباً بالقصص القديمة عن نجاتها ورحيل أهلها وأخيها إلى العالم الآخر. وفي عرفها، صار هؤلاء شهداء قدّيسين، تتعامل معهم بالإجلال الذي تستدعيه صفتهم هذه".

وكان لهذا الإطار القاتم الذي عاش داخله ميشال وعائلته أن لفظ حياتهم بعيداً، أو أن تلك الحياة صارت لا أكثر من واجب دائم يؤدّى لوجه الله ومن خدمات تُسدى لعباده الضعفاء. ذاك أنّ ما يتعدّى هذه المساحة غدا أشبه بتوافه لا تستحقّ الذكر والاهتمام.

"زواجها بجدّي، مثلاً، لم يكن يستوقفها، فكأنّه الحدث الذي لم يحدث. حينما كنّا نسألها عنه كانت تقول: تزوّجنا، ويتوقّف السرد حيث ابتدأ، ما يضعنا حيال لحظة نافرة وعجيبة فرّت من نظام الزمن ومنطق الأشياء. أمّا أنّها ولدت أمّي وشقيقين لها، فلم يكن يحظى بعناية أكبر، حتّى إنّنا لم نعرف شيئاً يُذكر عن الخالين اللذين رحلا في شبابهما إلى الأرجنتين ولم

يعودا مذّاك ولا أرسلا رسالة ولا اتّصلا بأحد منّا. وأحياناً كانت تشير بكفّها إلى أمر ما من ماضيها البعيد كأنّه لم يستغرق سوى لحظة سريعة واحدة. هكذا كانت ترفع تلك الكفّ من قفاها على النحو الذي يُطرد فيه الذباب لتعلن النهاية واللا معنى. وهي، بهمّة ومواظبة، قلّلت الكلام الذي يجري بيننا كأنّ الكلام شاغل عن الربّ، أو كأنّ الأصوات التي تنبعث عنه تتسبّب في إزعاج أرواح ما نائمة أو إيقاظها. وكان كثيراً ما يتراءى لي أنّها تؤمن بلا جدوى الكلام أصلاً، أو بالصيام عنه، ما دامت الكلمات كلّها قد قيلت ذات مرّة على لسان الربّ. وجدّتي ما كانت تستسيغ المزاح بتاتاً، وعندها كان أقصى ما يبلغه الضحك رسم بسمة صفراء رقيقة على شفتيها. وهي لم تُسمع مرّةً تغنّي أو تنصت إلى أغانٍ أو موسيقى. أمّا أن يتحرّك جسدها على إيقاعٍ ما، فكان أمراً أقرب إلى الاستحالة. وهي لم تستمع مرّة إلى الراديو الذي في البيت، فكانت ترمقه من بعيد، وأحياناً تقترب منه كي تزيل عنه الغبار فحسب، لكنّها ظلّت تعامله بوصفه آلة غريبة وبعيدة يُستحسن ألاّ تمدّ اليد إليها وألاّ تدير أزرارها أو تحرّكها. أمّا الساعة الخشبيّة المعلّقة على الجدار، التي لا يعرف أحد من أين تسلّلت إلى غرفة نومها، فلم تُشاهد إلاّ معطّلة ومتوقّفة كأنّها صُنعت هكذا احتجاجاً على سيولة الزمن. وقد آثرتْ، لسبب أو آخر، ألاّ تقيّد معصمها بساعة يد، فكان نور السماء كثيراً ما ينجدها في تقسيم نهارها وأوقاته،

وهذه كلّ الوظائف التي تطلبها من زمن لم تكن تثق به أبداً".

جدّة ميشال قضت عمرها لا تلبس إلاّ اللون الأسود الذي يتوزّع على فساتين ثلاثة لا رابع لها. ذاك أنّ الحداد غدا عندها طريقة في الحياة، لا حاجة معها إلى موتى جدد كي يتجدّد بهم الحزن. وهذا الحزن العميق الآتي من أصل الأشياء والضارب فيها، والمستمرّ بحدّ ذاته، ملك عليها حياتها، ثمّ صبغ موتها، فكأنّه خيّم على لياليها قبل أن تنام، وعلى صباحاتها قبل أن تصحو.

حتّى الأكل، الذي كانت جدّة ميشال تشارك أمّه في إعداده، لم تكن تأكل منه إلاّ النزر اليسير الذي يُبقيها على قيد العيش القليل. وكان أكثر ما تتناوله ملعقة من لبنة تمسحها على كسرة خبز لا يتعدّى حجمها حجم كفّ اليد الصغرى. أحياناً تعزّز اللبنة بحبّتي زيتون وأحياناً أخرى لا تفعل، لكنّها دائماً حريصة على أن يأكل باقي أفراد الأسرة، لا سيّما الأخوين الصغيرين.

لقد كان لقصّة الجدّة وطباعها أن ضاعفت تعويل الأسرة كلّها على ما أسموه الخلاص بالمسيح، إذ يمتزج لديهم طلب الجنّة بالخوف والورع والتجهّم، وبالتعلّق بلبنان الذي ألجأ العائلة وآواها. "إذ – كما مضى ميشال - ماذا لو حدث لنا هنا ما حدث لجدّتي ولأهلها في العراق؟ فالمسلمون، في رأي عائلتي، مستعدّون دوماً لطرد المسيحيّ، بل حتّى لقتله وللتخلّص منه كأنّه مجرّد حشرة ضارّة".

هكذا كان الخوف مدخل ميشال إلى السياسة، والخوف يُغني عن الحاجة إلى التفكير. إنّه وأهله خائفون مزمنون فحسب. هذه وحدها كانت النظريّة التي تلزمهم وتكفيهم، لكنّ شقيقه الأصغر بدا كأنّه أنصت إلى قصّة جدّته مراراً، ثمّ استنتج ما استنتجه منها وراح يتصرّف على هواه. فهو قرّر أن ينضمّ إلى شبّان أصغر سنّاً منه جعلت تدرّبهم "الكتائب" وتنظيمات مسيحيّة متطرّفة على استخدام أسلحة جدّيّة. وقد ذهب أبعد كثيراً ممّا ذهب ميشال في 58:

"فأخي بيار كان سيّئ الأخلاق والطباع، لا يمتّ بصلة إلى المسيحيّة وتعاليمها التي سبق أن ربّانا عليها الوالد والوالدة الراحلان. عشيّة الحرب، قاد شلّة من صغار السنّ الذين تُركوا في الشوارع، كأنّهم بلا أهل، فكانوا يعتدون على عمّال سوريّين وفلسطينيّين في محطّة بنزين وورش بناء تتوزّع على ضاحية بيروت الشماليّة ومداخلها. كانوا يأتون في الليل، مسعورين ومخمورين، معهم سكاكين وأحدهم يحمل جنزيراً من حديد. ولا أدري هل كان بين الضحايا مَن مات تحت تعذيب أخي ورفاقه، لكنّني متأكّد من أنّ كثيرين بينهم كُسرت عظامهم أو عُوّقت أعضاء فيهم. فالمسلمون والفلسطينيّون، عند بيار، ليسوا بشراً مثلنا. إنّهم أقلّ منّا، ولربّما بدوا له حشرات يسهل معسها".

وبيار، في بدايات الحرب، كان يخبر ميشال عن وقائع وأحداث لا يرتاح إليها، فيحاول عبثاً ردعه، وإن

كان خوفه منه يمنعه من الاسترسال في إبداء استيائه. "فأنا لم أره مرّة إلاّ مسلّحاً، يحمل سلاحه أو يزيّته أو يتفاخر به على نحو أو آخر".

لقد علم منه، مثلاً، أنّ حواجز "الكتائب"، حيث يقف، وحيث تشارك فتيات حزبيّات، كانت فردوساً لتنفيس الرغبات المحتقنة. ذاك أنّ طول الوقت والانتظار والضجر، فضلاً عن الخوف المقيم والثابت، كانت تطلق من المشاعر ما ينتهي بالرفيق وبالرفيقة إلى سرير واحد. وأحياناً كان يحدث تبادل بين رفاق حاجزين، وأحياناً أخرى كانت تقام مناسبات جنس جماعيّ يشترك الكلّ في شعائرها. فالإحساس بالموت كان يجعل الأجسام تنبض بالرغبة، "عندهم في الغربيّة، كما عندنا في الشرقيّة، وفي أحزابهم كما في أحزابنا. والشيء نفسه يصحّ في المخدّرات التي عصفت بمقاتليهم كما عصفت بمقاتلينا". وهذا ما كانت أخلاقيّة ميشال وورعه لا يستسيغانه، إذ "كيف لأشخاص تعبث المخدّرات برؤوسهم أن يعرفوا الحقيقة وأن يدلّونا إلى الطريق الصائب؟".

لكنّ، مع تطوّر الحرب، تطوّرت نشاطات بيار، فصارت أفدح وأشدّ إنزالاً بالألم والأذى اللذين يصيبان أعداداً أكبر من الأبرياء. "لقد عمل على سلاح المدفعيّة فقصف أحياء مأهولة بمسلمين في أوقات معيّنة هي التي يخرج فيها الناس من أماكن عامّة. وذات مرّة، وردّاً على قصف عنيف تعرّضت له الأشرفيّة، اتّصل بصالة سينما

في المنطقة الغربيّة وقال لإدارتها إنّ ثمّة قنبلة ستنفجر داخل القاعة. بعد ذاك انتظر بيار ورفاقه دقائق قليلة، هي الوقت الذي توقّعوه لخروج الناس هرباً من تلك القاعة، كي يبدأوا قصف محيط السينما، علّهم يرمون أكبر عدد من القتلى. لكنّ بيار، فوق هذا كلّه، احتال عليّ حيلة أفضت إلى تدميري أيضاً. فهو أقنعني مرّةً بتوقيع ورقتين أو ثلاث تأدّى عن توقيعي لها خسارة كلّ ما ورثته عن الأهل. لقد أخذ المال وقطعة الأرض الصغيرة المتروكة لنا، وحينما حاولت التحدّث معه في الأمر، هدّدني وقال إنّ حياتي وحياة بناتي رهن مشيئته. لا أدري ما الذي فعله بيار بالمال الذي سرقه، منّي وربّما من غيري، ولم أعد أعرف شيئاً عنه لأنّ علاقتي به انتهت يومذاك ولا أريد لها أبداً أن تعود".

لقد ترك ميشال دراسته قبل نيله شهادة البكالوريا، وانتقل إلى العمل في مهن متقطّعة من أجل أن يوفّر لبيار شروط الدراسة والانتساب إلى الجامعة، لكنّ أخاه كافأه بالطريقة التي كافأه فيها بعد سنوات لم يتعلّم خلالها شيئاً في الجامعة ما خلا التفنّن في السلاح. وبين ليلة وضحاها، انتهى ميشال مُفقراً، لا يملك إلاّ السيّارة يؤمّن بها عيشه وعيش عائلته. مع هذا، ظلّ ميشال يقول إنّ هذه مشيئة الله وإنّ الله هو وحده العادل.

مونولوغ حزبيّ خالص

حينما فكّرنا، أنا ورفاق من تنظيمنا الحزبيّ الذي حُلّ قبل ربع قرن، أن نؤسّس تنظيماً جديداً، حضر عشرة أشخاص، ثمانية منهم يطلّون على السبعين، وواحد يغادر خمسينه، وآخر في أوائل ثلاثينه بدا غريباً بين باقي المجتمعين.

وهو كان غريباً بالفعل، لا في عمره فحسب، بل أيضاً في ما قاله، حتّى إنّنا رحنا نتساءل عمّا أتى به إلينا. لقد اعترض على كوننا كلّنا رجالاً، لا نساء بيننا، وبعدما صمت قليلاً، سألنا عن موقفنا من المثليّين والمثليّات وحقوقهم. استغربت كثيراً، أنا ورفاقي، ما يقوله هذا الشابّ. نساء؟ حسناً، نحن دائماً مع مساواة المرأة بالرجل ومع تحريرها ممّا تُنزله بها الرأسماليّة، لكنّ من أين نأتي بعدد من النساء يساوي عدد الرجال المهتمّين بالسياسة. إذا شاؤوا أن أقول: "للأسف"، قلتُ "للأسف"، لكنّ الواقع شيء آخر تماماً. أمّا المثليّون، فهذا موضوع غريب عنّا، إذ ما علاقة اليسار بالمثليّة؟ حسناً، إذا أرادوا أن يكونوا مثليّين فليكونوا شرط أن يتمّ ذلك من دون ضجيج، أمّا أن يُطالَب حزبنا الموعود بخسارة الجماهير من أجل أن نكسب المثليّين، فهذا جنون محض. تأمّلوا أن نعلن على الملأ أنّنا مع حقوق المثليّين في أن يكونوا مثليّين!

على أيّ حال، أنا لا أعرف كيف يفكّر أفراد هذا الجيل وكيف يفهمون الأمور. ابني الأكبر درس إدارة الأعمال وقال لي غير مرّة إنّه يكره السياسة. وهو يظنّ، وهذا ما يؤلمني حقّاً، أنّنا، أنا ورفاقي، مجموعة من الفاشلين الذين أضاعوا أعمارهم في ما سمّوه نضالاً، وأنّه كان في وسعنا، لو تجنّبنا هذا النضال، أن نوفّر لأبنائنا حياة أفضل. أمّا ابني الأصغر، فلا يتورّع عن تسمية نفسه يساريّاً، لكنّ يساريّته، هي الأخرى، لا أفهم منها شيئاً. فالكلمات التي كنّا نردّدها عشرات المرّات في اليوم الواحد، كـ"بورجوازيّة" و"إمبرياليّة" و"تحرير فلسطين"، لا أسمعه يذكرها بتاتاً. وهو يقول إنّه يكره العنف الذي كنّا نمجّده بوصفه قاطرة التاريخ. لكنّه حين يأتي بأمثلة عن العنف الذي يكرهه يأتي بها من السجون والمصحّات، وأحياناً من علاقات الرجال بزوجاتهم، والمعلّمين بتلامذتهم، وممّا يحدث للعمّال والعاملات الأجانب، وهو حصراً لا يأتي على ذكر العنف الذي تمارسه السلطة الطبقيّة على الطبقات الكادحة، أو الإمبرياليّة على الشعوب. صحيح أنّه يحبّ تشي غيفارا، لكنّ غيفارا كان عنيفاً، ثمّ إنّ جمال وجهه وحبّ النساء له لا يجعلانه ينوب عن آخرين أهمّ منه بكثير، كماركس ولينين، بالكاد سمع ابني بهم.

وهو يخلط عبّاساً بدبّاس، أو هذا ما يتراءى لي. فعنده تتداخل السياسة، أو ما يراه سياسة، بالموسيقى وببرامج الكومبيوتر أو بالأجيال الجديدة من التليفونات

المحمولة. ومرّاتٍ إذ أسمعه يتحادث مع أصدقاء له، هم أيضاً يسمّون أنفسهم يساريّين، لا أفهم معظم الكلمات الأجنبيّة التي ترد في كلامهم. وبالطبع، لن يكون في وسع الجماهير أبداً أن تفهم هذه الكلمات. وأذكر أنّنا، في أيّامنا، كنّا نرى الذين يُدخلون تعابير أجنبيّة في ما يقولونه بورجوازيّين ويمينيّين، وكثيراً ما ناضلنا ضدّ الموقع الذي كانت الشهادات الرسميّة تمنحه لتعلّم اللّغات الأجنبيّة. ذاك أنّ هذه الأولويّة كانت، في رأينا، خطّة مبرمجة لإسقاط أبناء الفقراء الذين لا يجيدون الإنكليزيّة والفرنسيّة ولحرمانهم الشهادة الجامعيّة.

وأقول لنفسي أحياناً، بعد أن أستعرض هذه الفوارق في الأجيال والعقليّات: لمن يا ترى سنؤسّس ذاك الحزب ما دام يساريّو أيّامنا هذه يفكّرون هكذا؟ وكيف نتخاطب معهم ونتفاهم؟، ثمّ أقول: حسناً، نؤسّسه لنا، نحن الذين لا نستطيع العيش من دون حزبٍ، إمّا ننخرط فيه أو ننشقّ عنه منشئين حزباً آخر. بعد ذاك أعود فأقول: لكنّ الحزب ليس مقهى نتسلّى فيه، إنّه أداة وصول إلى السلطة، ونحن صرنا في أعمار لا تسمح لنا بأن نخطّط لذلك. وعلى افتراض أنّنا وصلنا إلى السلطة، هل سنستطيع الزعم أنّنا، نحن المتقدّمين في السنّ، من يمثّل التقدّم والتقدّميّة؟

ربّما تغيّرت أحوال الدنيا أكثر ممّا توقّعنا، والأسوأ أنّها، على ما يبدو، تغيّرت في اتّجاه غير ذاك الذي توقّعناه. الرفيق ربيع، الذي يحتكّ بالشبّان الصغار، كونه

أستاذاً جامعيّاً، يقول إنّ كثيرين بينهم لا يزالون يفكّرون مثلنا، لكنّني لا أرى ذلك بتاتاً. لقد عرفت بضعة شبّان كانوا فعلاً يفكّرون مثلنا، بل يسألوننا ويستشيروننا، لكنّهم ما إن كبروا قليلاً وتخرّجوا في جامعاتهم حتّى تركونا. بعضهم، وهم قليلون، حافظوا على صلتهم بالسياسة لكنّهم صاروا ناشطي مجتمع مدنيّ. تخيّلوا هذه التسمية الفارغة من كلّ معنى، تسمية ناشط، التي استبدلوا بها كلمة مناضل. وأغرب من هذا أنّ هؤلاء يتلقّون تمويلاً أجنبيّاً، أوروبيّاً وأميركيّاً، أي إمبرياليّاً، يعزّزون به نشاطهم العجيب لإقامة الديموقراطيّة، من دون أن يلحظوا أيّ تناقض في ذلك. بعضهم الآخر صاروا يعملون مع الزعماء الرجعيّين، رافضين نعتنا هذا بوصفه بائداً واستبداديّاً، كما يقولون. وهؤلاء في معظمهم طامحون إلى مواقع سياسيّة يصلون إليها عبر طوائفهم. أشخاص كهؤلاء كنّا نسمّيهم انتهازيّين، فيما يسمّونهم اليوم طامحين وشطّاراً.

وعلى العموم، صرنا نُضجر الشبّان حين نحدّثهم عن ماضينا. كلامنا عن العمل النقابيّ يُضجرهم مثلما تُضجرهم ذكرياتنا عن الحرب وكيف قاتلنا وقصفنا وقُصفنا. أحدهم بلغت به الوقاحة أن قال لي إنّه لا يحبّ أن يسمع شيئاً عن الحرب والشهداء، واستغرب أن نكون فخورين بما سمّاه ذكريات دمويّة بشعة. آخر قال لي إنّ معنى الحزبيّة نفسه تغيّر وصارت أفكار لينين

على هذا الصعيد مدعاة للسخرية، ومضى مطالباً إيّانا بنقد تجربتنا وآخذاً علينا تأييد بلدان كالاتّحاد السوفياتيّ والصين الشعبيّة واليمن الجنوبيّ لأنّه يراها مستبدّة!

مرّةً تراءى لي أنّ علينا البحث خارج هذه البيئة التي ترطن باللّغات الأجنبيّة في بيروت. هؤلاء، في النهاية، ذوو طموحات بورجوازيّة هي في أحسن أحوالها إصلاحيّة يراد منها ترقيع النظام بما يساعدهم على الدخول فيه. لكنّ بيئة الشبّان الفقراء والمتعطلين عن العمل في الأرياف والضواحي لا تريدنا أيضاً ولا تريد أن تسمع كلامنا. هؤلاء تجدهم اليوم في الأحزاب الدينيّة والطائفيّة يسيرون في ركاب قادة شعبويّين ينهبون الشعب ويبيعونه الغرائز.

والحقّ أنّ شيئاً كبيراً لم ننتبه إليه بدأ يتغيّر مع انتهاء الحرب وحلّ حزبنا قبل ربع قرن. حينذاك، رحنا نكتشف بعض أبناء جيلنا أنفسهم، ممّن كانوا يناضلون معنا في أحزابنا، يدخلون في أحزاب طوائفهم ويحتلّون فيها المناصب أو يتسلّقون المراتب. أذكر ذاك الرفيق السنّيّ الذي صار، بين ليلة وضحاها، يدافع عن مشروع نيوليبراليّ لنهب المدينة وطبقاتها الكادحة، لمجرّد انتمائه إلى الطائفة التي ينتمي إليها صاحب المشروع، كما أذكر رفيقاً شيعيّاً صار يرى أنّ مقاومة إسرائيل لا يصلح لها إلاّ الحزب الدينيّ الذي يشاركه انتماءه الطائفيّ. وحينما أقدم هذا الحزب على اغتيال رفاق

سابقين له في اليسار، نفى التهمة عن أحبابه الجدد وبرّأهم.

هكذا، وسط اختلاطات كثيرة كهذه، بدا من تحصيل الحاصل ألاّ نتوصّل، في اجتماعنا الأوّل ذاك، إلى نتيجة. وبالفعل، قرّرنا أن نلتقي مرّة أخرى آملين أن نتمكّن من إعلان تأسيسنا الحزب الجديد. وأنا، خلال الوقت الفاصل بين الاجتماعين، راحت الأفكار تتجاذبني بقوّة أكبر، بعضها يشجّع على المضيّ في ما بدأناه، وبعضها يثبّط ويردع، لكنّ حينما حلّ يوم لقائنا الثاني أحسست بألم حادّ في المفاصل يمنعني من النهوض. وأنا لم أكن قبلاً أنتبه إلى الصحّة التي باتت كثيراً ما تخذلني، كأنّ أعدائي استأجروا جسدي أو استوطنوه وباتوا يحرّكونه من داخله ضدّي. كلّ يوم ألم جديد في مكان من أمكنة هذا الجسد الذي كانت قوّته من شروط قوّة الحزب، أكان ما ينويه إضراباً أم تظاهرة أم كفاحاً مسلّحاً. فهل يعقل اليوم أن أحمل معي إلى الثورة كلّ تلك العقاقير التي ألتهمها، وأن أنظّم العمل الثوري على إيقاع مواقيت الأدوية التي أتناولها؟

في ذاك اليوم، حينما تحرّكت عليّ مفاصلي، قلت لزوجتي: أريد أن أنام قليلاً قبل أن أتوجّه إلى عيادة الطبيب المختصّ، وقلت في نفسي: لا أظنّني أستطيع المشاركة في تأسيس الحزب، فليؤسّسوه وحدهم وقد أنضمّ إليهم في الاجتماع الثالث... إذا عُقد.

١٨٨١-١٨٨٢... أو كيف نشأ الاستعمار؟

كلّما قرأت دعاية حلويّات الحلاّب الطرابلسيّة عن نفسها، وهي أنّ نشأتها ترجع إلى ١٨٨١، تذكّرت عام ١٨٨٢. ففي هذا الأخير، وعملاً باتّفاق المؤرّخين، توجّه الاستعمار إلى بلادنا وولدت الظاهرة الاستعماريّة. ذاك أنّ الإنكليز دخلوا مصر عامذاك كي يقمعوا التمرّد الذي قاده الضابط المتحمّس أحمد عرابي.

ويُظنّ أنّ الإنكليز ما إن عرفوا بالحلاّب، عبر تقارير قناصلهم في السلطنة العثمانيّة، وعبر ما نقله رحّالة ومستشرقون بريطانيّون كلّهم، على ما يبدو، تذوّقوا "زنود الستّ" ووصفوها، حتّى قرّروا مهاجمة مصر. ولمّا كانت السلطنة العثمانيّة "رجلاً مريضاً" مهيض الجناح، بدت الخسائر التي قد تترتّب على غزوة كهذه معقولة ومحتملة. هكذا استخدموا تمرّد عرابي ذريعة، وحزموا أمرهم سالكين الطريق التي سبق لمنافسهم نابوليون بونابرت أن سلكها قبل أقلّ من قرن بقليل. إذ، هو الآخر، ابتدأ بمصر آملاً أن يصل منها إلى سوريّا ولبنان، عبر فلسطين.

لم تكن الموادّ الأوليّة ولا رخص اليد العاملة الحافز إلى ذاك الاستعمار. ذاك أنّ رداءة الحلويات الإنكليزيّة، من البودينغ والكاسترد وسواهما، شكّلت ذاك الحافز. وقد نشر الأرشيف البريطانيّ أخيراً رسالة كتبها، أواخر ١٨٨١، مواطن بريطانيّ ووجّهها إلى حكومته، طالباً فيها

أن تشنّ تلك الحملة العسكريّة وأن تقبله، في ما لو شئتها، كمتطوّع في الجيش الزاحف إلى مصر.

الرسالة تبدأ على النحو الآتي: "هل يليق بنا، ونحن بريطانيا العظمى، أن نقول honey كلّما أردنا أن نتحبّب أو نتغزّل؟ تخيّلوا كم هي سخيفة هذه المخاطبة التي لا يفسّرها إلاّ أنّنا، نحن الإنكليز، نصنّف العسل على أنه أرقى أنواع الحلوى. وهذا، فضلاً عن كونه بائساً ومضجراً، مهينٌ لنا وكاشف لفقر ذائقتنا".

ولا تلبث الرسالة أن تنحو منحى دراميّاً غاضباً، فتقول: "كان للتوابل، ذات مرّة، أن ساقت أجدادنا وآباءنا إلى الشرق الأقصى، فلماذا لا تدفعنا هذه الحلوى المعروفة بزنود الستّ إلى الشرق الأوسط القريب؟. أليس عاراً علينا القعود عن طلب تلك الجنّة الأرضيّة؟".

ويمعن كاتب الرسالة في وصف زنود الستّ، بادئاً باسمها الذي يقارنه بـ"الأسماء المملّة، العديمة الخيال، التي نعطيها لحلوياتنا". ويتبدّى صاحبنا على درجة من الثقافة حين يقول: "حلوياتنا، في الحقيقة، بيوريتانيّة، خجولة بذاتها، كأنّ جلالة الملكة فيكتوريا هي التي طبختها بيديها"، لكن حسيّة زنود الست، أو "شهوانيّتها"، وفق تعبيره، هي أكثر ما يستوقفه، فيروح يتحدّث عن طعمها الذي يقول إنّه قرأ عنه في تقرير لأحد القناصل نشرته **التايمز** اللندنيّة: "تخيّلوا، يا سادتي، أنّ زنود الستّ تقوم على مزج مدهش بين رقائق العجينة المقليّة بالسمن الحمويّ وبين القشدة

التي هي أكثر حلاوةً من فاكهة القشدة، والتي لا يساورني شكّ في أنّ الفاكهة هي التي سُمّيت تيمّناً بها". ويزيد: "هل تتخيّلون ما الذي يفعله هؤلاء الشرقيّون المدهشون؟ إنّ هذا الاندماج يجعل طعمين وملمسين يتقاطعان في لقمة صغيرة واحدة: طعماً قويّاً على قدر طفيف من الخشونة واللسع، وطعماً يسكّن غضب الروح ويكاد يذوب في الفم بمجرّد أن يتلقّفه اللسان. يا له من تناقض لا يوجد إلاّ في الخرافة". وهو يترك لرسالته هامشاً طويلاً في أسفلها، حيث يعدّد الكنافة والفراكة والبقلاوة والبورما والعثمليّة والبلّوريّة وحلاوة الجبن وحلاوة الرزّ وسواها، مضيفاً: "يكفي أن تعرفوا أنّ الكنافة، مثلاً لا حصراً، نوعان، واحد بالجبن والآخر بالقشدة، وهناك كنافة تصنعها مدينة نابلس في فلسطين تختلف تماماً عمّا تتذوّقونه في طرابلس وبيروت، والشيء نفسه يصحّ في حلاوة الجبن التي تُصنع في حماة السوريّة على نحو يختلف عن صناعتها في طرابلس الشام".

ويبدو أنّ الرسالة بدأت تفعل فعلها مع تسرّب مضمونها إلى "الجمعيّة المَلَكيّة" التي عُرفت، منذ تأسيسها في القرن السابع عشر، بالتركيز على العلوم. فمن اهتمامها بتشريح زنود الستّ، تحوّلت هي نفسها إلى نوع من "اللوبي" المبكر للضغط على السياسيّين. وفعلاً، راحت النخبة السياسيّة في بريطانيا تتداول الرسالة، حتّى إنّ مجلس العموم عقد جلسة تصارع فيها

الحزبان، المحافظ والليبرالي، حول الحملة على مصر وقياس الأكلاف بالجدوى. فلمّا اشتدّت حملة النوّاب الليبراليّين عليها، وزّع عليهم النوّاب المحافظون، المتحمّسون للحملة، بعض حلويات الحلاّب، لا سيّما ما حصلوا عليه من زنود الستّ. وفي الجلسة التالية، تراجعت معارضة الليبراليّين وكان أن سكّ أحد نوّابهم عبارة صارت تعريفاً صالحاً للاستعمار، فهو: "الطريق الأقصر إلى زنود الستّ".

هكذا انطلقت الحملة، وببساطة تغلّب الجنود البريطانيّون على أحمد عرابي وقوّاته القليلة التنظيم، لكنّهم، ما إن استقرّوا في مصر، حتّى بدأوا يسمعون عن أهل الساحل في لبنان وسوريّا أنهم يحفرون المتاريس ويسيّرون مظاهرات جماهيريّة صاخبة يرفعون فيها شعارات عن الكرامة من نوع: "زنود الستّ خطّ أحمر"، و"بالروح، بالدم... نفديك يا زنود الستّ"، وأنّ الانكليز يعدّون لـ"حملة صليبيّة أخرى عنوانها، هذه المرّة، السيطرة على زنود الستّ". وقد توصّل الإنكليز، عبر أجهزة استخباراتهم، إلى جمع معلومات متفاوتة القيمة، منها مثلاً أنّ شبّاناً من المشرق العربي يتطوّعون في فرق انتحاريّة، وأنّهم يزمعون تفجير أنفسهم في البريطانيّين. كذلك عرفوا أنّ بعض العائلات ألبست أطفالها أثواباً بيضاء مخصّصة لمن ينتقلون إلى الجنّة، وأنّها أسمتهم "شهداءَ أحياءً" و"شهداءَ مؤجّلين". أمّا المثقّفون والمتعلّمون بينهم، فليسوا أفضل حالاً، إذ

يقولون عن ولعنا بحلوياتهم إنّه استشراق، وهي عندهم كلمة مرذولة جدّاً. ورغم أنّ عائلة الحلاّب أوصلت سرّاً إلى البريطانيّين أنهم لا يعارضون حملتهم، بل أبلغتهم بتعاطفها مع الحملة، لأنّ كلّ ما يهمّها تنشيط حركة البيع والشراء، فإنّها، كما أضافت المعلومات الاستخباريّة، أبدت عجزها عن التصدّي العلنيّ للحركة الشعبيّة الهائجة والعريضة.

ومن حصيلة هذه المعلومات والتقديرات، استنتج البريطانيّون أنّ شعوب الشرق الأدنى لا تملك شيئاً من الخفّة، وأنّها سريعاً ما تطرح على الطاولة قضايا المصير والحياة والموت.

وعلى هذا النحو، استخلص القادة العسكريّون البريطانيّون في مصر، بعد مداولات مع حكومتهم في لندن، أمرين مترابطين في ما بينهما:

الأوّل، أنّ التقدّم، عبر فلسطين، إلى سوريّا ولبنان، سيكون مكلفاً جدّاً على الصعيد الإنسانيّ. "فهؤلاء الأقوام يحبّون الموت أكثر ممّا يحبّون الحياة، ويبدو أنّهم يتشوّقون للقائنا كي نوفّر لهم هذه الذريعة"، كما صرّح أحد قادة الحملة لصحافيّ بريطانيّ أنهى مقالته بالسؤال: "هل يعقل أن يكون هؤلاء هم أنفسهم الذين يصنعون زنود الستّ، أم أنّهم يصنعونها ولا يأكلونها؟".

والثاني، أنّهم لن يعثروا في حملتهم على شركاء محليّين: "فالمتعلّمون الذين نتوقّع منهم التفهّم والانفتاح ليسوا معنا (...) وحتّى آل الحلاّب،

المستفيدون المباشرون من عمل كهذا، لن يتجرّأوا على إعلان التأييد لنا"، على ما أضاف القائد نفسه. لكنّ قبل اتّخاذ القرار الأخير، طرح أحد الجنرالات فكرة تبنّتها القيادة العسكريّة في القاهرة وبعثت بها، على شكل مذكّرة، إلى الحكومة في لندن طالبةً رأيها. ومفاد الفكرة ضرورة العمل السلميّ على خطّين لبلوغ الهدف المرجوّ: من جهة، الطلب إلى السلطات العثمانيّة تسهيل عمليّات النقل البرّيّ والبحريّ لحلويّات الحلاّب، والتمنّي عليها ألاّ تعرّضها لمدد طويلة من الفحوص المختبريّة بما قد يسيء إلى جودتها، مع محاولة إغراء إسطنبول بتسهيلات تتعلّق بمرور السفن والبواخر المتّجهة من السلطنة وإليها في قناة السويس. ومن جهة أخرى، ربط منح التأشيرة لطالب السفر من لبنان وسوريّا إلى مصر بنقل كيلوغرام واحد من زنود الستّ تُسلّم، لحظة الوصول، إلى دائرة الجمارك. ولمّا كان المثقّفون الأحرار يومذاك، من أمثال يعقوب صرّوف وشبلي الشميّل وفرح أنطون، يسعون إلى الهجرة إلى مصر والتمتّع بحريّاتها، ولمّا كانت أعدادهم كبيرة نسبيّاً، بات في وسع منقولاتهم أن تسدّ بعض الفراغ الإستراتيجيّ وأن توفّر للقيادة العسكريّة تمتّعها بزنود الستّ. هكذا نشأت في الأدبيّات السياسيّة المعادلة التي باتت تُعرف بـ"الحريّة مقابل زنود الستّ"، لكن جواب الحكومة البريطانيّة على المذكّرة جاء سلبيّاً وغاضباً. فقد ورد فيها أنّ "تجربتنا مع هذه الأقوام تبرهن لنا أنّ زنود الستّ لا تملك الفعاليّة

المرجوّة على صعيد تحسين الطباع والأخلاق"، والبرهان الذي لا يُدحض "أنّهم هم أنفسهم شعوب زنود الستّ، وهم الذين يأكلونها، أو هذا ما يُفترض أن يكون، ومع ذلك، انظروا ما الذي نراه منهم؟".

لقد طوي أمر الحملة البريطانيّة على سوريّا ولبنان، وقُرّر، في ١٨٩٨، التوجّه إلى السودان لأهداف سوف تتحدّث عنها وثائق أخرى يُفترض أن يفرج عنها الأرشيف الحكوميّ البريطانيّ عمّا قريب.

ضرب وزير الخارجيّة القبرصيّ ديمتري كبريانو يده على الطاولة، وقال باندهاش يشوبه الغضب: "هل يعقل أن يفكّر الاتّحاد الأوروبيّ وحلف شمال الأطلسيّ على هذا النحو؟ هل يعقل أن يكونوا جدّيّين؟ كيف يحكم العالمَ أمثالُ هؤلاء وهم لا يفهمون شيئاً عنه؟".

وما هي إلاّ برهة حتّى لاذ بالصمت فيما زملاؤه الوزراء ينتظرونه أن يهدأ كي يسمعوا منه العرض المفيد الذي يتوقّعونه. ذاك أنّ الحكومة القبرصيّة دعت أعضاءها إلى اجتماع طارئ واستثنائيّ لمناقشة الزيارة المفاجئة التي أدّاها وزير الخارجيّة الألمانيّ هلموت فاينماير إلى نيقوسيا. لقد جاء فاينماير ممثّلاً عن الاتّحاد الأوروبيّ وحلف شمال الأطلسيّ معاً كي يناقش مع زميله القبرصيّ مسألة وصفتْها الصحافة العالميّة، صبيحة اليوم نفسه، بأنّها ستكون "في غاية الخطورة والجدّيّة".

بعد لحظة، وفيما الوزراء ماضون في ملاحقة زميلهم بنظراتهم وبفضولهم، وبالكثير من التوقّعات، انفجر كبريانو بضحك هستيريّ. وزير الداخليّة سبيرو هاسيكوس الجالس قربه، هزّه من كتفه وسأله بقدر ملجوم من الحدّة: "ما القصّة يا ديمتري؟ قلْ، تحدّثْ"، فنظر إليه ديمتري وجعل يضحك ويضحك ويمسح الدموع التي تجمّعت في عينيه. هكذا لم يستطع باقي

الوزراء، كأنّهم أصيبوا بالعدوى، منع أنفسهم من ضحك لا يفقهون سبباً واضحاً له.

وإذ امتدّت الأيدي إلى علبة محارم الورق، حيث مسح بعضهم دموعه وبعضهم مخاطه، تلت ذلك لحظةٌ من الرزانة تليق بمجلس وزاريّ يعقد اجتماعاً طارئاً واستثنائيّاً.

وبالفعل، استعاد كبريانو جدّيّته وبدأ مجدّداً بالتحدّث: "يرى الاتّحاد الأوروبيّ والحلف الأطلسيّ، كما نقل الوزير الألمانيّ، ضرورة أن نتولّى، نحن القبارصة، شؤون العالم العربيّ، أي أن نحكمه ونسيّر أحواله. وفي حال الموافقة من جهتنا، سوف تعمل الأسرة الدوليّة على اجتراح الصيغة القانونيّة المناسبة لانتدابنا هذا".

"ماذا ماذا ماذا؟"، قال وزير الدفاع نيكوس باتساليس، وسط أصوات كثيرة شرعت تهمهمُ في القاعة يخترقها قليل من الضحك وشيء من الصفير غير مألوف بتاتاً في الاجتماعات الوزاريّة. وفيما بدت عيون الوزراء كلّهم نافرة وجاحظة، انتظر وزير الخارجيّة أن تحلّ لحظة هدوء أخرى كي يستأنف الكلام. هكذا رفع نظّارتيه ووضعهما على الطاولة، وقال بصوت يجتمع فيه صوتا الحكيم والساحر: "نعم، نعم، أنا لا أمزح، وهذا بالضبط ما هو معروض علينا".

ومضى الوزير كبريانو يروي ما يشبه محضر الجلسة التي انعقدت بينه وبين زميله الألمانيّ. فهو حينما شهق لسماعه الاقتراح، ردّ عليه فاينماير بالقول: "لا تفهمني

خطأ يا عزيزي ديمتري. فأنتم لن تتولّوا أمر العالم العربيّ برمّته، أي كلّ تلك المساحة التي تمتدّ من المغرب إلى قطر. أنتم سيقتصر انتدابكم على الجزء الآسيويّ من العالم العربيّ، فيما ستُعنى مالطا بأمر الجزء الأفريقيّ".

هنا عجز كبريانو عن البقاء مستمعاً صامتاً ومهذّباً: "مالطا! هل قلتَ مالطا يا عزيزي هلموت! يا للهول! إنّها أضعف منّا وتريدون لها أن تمسك بالسودان ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا! مالطا يا عزيزي هلموت! إلاّ إذا كنتم تعوّلون على فرسان مالطا كي يضطلعوا بالشقّ العسكريّ من هذه المهمّة!". لكنّ ما قاله الوزير القبرصيّ لم يُضحك، على ما يبدو، زميله الألمانيّ ولم يُثر عنده أيّ استغراب. لقد اكتفى فاينماير ببسمة واثقة ومقتصدة رافقها تعديل طفيف في جلسته. أمّا وجهه، فكسته هيئة الأستاذ الألمانيّ المفاوض الذي تخرّج في جامعة هيدلبرغ، وراح يشرح:

– أنتم، في قبرص، أصحاب تجربة ناجحة في الحكم والإدارة، وقد برهنتم عن حكمة ورحابة حينما أنهيتم الوضع المعلّق منذ عقود مع شمال جزيرتكم ووافقتم على أن يختار أتراكها لحياتهم ما يشاؤونه، مع استمراركم في التمسّك اللفظيّ بالوحدة. والآن يكفي السفر جوّاً نصف ساعة من سواحل سوريّا ولبنان كي يهبط المرء في جزيرتكم التي يسودها الأمن والهدوء وتمضي في بناء تجربتها الديموقراطيّة البرلمانيّة.

فقبرص اليوم تستقطب من الاستثمارات ما لا يستقطبه العالم العربيّ، الآسيويّ منه والأفريقيّ على حد سواء. السيّاح يتدفّقون إليها ولا يتوجّهون إلى أيّ بقعة تنطق بالعربيّة. أمّا العرب، فكثيرون منهم كانوا في السنوات الماضية ينزحون إلى جزيرتكم الوديعة حينما كانت حروبهم تشتدّ والحياة في بلدانهم لا تطاق...

وللمرّة الثانية قاطعه كبريانو: "حسناً يا عزيزي، لكنّ هذا لا يكفي لجعلنا نتولّى أمر تلك المساحات الشاسعة والأعداد المليونيّة ما بين اليمن جنوباً والعراق شمالاً والحدود الشرقيّة لمصر غرباً".

ومجدّداً طالبه الوزير الألمانيّ بأن يهدأ قليلاً وأن يستمع إليه حتّى النهاية قبل أن يناقش مقترحاته. قال: "أنتم القبارصة قريبون جغرافيّاً من سوريّا ولبنان كقرب مالطا من ليبيا. وهناك، لا شك، علاقات تقليديّة، تجاريّة وثقافيّة، تجعلكم، أنتم وأهل مالطا، تفهمون جيرانكم العرب".

وللمرّة الثالثة لم يتمكّن كبريانو من السكوت، فقاطعه: "نفهم العرب؟ نحن؟ نحن لا نكاد نفهم أنفسنا؟ وهل فهمُ العرب في مثل هذه السهولة؟ ثمّ، ماذا عنكم أنتم الدول العظمى والقويّة التي ربطتكم بالبلدان العربيّة علاقات متينة جدّاً لعشرات مديدة من السنوات؟".

ويبدو أنّ الوزير الألمانيّ استاء قليلاً من المقاطعة المتكرّرة التي تشوّش عليه ما يريده من تتابُع في

العرض، فردّ بشيء من الحدّة:

– نحن يا صديقي لم نعد مهتمّين بالعالم العربيّ. فإسرائيل ذات القوّة العسكريّة الجبّارة، خصوصاً إذا ما قورنت بأحوال جيرانها البؤساء، لم تعد تحوجنا إلى الدفاع عنها. أمّا النفط فلم تعد له أيّ قيمة بعدما نجح الغرب في السنوات الخمس الماضية في اكتشاف سبعة مصادر بديلة للطاقة واستغلالها. ما نفعله اليوم ليس له أيّ هدف سياسيّ أو إستراتيجيّ بالمعنى المباشر، ما خلا خوفنا من المستقبل. فهؤلاء الصغار الذين سيكبرون قريباً من دون آباء قد يعيثون فساداً في منطقة تقابل جنوب أوروبا. ونحن، يا صديقي، نراهن على قوّة مثل قبرص ترعاهم وتردعهم عن الأفكار والأعمال القاتلة لآبائهم ولأجدادهم، التي أودت بهم إلى التهلكة. وهذا أيضاً واجب إنسانيّ كما ترى، ونحن من ناحيتنا مستعدّون أن نعزّزه بمساهمات وتبرّعات ماليّة نقدّمها لمهمّة انتشار قوّاتكم والقوّات المالطيّة في البلدان العربيّة.

ومضى فاينماير:

– الأخبار التي تحملها الصحف يوميّاً تُقلق بقدر ما تكسر القلب، والرأي العامّ في بلداننا يطالبنا بأن نفعل شيئاً ما. يوم أمس مثلاً غرق سبعون كويتيّاً كانوا يحاولون بزوارقهم الخشبيّة البدائيّة الوصول إلى شواطئ الهند بحثاً عن لقمة العيش. وقد التقيت في برلين وزير خارجيّة سريلانكا الذي حدّثني عن معاناة

السفارات السريلانكيّة في العواصم العربيّة، في دبيّ كما في بيروت. قال إنّ الفتيات والنساء، وأغلبهنّ أرامل لرجال قُتلوا في حروبهم الأهليّة، يقفن طوابير طويلة طالبات تأشيرات دخول إلى سريلانكا للعمل في الخدمة المنزليّة. ألا تثيركم هذه القصص يا سيّد كبريانو، ألا تحرّك فيكم القلق والمشاعر معاً؟

"بلى بلى"، أجاب الوزير القبرصيّ، قبل أن يقول وهو دائخ شارد النظر:

– لكنّني، يا سيّد فاينماير، كأنّني سمعتك تقول مهمّة انتشار قوّاتنا المسلّحة والقوّات المالطيّة في العالم العربيّ... هل أنت فعلاً تقصد ما تقول؟ اعذرني إذا تساءلت عن مدى معرفتكم بحجم قوّاتنا والقوّات المالطيّة قياساً بمئات ملايين العرب وبمساحات أراضيهم الشاسعة؟

ومزّة أخرى أصيب الوزير الألمانيّ بمسّ من توتّر:

– اسمع يا عزيزي. يُدهشني أنّكم، هنا في قبرص، وبسبب السكينة والبحبوحة اللتين تنعمون بهما، لم تعودوا تجدون ما يغريكم في متابعة ما يجري لدى جيرانكم العرب. إنّني أجزم لك بأنّ قوّاتكم والقوّات المالطيّة أكثر من كافية لإخضاع الأراضي الناطقة بالعربيّة، وذلك لسبب بسيط. فعلى مدى السنوات الخمس عشرة الماضية، قُتل قرابة 92 في المئة من الرجال العرب، بعضهم قُتلوا وهم يقاتلون، وبعضهم قتلهم المقاتلون قبل أن يُقتلوا. ممّن تخافون إذاً؟ لم

يعد هناك رجال في العالم العربيّ الذي يكاد يقتصر سكّانه اليوم على النساء والأطفال. لقد ظلّوا يتحدّثون عاماً بعد عام عن وحدتهم، مرّةً لنصرة الدين ومرّةً ضدّ إسرائيل ومرّةً لا أعرف لماذا، لكنّهم لا يفعلون غير إفناء واحدهم الآخر. كذلك تحدّثوا كثيراً عن المقاومة، المقاومة الموجّهة نحونا بالطبع، ظانّين أنّنا سنعود إلى استعمارهم. لقد انتظروا طويلاً عودتنا كي يقاومونا، وانتظروا وانتظروا، ولمّا لم نعد راحوا يقاومون بعضهم بعضاً: أدياناً وطوائف وعشائر. واليوم تردنا تقارير تلو تقارير وهي كلّها تفيد بأنّ الرجال الذين تبقّوا على قيد الحياة يريدون من أطراف خارجيّة أن تتدخّل كي لا يبيدوا أنفسهم هم أيضاً. أتمنّى أن أكون قد أقنعتك يا سيّد كبريانو؟

بدوره، ألحّ الوزير القبرصيّ على سؤال مباشر: "لكنْ هل لك أن تشرح لي ما الفائدة التي تتحقّق لقبرص من هذا المشروع التوسّعيّ يا عزيزي الوزير، خصوصاً أنّ النفط الذي يملكه العرب فقد كلّ قيمة". "الجواب سهل"، ردّ كبريانو: "هناك مساحات هائلة من الأراضي الزراعيّة وهناك ثروات مائيّة ضخمة على الأقلّ في العراق الذي كان اسمه القديم بلاد ما بين النهرين..."، وهنا أيضاً وجد زميله القبرصيّ مادّة للسجال: "فالثروة الزراعيّة التي يملكها القبارصة تفيض عن حاجتهم"، كما قال، مضيفاً: "وفي ما خصّ الإفادة المرجوّة من التصدير، صارت أسعار السلع الزراعيّة اليوم تتطلّب

الدعم الذي لا نقوى عليه، وهذا قبل التفكير في تصديره. أما الثروة المائيّة العربيّة، فتشحّ إذ تتعرّض بلدانها لتصحير متنامٍ يجعلها تشبه باقي البلدان الصحراويّة التي لا ماء فيها...".

وارتفع قليلاً صوت فاينماير ردّاً على مجادلة زميله:

– يا عزيزي، لو فكّرت روما القديمة مثلكم لما نشأت حضارتنا الراهنة. هناك في التاريخ قوى انتزعت لنفسها أدواراً إمبراطوريّة وتمدينيّة أكبر منها، وإنّما من طموحات عملاقة كهذه صيغت الحضارة الإنسانيّة.

لكنّ كبريانو راح يردّد في صمته كأنّه يمضغ كلماته مضغاً: "إمبراطوريّة قبرص... دورنا الإمبراطوريّ والتمدينيّ! نحن مثل روما القديمة! لا بأس... هل ينبغي أن نشكر العرب على ذلك أم أن نشتمهم!". وفيما هو منكفئ على داخله، يحاول أن يلملم أطراف نفسه التي بعثرتها الجلسة، توجّه إليه فاينماير بمخاطبة عاطفيّة. لقد نظر إليه بشيء من التأسّي، وقال: "وماذا عن العجائز المسيحيّين الباقين هناك ومعظمهم مثلكم من الروم الأرثوذكس، ألا يستحقّ هؤلاء بذل بعض التضحية من أجلهم؟". وبالفعل، تأثّر كبريانو، خصوصاً أنّه الأمين العامّ للحزب المسيحيّ الديموقراطيّ في قبرص، فبادر الوزير الألمانيّ إلى تبديد الموجة الحزينة التي هلّت على اللقاء: "قل لشعبك إنّه لم يبق إلاّ النساء عند العرب، وهذا يعني أنّ في وسع كلّ قبرصيّ أن يتزوّج أعداداً من النساء العربيّات". وحاول كبريانو الردّ

على هذه المداعبة بمداعبة مقابلة: "لكنّ هذا يستدعي تحوّل القبارصة، وكذلك المالطيّين، عن المسيحيّة واعتناقهم الإسلام بما يتيح لهم تعدّد الزيجات"، لكن الوزيرين سريعاً ما استعادا أجواء تفاوضهما الجدّيّ، فسأل كبريانو بحرقة:

– مع الاحترام لكلّ المعطيات التي أوردتَها يا معالي الوزير، يبقى شيء غير مُقنع بالمرّة وإن كنتُ لا أعرف ما هو بالضبط، ثمّ إنّني لا أشكّ في أنّ القبارصة والمالطيّين، ومن دون أن يفكّروا كثيراً، سيجدون الأمر مستهجَناً جدّاً، وسوف يتمنّون كلّهم إبعاد هذا الكأس الإمبراطوريّ عن شفاههم. لماذا –يا معالي الوزير– لا تجرّبون لهذه المهمّة إسرائيل أو تركيّا أو إيران مثلاً؟

ولم يُعدم الوزير الألمانيّ، الذي جهّز ملفّه بدقّة، الجواب:

– إسرائيل وتركيّا تربطهما بالعرب مواضِع مؤلمة قد تؤثّر في فعاليّة تعاطيهما مع المشكلات العربيّة، وأنت تعرف كم أنّ تلك الشعوب، حتّى لو فنيت عن بكرة أبيها، متعلّقة بالتاريخ من دون أن تعرفه على حقيقته. مثلاً، قرأتُ في بعض كتب التاريخ العربيّة أنّ العرب هم الذين طردوا الصليبيّين من فلسطين، ثمّ طردوا الأتراك ومن بعدهم الإنكليز، وأنّهم سوف يطردون اليهود مثلما طردوا السابقين عليهم. والحقيقة التي يعرفها كلّ تلميذ ابتدائيّ في المدارس الأوروبيّة أنّ الأتراك هم الذين طردوا الصليبيّين، ثمّ تولّى الإنكليز طرد الأتراك، وبعد

ذلك طرد اليهودُ الإنكليز. إنّهم، على هذا النحو، يحشون رؤوس أبنائهم بالأخطاء ثمّ يبنون سياساتهم وعواطفهم على أساس الأخطاء هذه. أمّا إيران، ورغم سقوط نظامها الدينيّ قبل ستّ سنوات، فإنّها لم تتعافَ بعد من نزاعاتها الأهليّة. فإذا استمرّت أحوالها في التدهور، واتّخذ تفسّخها شكلاً عربيّاً، كان علينا أن نبحث لها أيضاً عمّن يتدبّر أمرها، كالأذريّين وربّما الأرمن. وهذا فضلاً عن أنّ الشيعيّة، التي هي مذهب الإيرانيّين، تثير لدى من تبقّى من الرجال العرب، وهم على المذهب السنّيّ، أقصى الكراهية. لقد تكفّلت الكراهية المتبادلة بين السنّة والشيعة وحدها بالقضاء على ٦٢ مليون شخص. هل تصدّق ذلك؟

هنا توقّف الكلام ونظر الوزير الألمانيّ إلى ساعته كأنّه يقول إنّه مضطرّ إلى التوجّه إلى المطار. وبحثاً عن نهاية سعيدة للاجتماع، مازحه كبريانو قائلاً: "هل تعرف يا عزيزي الوزير أنّ في لبنان وسوريّا حزباً سياسيّاً يقول إنّ قبرص جزء من أمّة السوريّين واللبنانيّين؟"، وضحك فاينماير: "أرأيت؟ المنطقة غرائبيّة بما فيه الكفاية، حتى أنّ تدخّلكم فيها لن يبدو غريباً". وما لبث الوزير أن أضاف: "يا لها من منطقة! لا شكّ أنّ من يتحدّث جدّيّاً عن أمّة واحدة تجمعكم بالسوريّين وباللبنانيّين نزيل نموذجيّ لمصحّ عقليّ؟".

– "لا أبداً"، أجاب كبريانو، لم ينقلوه إلى مصحّ بل أعدموه.

– "أعدموه على أفكار كهذه"، سأل فاينماير مستغرباً، ثمّ أضاف: "ما من شك في أنّ الذين أعدموه أسوأ منه، أو على الأقلّ، أكثر خفّة".

وحاول كبريانو أن يقول إنّ المشروع الذي يقترحه الاتّحاد الأوروبيّ والحلف الأطلسيّ على قبرص لا يقلّ خفّة، ولو أنّ الأمر هنا يتّخذ شكلاً معكوساً، إذ ينضمّ بعض العرب إلى قبرص بدلاً من أن تنضمّ هي إليهم، لكنه آثر ألاّ يقول شيئاً من هذا القبيل كي لا يستفزّه.

وقف الاثنان وتصافحا، فسأل الوزير القبرصيّ سؤاله الأخير: "هل أفهم موقفكم –يا عزيزي الوزير– بوصفه اقتراحاً أم بوصفه إملاءً؟"، فردّ الضيف الألمانيّ وهو يهمّ بالمشي: "تعرف –يا عزيزي– أنّ الديبلوماسيّين لا يحبّذون كلمة إملاء، لكن رفض قبرص سيزعجنا كثيراً بعد كلّ تلك الجهود التي بذلناها لبلورة الخطّة هذه. أرجوكم أن تفكّروا بإيجابيّة وأن تُبقوا في أذهانكم مدى ارتباط بلادكم وازدهارها ببلدان أوروبا والأطلسيّ".

... ما إن أنهى الوزير عرضه أمام مجلس الوزراء، وهو ما استمرّ ثلاث ساعات، حتّى حلّ صمت ثقيل قطعه رئيس الحكومة سوكراتس فُكايدس بقراره استدعاء قائد الجيش الجنرال فيليبوس كادِس إلى الاجتماع. وبالفعل، استدعي الجنرال الذي ضحك لدى إطلاعه على الأمر، وخال أنّ سياسيّي بلاده بدأوا يؤنسنون السياسة ويُدخلون الدعابة فيها، علماً بأنّه امتعض قليلاً لظنّ ساوره، وهو أنّ الوزراء مصابون

بالضجر ويريدون أن يتسلّوا قليلاً. لكنّ قائد الجيش ما إن استشعر جدّيّة الكلام، حتّى راح يبكي بكاء مُرّاً ومتواصلاً، وهو ما نُظر إليه على أنه سبب وجيه لإنهاء الاجتماع، على أن يُستأنَف صباح اليوم التالي.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

«لم يكن من السهل التعرّف إلى عمر جيرمين. كان أمرها يشبه الأحجية: هل تعرف عمرها، كان يسألنا يوسف، ابن شقيقتها، واثقاً من أنّنا لن نعرف.

فجيرمين التي صدمتها سيّارة وهي طفلة، نمت نموّاً متفاوتاً كما ينمو العشب البرّيّ. جسمها ظلّ صغيراً ورفيعاً كجسم تلميذة ابتدائيّة تشارك في مباريات مدرسيّة للركض، إذ رجلاها أطول ممّا يحتمله ذاك الجسد الضئيل. وبين أفراد البيت الآخرين، وكلّهم ذوو قامات ضخمة، بدت جيرمين أشبه باللعبة التي تتحرّك وسط ظلالهم. أمّا عقلها فتوقّف عند ما كانه في لحظة سابقة، أو ربّما رجع إلى زمن يسبقه. إلاّ أنّ جيرمين التي كانت يومذاك في الخمسين، امتلكت حكمة تقودها، في غالب الأحيان، إلى الحكم الصائب...»

نبذة عن المؤلف

حازم صاغية كاتب لبناني.

كتب أخرى للمؤلف

«الانهيار المديد»، «هجاء السلاح»، «أنا كوماري من سريلانكا»، «هذه ليست سيرة»، «مذكرات رندا الترانس»، «شعوب الشعب اللبناني» (بالاشتراك مع بيسان الشيخ)